

الحمد لله رب العالمين

الله اكمل الالام و اكمل النعم

الله اكمل الالام و اكمل النعم

تألف

رسول جعفر بن ابي

منشورات

دار الحكمة

بيروت / لبنان

الطبعة الأولى
الكتاب السادس
لأبناء الأهل والآباء



الْحَمْدُ لِلَّهِ
الْعَزِيزِ وَالْكَبِيرِ
لِأَمْرِهِ أَهْلُ الْبَيْتِ

الْمُحَمَّدُ الْأَوَّلُ

تألِيفُ
رَسُولِ جَعْفَرِ بْنِ

مَنشُورَاتِ
دَارِ الْحُكْمِ
بَرْرُوتِ

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٤ - ١٤١٤ م



لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب محطة دباب - بناية المهنية اللبنانية .

ص . ب ١٧٩ / ٢٥ غيري تلفون : ٠٠١٢١٢٤٧٨١٨٢٧ فاكس ٨٢٥٣١٦

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على محمد وآلـه الطـاهـرـين .
برغم ضخامة المؤلف عن حياة الأئمة عليـهمـالـحـلـمـة الذي تارة أخذ شكل
المجاميع الروائية أو الأخبار التاريخية ، لم تأخذ حقها من الدراسة كحياة
عظماء جسدوا الاسلام واعطوا المثال الأروع عنه ، وذلك نتيجة ابعاد
الاسلام الأصيل عن الساحة ، وتصدي النموذج الأبعد عن الاسلام للأمر .
وبعد بزوج فجر الاسلام من جديد وعودته إلى دوره ، كان لزاماً إعادة
النظر في جميع مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية
والعسكرية ، ودراستها لاستكشاف رأي الاسلام ومنهجـه ، وبلورة مفهـوم
صحيح وصالـح عنـه . وهو شأن المـفكـرـين وذـويـ الاـختـصـاصـ .
ومن أهمـ الجـوانـبـ التي يجبـ التركـيزـ عـلـيـهاـ حـيـاةـ المـثالـ الأـروعـ
وـالـمـجـسـدـ الـحـقـيقـيـ لـلـاسـلـامـ الـأـئـمـةـ عليـهمـالـحـلـمـةـ وـالـكـتـابـ الـذـيـ بـيـنـ يـدـيـكـ
ـعـزـيـزـيـ القـارـيـءـ . جـهـدـ مشـكـورـ قـامـ بـهـ أـحـدـ عـلـمـائـاـنـ الـأـفـاضـلـ ، يـتـناـولـ
ـالـجـانـبـ الـفـكـرـيـ وـالـسـيـاسـيـ لـلـأـئـمـةـ عليـهمـالـحـلـمـةـ ، وـدـرـاسـةـ حـيـاتـهـمـ ، وـقـدـ جـمـعـ فـيـ
ـمـجـلـدـيـنـ ، تـناـولـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ حـيـاةـ سـتـةـ مـنـ الـأـئـمـةـ ، وـتـناـولـ الـجـزـءـ الـثـانـيـ بـقـيـةـ
ـالـأـئـمـةـ (ـسـلـامـ اللـهـ عـلـيـهـمـ)ـ .

ودار الحق للطباعة والنشر والتوزيع إذ تضع هذا الجهد بين يدي القارئ الكريم، تأمل من جميع المفكرين وذوي الاختصاص، أن يكون هذا الكتاب بادرة للتوسيع في دراسات معمقة ومتخصصة عن حياة أولئك العظماء، ومن القارئ العزيز الاستفادة من هذه الثروة في الاتباع والاقتداء بأولئك الهداء.

نسأل الله دوام التوفيق.

دار الحق
للطباعة والنشر والتوزيع

دراسة حياة الائمة عليهم السلام شمولاً وعمقاً

بداية:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى، محمد وآلـه الطيبين
الطاهرين ...

وبعد...

فإنـ الحديث عنـ الائـمة، وـ عنـ حـيـاتـهـمـ، وـ موـاـقـفـهـمـ، وـ مـهـارـسـاتـهـمـ لـيـسـ حـدـيـثـاًـ
عـنـ أـشـخـاـصـ لـهـمـ مـيـزـاتـ وـ خـصـائـصـ مـحـدـودـةـ، ذـاتـ طـابـ فـرـديـ تـنـتـازـ بـهـاـ شـخـصـيـةـ
مـاـ عـلـىـ حـدـّـ ماـ عـرـفـنـاهـ وـ الفـنـاهـ.

وـاـنـاـ هـوـ حـدـيـثـ عـنـ الـاسـلـامـ بـشـتـىـ مـجـالـاتـهـ، وـ مـخـتـلـفـ اـبعـادـهـ، وـ اـرـوـعـ

خصائصه، وبكل ما فيه من شمولية، وأصالة وعمق.

انه حديث عن الحياة بخلوها ومرها، وبكل ما لها من اتساع وامتداد،
وغموض ووضوح وهو ايضاً حديث عن هذا الكون الربح، وعن كل ما فيه من
عجائب وغرائب وآيات بینات.

حديث عن الدنيا والآخرة بآفاقهما الربحة، وبجميع ما فيها ولها من
ميزات، وسمات.

اذن.. فليس بوسع اي باحث او مؤرخ ان يستوعب حياتهم عليهم السلام. ولا ان
يعكس لنا الصورة الدقيقة والطافية بكل النبضات الحية في شخصيتهم، وفي
مواقفهم وجمل سلوكهم، الا اذا استطاع ان يدرك بعمق كل حقائق الاسلام،
ويقف على واقع تأثيراته في كل حياتهم، وفي كنه شخصياتهم، ومن ثم انعكاساته
على سائر المواقف، وعلى كل المفردات، والحركات، والسلوك، والتعامل مع كل ما
ومن يحيط بهم.

ولا نظن احداً يستطيع ان يدعي انه قد بلغ هذا المستوى او وفق لمثل هذا
المقام الرفيع، الا ان كان واحد منهم عليهم السلام، او من يداريهم فكراً وعلمأً، وفضيلة
وخلوصاً، وصفاءً، كسلمان الفارسي وابي ذر واضرائبها واين وانى لنا بأمثال
هؤلاء، او من هم دونهم براتب.

ولكن ذلك لا يعني ان تقف هكذا عاجزين، ولا ان نرتد خائبين. بل لابد
من خوض غمار البحث، واقتحام هذا العباب الراخر بالخير والبركات، وال عبر
والعظات، من اجل ان يستفيد كل منا حسب ما تؤهله له قدراته، وتسمح له به
امكاناته، فان ذلك نور على نور وهو محض الخير الذي من شأنه ان يؤهل لخير

اوی و اوفر واکبر ولبرکات اعم واتم واکثر.

وليست هذه المحاولة من الاخ الفاضل والمذهب الكامل حجة الاسلام الشيخ رسول جعفريان، الا من اجل أنه اراد ان يقتسم آفاق النور لتلامس اشرافته قلبه، ويغمر لجين سناه عقله وروحه، فعاد بالخير الكثير، وبالعطاء الوفير، فشكر الله سعيه، ووفقه وهداه سبل الخير والرشاد، والفلام والسداد.

آفاق البحث

وإذ قد عرفنا: أن الحديث عن الأئمة عليهم السلام ليس تأريخاً لأشخاص، فيما نعرفه من مفردات التاريخ لهم.

وإنما هو تاريخ الرعاية الإلهية لهذا الإنسان، الذي أراد الله له أن تتجسد فيه كل أمال الانبياء وجهودهم، على امتداد التاريخ البشري، فانهم عليهم السلام هم التجسيد الحي، والنموذج الفذ للخلافة الإلهية على الأرض، بكل ما هذه الكلمة من معنى، وبجميع، ما تحمله من مدلائل. نعم لقد تجسد في شخصيتهم الإنسان الكامل الذي واجه الحياة، بالإرادة والوعي والحكمة، والحزم، وواجهته الحياة بكل ما تملك من سلبيات، وما تخزنها من مصاعب ومشكلات وما انطوت عليه من مهالك، وآفات. فظهرت إرادته، التي هي امتداد لارادة الله سبحانه، واحبط مكرها وعيه، لأنه ينظر بعين الله، وانتصرت عليها حكمته، وأناف على جبروتها حزمه، لأن ذلك منه كان بتعليم الله وتسديده، وتوفيقه وتأييده.

ومن هنا.. فإنه يصبح من الوضوح بمكان حاجتنا إلى فهم حياة الأئمة عليهم السلام
من خلال فهم كل الظروف، والاحوال التي ساهمت في فرض واقع معين كان لابد
لهـم من أن يعايشوه، وأن يتعاملوا معه، في كل مجال، وعلى كل صعيد.

سواء في ذلك ما ربما يعتبره البعض أنه يقع في الدائرة الخاصة في حياتهم الشخصية لهم لا أو في ما يفترض أنه الدائرة الأوسع من الحياة العامة في ظروف العمل السياسي والاجتماعي والتربوي العام، وما يرتبط بذلك أو ينتهي إليه، بسبيل، أو بأخر.

وكل ما تقدم إنما يدلل على حقيقة واحدة، ويؤكدها، ألا وهي الصعوبة البالغة وحجم المشاق التي لابد ان تواجه أي باحث يريد أن يفتح نافذة على الآفاق الرحبة في حياتهم صلوات الله وسلامه عليهم، ويؤرخ لها ولو في المستوى الأدنى، منها أراد أن يقتضي ويقتصر على الضروري من الشواهد والدلائل.

سؤال.. وسؤال آخر

ولكن ما تقدم يفرض علينا الاجابة على سؤال ملحٍ، وهو:
هل يكفي ما بناه من نصوص ومصادر لهذا المهم، وفيما يلي بهذا الغرض،
ويتحقق تلك الغاية؟!

وإذا كانت الاجابة الصحيحة والصريرة بالنفي، فإن السؤال الآخر الذي يواجهنا هو:

هل استطعنا أن نوظف كل ما لدينا من نصوص؟ وهل استفينا من جميع المصادر التي بحوزتنا بالشكل الكافي، وبالمستوى المطلوب؟!

وطبيعي أن تكون الاجابة الصحيحة والصريرة هي كالاجابة السابقة بالنفي أيضاً، فإن الكل يعلم: أننا لم نستطع أن نستثمر ما بناه من نصوص في مجال فهم حياتهم لهم لا، والانطلاق في آفاقها الرحبة واللامحدودة.

بل إننا لن نكون مسرفين في القول، إذا قررنا: أننا حتى الآن لم نقم بما هو ضروري في مجال التحضير للاجواء والمناخات، وتقريب الوسائل التي تؤهلا، ولو لأن نقدم معلومات عامة منسقة بصورة فنية صحيحة، أو فقل: لم نقم حتى بفهرسة اجمالية تقربنا إلى معرفة القيمة الحقيقية لما غلوكه من تراث نافع في هذا المجال، أو ذاك.

فضلاً عن أن نقوم بدراسة النصوص وتحقيقها، ثم ربطها بمناشئها وتأثيراتها في غایاتها بصورة علمية معمقة ومفيدة، ولو في دائرة محدودة. وإن كنا قد نجد لمحات ولعات متباشرة هنا وهناك، لم تدلّ حظها من البحث والتقصي، ولا استطاعت أن تربط نفسها بما عدّها، مما كانت لها تأثيرات - به أو فيه - بمستويات متفاوتة.

تاريغان.. غير متجانسين

ولعل مما يزيد الأمر صعوبة، وشكالاً: أننا إذا وضعنا تاريخ الأئمة عليهم السلام، إلى جانب هذا التاريخ الذي يدعى أنه يسجل وقائع واحادث الفترة الزمنية التي عايشها الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، -لو وضعناها- أمام باحث أو ناقد لا يملك أية خلفيات تعطيه تصوراً عن حقيقة تطورات الأحداث، وتأثير السياسات، فإنه سيجد: أنها تاريغان غير منسجمين، بل وحتى غير متجانسين، ولسوف يخيل إليه: أن الأئمة لا يعيشون الأحداث ولا يشعرون بما يحيط بهم بل هم عالمهم الخاص بهم، المنغلق والمنطوي على نفسه، وللآخرين عالم آخر، لا يشبه ذاك العالم لا من قريب، ولا من بعيد.

ولكن الباحث اللمعي، والمدقق الخبر، الذي اطلع على حقيقة التطورات،

وما رسمته السياسات في المجالات المختلفة، لسوف يجد عكس ذلك تماماً، ولسوف يكتشف: أن الأئمة عليهم السلام يلامسون الواقع عن قرب، ويسجلون الموقف الرسالي المسؤول، والواعي، تجاه كل ما يجري، ويدور حولهم.

ولعلهم عليهم السلام يمثلون في أحيان كثيرة أعمق العوامل تأثيراً في بجمل الواقع السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والتربوي، على مستوى الأمة باسرها، فضلاً عن تأثيرهم العميق، في الدائرة التي يبدو - للوهلة الأولى - أنهم يعيشون فيها، ويتعاملون معها.

التزوير.. والاصالة:

وفي مجال فهم عوامل هذا الاختلاف الظاهر بين ذينك التاریخین، لابد من التأكيد على الحقيقة التالية:

وهي: أن ذلك الفريق الذي اهتم بتسجيل بعض اللمحات من حياة الأئمة وموافقهم عليهم السلام. يختلف كثيراً في عقليته، وفي مفاهيمه، وفي طموحاته، ثم في حواجزه ودوافعه، وكذلك في اهدافه وغاياته - يختلف كثيراً - عن ذلك الفريق الذي تصدى للتاريخ لتلك الفترة الزمنية، التي عايشها الأئمة عليهم السلام.

والأهم من ذلك هو ذلك الاختلاف الظاهر، والأساسي بين هذا الفريق وذاك في بجمل المعايير والمنطلقات التي رضيها كل لنفسه، وانطلق منها لتمييز الحق من الباطل، والصحيح من السقيم، وعلى أساسها كان الرد أو القبول، والخروج، والدخول، في مختلف الواقع والموضع.

حيث وجدنا: أن المنطلقات، والمعايير، التي انطلق منها، وتحرك على أساسها أولئك الذين أرخوا لتلك الحقبة من الزمن، وكتبوا ما يسمى بـ«التاريخ

الإسلامي» قد كانت في مجملها مزيفة ومضللة، أريد منها تكريس الانحراف، وتأكيده، وتبريه، والحفاظ عليه، وتسويده.

ولا نقول ذلك تعصباً، ولا تجنياً على التاريخ والمؤرخين، ما دام أن الكل يعترف لنا بحقيقة:

أن التاريخ المكتوب ليس هو تاريخ الشعوب والأمم، ولا يملك القدرة على أن يعكس لنا آمالها، ولا آلامها، ولا معاناتها أو حركتها في واقع الحياة. وإنما هو تاريخ الحكام والسلطانين، ومن يدور في فلكهم.

وحتى تاريخ الحكام هذا؛ فإنه لم يستطع أن يعكس واقعهم بامانة ودقة ونزاهة، مادام أنه غير قادر إلا على تسجيل ما يرضي الحكام، ويصب في مصلحتهم، ويقوي من سلطانهم، مهما كان ذلك محرفاً غير نقى، أو مزوراً وغير واقعي.

فلم يكن ثمة مؤرخ يملك حرية الرأي، ولا هو مطلق التصرف فيما يريد أن يقول أو يكتب. كيف وهو يرى بأم عينه كيف أن رواية واحدة يرويها أحدهم في فضل علي عليه السلام، تثير عليه غضب الحاكم، فيصدر أمره بجلده مئات السياط.

ويروي الطبرى حديث الطبرى، فيرجم العامة داره، حتى كان على بابه تل من الحجارة.

ويروي أحدهم رواية حول مناظرة بين آدم وموسى عليهما السلام، فيشكل الأمر على أحد الحاضرين ولا يعرف أين اجتمع آدم وموسى، وبين موت ذاك، وولادة هذا المئات من السنين، فيدعى الخليفة له بالنطع والسيف، إلى آخر ما هنالك مما يحتاج استقصاؤه إلى وقت طويل وجهد وافر.

أضف إلى جميع ما تقدم: أن ما كتب وسجل، فانما كتب بعقلية خرافية،
قاصرة وغير ناضجة في احيانا كثيرة.

ولا أقل من أن كثيراً منهم ينطلق من تendencies مقيمة، أو من هو مذهبى
رخيص لا يلتزم بالمنطق السليم، ولا يهتدي بهدى العقل، ولا يؤمن بالحوار
والفكر كأسلوب أفضل للتوضيح وللتوضيح.

هذا.. إلى جانب اهواء وطموحات لا مشروعة ولا مسؤولة، تتسلل
بالتحوير والتزوير. لتوصل إلى المناصب والمارب.

ومن خلال ذلك كله، وسواء، فانه يصبح من الطبيعي: أن لا يجد الباحث
في كتب التاريخ الملامح الحقيقية للشخصيات التي تقف في موقع التحدى للحكام،
ولمخططاتهم، وتتصدى لاصحاب الأهواء المذهبية، والتعصبات العرقية، وغيرها،
ولانحرافاتهم.

هذه الشخصيات التي تركت آثاراً عميقاً وخطيرة في واقع الحياة السياسية
والاجتماعية، والعلمية والتربوية وغير ذلك.

ومن هنا.. فاننا نعرف: أنه لابد من البحث عن الأيدي الامينة والمحلصة
التي تستطيع أن ترسم الملامح الحقيقية لهؤلاء الافذاذ من الرجال. ثم محاولة التقاط
ما تناثر هنا وهناك من لمعات، أو ندّ من لفقات وملحات، لم يجد الحكم فيها
خطراً، ولربما أراد المؤرخون ان يقضوا بها وطراً.

بين الأفراط.. والتفرط

وبعد.. فاننا نشعر: أن من الضروري الاشارة هنا إلى ذلك النهج من

البحث، الذي يفرط في الاعتداد على الغيب في فهمه لموافق الائمة عليهم السلام، وتفسيرها. ويفصلهم عن واقع الحياة وحركتها، ويصورهم على أنهم يحركون الحياة، ويتعاملون معها بصورة خفية، ومن وراء الحجب، ولا تكاد تذكر له أمراً عن امام حتى يصدرك بالقول بأن ذاك امام له حكمه الخاص به حتى كأن الامام لا يجوز الائتمام به، وليس قوله وفعله وتقريره حجة علينا وعلى الناس جائعاً.

وذلك إن دلّ على شيء، فاغا يدل على أن صاحب هذا النهج من البحث والفكر يعني من مشكلة فهمه الخاطئ للائمة عليهم السلام، ولدورهم، الذي رصدهم الله للقيام به، الا وهو نفس دور الرسول الاكرم صلوات الله عليه وآله وسليمه، الذي ارسله الله سبحانه مبلغاً ومعلماً، ومربياً، وقائداً، وقاضياً، وحاكمًا إلى آخر ما هنالك من مهارات صرحت بها القرآن الكريم، ولهج بها النبي العظيم صلوات الله عليه وآله وسليمه.

كما أنه لم يأخذ بنظر الاعتبار تأكيدات القرآن والرسل على بشريتهم: «قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولاً»^(١).

«ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً، وللبسنا عليهم ما يلبسون»^(٢).

إلى آخر ما هنالك من آيات لها هذا الطابع، أو تصب في هذا الاتجاه.

وفي مقابل ذلك، فانتنا لا نوافق الآخرين أبداً، بل نخطئهم بقوه في نظرتهم المادية إلى الائمة عليهم السلام، بعيداً عن عنصر الغيب، والكرامات الالهية فيفسرون موافقهم عليهم السلام وكل سلوكهم، وأنحاء تعاملهم، ويفهمونها على أساس مادي،

(١) الاسراء ٩٣ و ٩٤.

(٢) الانعام ٩.

خاضع لحسابات رياضية، له آثار ونتائج طبيعية وذاتية بالدرجة الأولى.

وهم يتجاهلون بذلك النصوص التي لها طابع غيبي، على أساس الالاطاف الخفية، والكرامة الإلهية لعباد الله الاصفقاء، وحججه على عباده، وامنائه في بلاده.

فلا يكاد يقترب من تلك النصوص والآثار التي تسجل - على سبيل المثال - حقيقة: أنه يوم قتل الحسين عليهما السلام لم يرفع حجر في بيت المقدس الا ووجد تحته دم عبيط.

ثم ظهور الحمرة في يوم عاشوراء، وقول زينب عليهما السلام ابن زياد افعجبتم أن مطرت السماء دماً ولا يتصدى لبحث ذلك وتأييده، أو رده وتفنيده وليفترض لنا أن زينب عليهما السلام إنما تفترض الحديث ولا تنقله وتسجله على أنه حقيقة واقعة.

وهم بعد ما يكونون عن الحديث عن كلام الرأس المقدس فوق الرمح بالآية الكريمة: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَّابًا».

بالاضافة الى حديث ارتفاع جدران المسجد، حينها همت الزهراء عليهما السلام بالدعاء على الذين يضطهدون أمير المؤمنين عليهما السلام، ويغتصبون حقه، بعد ضربهم لها واسقاطهم جنينها حين وفات أبيها الرسول عليهما السلام.

إلى غير ذلك من نصوص وأثار، تشير إلى ظهور الكرامات، وخوارق العادات لهم عليهما السلام، وشمول الله لهم بالطافه الخفية، تماماً كتلك المعجزات والكرامات التي سجلها القرآن للأنبياء، كما في قضية عصا موسى، ونقل عرش ملكة سبا، وغير ذلك.

نعم.. إن هؤلاء الباحثين والكتاب، لا يكادون يقتربون من النصوص التي

لها هذا الطابع، وتصب في هذا الاتجاه، حتى كأنهم لا يريدون الاعتراف بها، أو أنهم ينجلون من وجودها. تماماً كخجل البعض منهم وإياباته من طرح موضوع الإمام المهدى الغائب صلوات الله وسلامه عليه وعلى آباءه الطيبين الظاهرين في أي من كتبه وابحاثه، متطلعاً اعذاراً واهية لا تسمن ولا تغنى من جوع.

ولا ندرى إن كان بعد ثبوت صحة هذه النصوص، وسلامتها، يمكن لهؤلاء أن لا يعتبروها جزءاً من تاريخ الأئمة، ومن حياتهم.

وأخيراً .. فاتنا نؤكد لهؤلاء وغيرهم على حقيقة: أن الأئمة عليهم السلام إنما يمثلون الرعاية الالهية لانسانية الانسان، من خلال الاعتراف بواقعية وجوده المادى، ثم الانطلاق بهذا الواقع بالذات، والسمو به إلى المطلق إلى رحاب الله سبحانه، من خلال الامداد الغيبى حيث يكون ذلك ضرورياً، واكرامه بالكرامات الظاهرة واكتنافه بالألطاف الالهية الخفية اللامحدودة، حيث يصبح محلاً وأهلاً لها.

أما أولئك الذين يحجمون دور الأئمة، ويقصرونها على الاخلاق، مثلاً أو على الدور الاجتماعي، أو خصوص التحرك السياسي مثلاً، ويصيرون كل تصوراتهم في هذا القالب المحدود أو ذاك، فاما يقدمون للآخرين صورة تفقد معظم معالمها الاساسية، ولا يمكن أن يعكس بحث كهذا واقع حياتهم، وحقيقة دورهم عليهم السلام.

مدخل دراسة، تعوزه الفهرسة

ولقد كان بودي أن اسهم بدوري ببحوث تتناول بعض جوانب حياتهم عليهم السلام. وهذه أمنية عزيزة علي، وأثيرة لدى. وقد كنت قبل سنوات قد سجلت بعض النقاط، المؤهلة للبحث بصورة اكثراً الحاحاً، على أن تمثل بمجموعها

مدخلاً معقولاً لدراسة حياتهم عليهما السلام، وإن كانت رعايا تكون لا تستوعب كل ما يحب، وما ينبغي.

وقد بقيت هذه النقاط متناثرة تائهة، يعوزها التنسيق، والتبويب والفهرسة وقد سمح بمخاطر الآن ان أقدمها إلى القراء كما كانت عليه، علّ أن ينفع الله بها، من يسعفه التوفيق للبحث والتقصي في حياتهم عليهما السلام.

والنقاط هي التالية:

١- إن من الطبيعي اعطاء لمحه عن تواريختهم عليهما السلام كيوم الولادة، ويوم الوفاة، والسنة والشهر، ومحل السكنى والأولاد والزوجات، والاصحاب وسائر النقاط التي تمثل الجانب الفردي والشخص لهم عليهما السلام.

وذلك بصورة علمية صحيحة، فيها من التحقيق، ما يزيل كل شبهة وريب أو ترديد.

٢- لماذا تعدد الأئمة عليهما السلام، سؤال لابد من الاجابة عليه.. وهل يمكن أن يكون لمن رأه من اختلاف وتميّز المواقف لكل إمام بالنسبة للامام الآخر، فهذا تراه يهتم بالتربيه العقائدية، وذاك يهتم بنشر المعارف الفقهية، وثالث يهتم بالناحية السياسية، إلى غير ذلك مما تفرضه عقليات، وحاجات الأئمة في الأزمنة المختلفة - هل يمكن أن يكون لذلك صلة بتنوع الأئمة عليهما السلام، أم أن ذلك لمحض الصدفة واقتضاء الحالات والظروف الطارئة؟ مع العلم بأن بعض الأئمة قد تصدوا لأكثر من مجال أيضاً.

٣- بيان الطرق التي اتبعها الأئمة لمعالجة الانحرافات الفكرية، وابعاد امثلة على ذلك، سواء في النواحي العقائدية، أو الفقهية، أو في التفسير، أو في السلوك

الانساني، والأخلاقيات، أو في المواقف من القضايا الحساسة والمصيرية، وغير ذلك.

٤- حاولاتهم طرح الاسلام العملي، الذي يرتبط بالغيب، ويندفع نحوه، مع مقارنة بين ذلك وبين ظاهرة التصوف الذي اهتم بالرياضة الروحية، وأهمل الجانب الثقافي والعلمي. وبيان الفوارق بينها وكذلك الحال بالنسبة لذلك الاسلام النظري الذي اهتم بالناحية الثقافية والعلمية، وحضر المفاهيم الجافة والنظريات الفارغة من النفحات الروحية، ومن الارتباط بالغيب.

٥- الملاحظة الدقيقة ل موقفهم ^{عليه السلام} من أهل الحديث، ومن المعتزلة، وسائر الحركات الدينية والفكرية والفرق المختلفة التي كانت تحاول فرض نفسها، وبلورة افكارها هذا بالإضافة إلى مواقفهم ^{عليه السلام} من الفقهاء المنحرفين، وعلماء السوء، ووعاظ السلاطين.

٦- ولابد أيضاً من إلماحة سريعة إلى سرّ موقفهم ^{عليه السلام} السكوت في قضية خلق القرآن، وسبب أمرهم شيعتهم بعدم التدخل في الجدل القائم حولها. مع الماحة سريعة بأهداف طرح مسألة كهذه، ثم النتائج التي تحققت في هذا الاتجاه.

٧- ثم هناك موقفهم ^{عليه السلام} من الثقافات الغربية الوافدة عن طريق أهل الكتاب، وعن طريق الترجمات لكتب سائر الأمم، أو اختلاط المسلمين بعد الفتوحات، وغيرها بالأمم الأخرى، واطلاعهم على ما عندها من أفكار ومذاهب.

ولا يجب أن ننسى مواقفهم ^{عليه السلام} من التحريريات، التي كان يتعرض لها

الاسلام الحالص من قبل اليهود والنصارى الذين اظهروا الاسلام. ومن قبل القصاصين، وأهل الحديث من طالبي الشهرة والمال. وكذلك تحريف الحكام والسلطانين للاسلام، ليوافق مذاهبهم ومشاربهم السياسية، ويخدم طموحاتهم، وتوجهاتهم السياسية، ومصالحهم الشخصية، أو القبلية والإقليمية.

٨ - لابد من بيان موقفهم من تفسير القرآن بصورة غير واقعية، ومن اللالعب بالسنة النبوية الشريفة.

ثم التعرف على الموازين والمعايير والضوابط التي اتبعواها أو أرشدوا إليها والتي يمكن الناس من خلالها من معرفة ذلك الجانب العريض من النصوص، واستبعاده كما ويتمكن شيعتهم بواسطتها من فهم القرآن فهم سليماً غير متأثر بما هو غريب عن الدين وتشريعاته، وعن الاسلام ومفاهيمه.

ودراسة قضية الكندي هنا تصبح ضرورية لفهم بعض أساليب الأئمة في مواجهة حالات الإنحراف الفكري، إذا كانت منطلقة من شبهة، ولم يكن لها خلفيات، ذات طابع غير اخلاقي، ولا إنساني.

٩ - كما لابد من دراسة السرّ في أنهم عليهم السلام لم يتركوا للناس آثاراً مكتوبة، ما دام أن ذلك يحسم النزاع في أمور كثيرة. مع أن تدوين العلوم كان في زمنهم على قدمٍ وساق، ورغم أن أمير المؤمنين عليه السلام قد كتب الجفر والجامعة وغير ذلك، لكن ما كتبه عليه السلام قد بقي عندهم، ولم يتتجاوزهم إلى غيرهم.

وذلك يحتم دراسة صحيفه الرضا عليه السلام، وغير ذلك مما ينسب إليهم عليه السلام لعرفة إن كانت من املاءاته، أم أنها من مكتوباته، وقد بقيت لأنها كان ثمة فرق بين هذا العلم وذاك، أو بين عصر وآخر، لابد من تحقيق ذلك وإيضاحه.

أضف إلى ذلك أننا نجدهم عليهم السلام يشجعون شيعتهم باستمرار على تدوين العلوم، واتقانها، لابد من تفصيل وقائع ذلك بصورة واضحة.

١٠ - لابد من البحث حول كرامات الأئمة عليهم السلام، والاجابة على سؤال: هل كان الأئمة بحاجة إلى ظهور تلك الكرامات على أيديهم؟ وما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ ثم ما الفرق بين كراماتهم وبين ما ينسب إلى غيرهم من المتصوفة وسواهم. وهل كل ذلك صحيح؟ أم أن كرامات الصوفية وغيرهم موضع شك وريب؟ لابد من ذكر مبررات ذلك إن كان. وإذا كان ثمة مبالغات غير معقولة، فلابد من الاشارة إلى ذلك مع التركيز على فهم ظروفه ومبرراته.

كما أنه لابد من دراسة ما ينسب إلى المرتاضين حتى من غير المسلمين من خوارق.. وكذا ما ربما يقال من حصوله لبعض غير المسلمين من لهم اعتقادات غير صحيحة.

وهل يدخل في هذا المورد (الكرامات) أخباراتهم عليهم السلام بالأمور الغيبة وعن المستقبل، وهل كانت ذلك من هذا الباب، أم أن بعضه من العلم الخاص، وبعضه ليس من هذا ولا ذاك، وإنما هو معرفة للنتائج من خلال دراسة الظروف الموضوعية بدقة ووعي؟!

كما أنه لابد من معرفة السبب في أن علياً عليه السلام قد كان يتم باظهار هذا الأمر، اعني الاخبار بالغيبات، وقد بلغت اخباراته حدّاً جعل بعض الناس يتهمونه بالتكهن وحتى بالكذب - والعياذ بالله -.

مع ذكر غاذج مما تحقق من اخباراته الغيبة عليه الصلاة والسلام.

١١ - حدود علوم الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم وكيفية علمهم مع

تسجيل الملاحظة التي تقول: إنهم عليهم السلام كانوا باستمرار يؤكدون على أن لديهم من العلوم والمعارف الخاصة ما ليس عند غيرهم، وأنهم إنما تلقوا ذلك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو مصدر الوحي، ومن ذلك قوله: إن عندهم الجفر والجامعة «كتاب على عليهم السلام» وغير ذلك. وما هو السر في ذلك؟

١٢ - محاولة اعطاء وصف دقيق - مع الامثلة الكثيرة - لشخصياتهم في ابعادها المختلفة، وابراز فضائلهم ومزاياهم النفسية، بالإضافة إلى التعرف على سلوكهم الانساني والأخلاقي.

ثم إعطاء تصور عن حياتهم الخاصة، ووصف دقيق لتعاملهم مع ابنائهم وسائل أفراد عوائلهم، وحركاتهم داخل بيوتهم، وتصرفاتهم مطلقاً، حتى مع ضيوفهم، أو حينما يكون ثمة ما يوجب فرحاً وسروراً أو حزناً وجزعاً.

١٣ - ملاحظة مصادر أموالهم وحجمها، من أين كانوا يحصلون عليها وكيف؟ وفي أي شيء كانوا ينفقونها؟ وما هو مدى تأثير المال في حياتهم وفي روح حياتهم ونفسياتهم؟

ثم الاشارة إلى حقيقة موقفهم من عطایا الحكام، ومتى تقبلوها، ولماذا؟ وهل كان رفضهم لها يعني - بنظر الحاكم الظالم - تحدياً، واعلاناً للحرب ضده. ولابد من معرفة السر في أن أمير المؤمنين عليه السلام قد كان ينفق على نفسه من أمواله في المدينة، وهل كان يأخذ من بيت المال عطاءً، وفي أي شيء كان ينفقه، وكيف جاز له أخذ العطاء، إذا كان يملك من البساطين ما تقدر صدقته، أو غلته بأربعين ألف دينار في السنة؟! وهل كانوا عليهم السلام يتناولون من الخمس شيئاً، وكذا من غيره من الحقوق الشرعية، ولماذا؟

هذا بالإضافة إلى توضيح كيف أنهم ^{عليهم السلام} كانوا يصرون على العمل في مزارعهم وبساتينهم بأنفسهم.

ثم البحث عن سر مطالباتهم ببعض ما انتزع منهم من أراضٍ، وماذا كان مصير الخمس في عهد علي ^{عليه السلام}.

١٤- اساليبهم التربوية لشيعتهم، وأسس وأساليب تعاملهم معهم، وكيفيات ربطهم الناس بقضية أهل البيت ^{عليهم السلام}، عقائدياً و عاطفياً و ثقافياً وغير ذلك، وتأثيرات هذه المركزية الدينية على الحالة الفكرية وعلى الانسجام في الفهم للأمور وفي المواقف والتعلقات، والأعمال -هذا- إلى جانب موقفهم من كل الثقافات الأخرى وأن كل ما لا يخرج من هذا البيت فهو زخرف، ومدى تأثير ذلك في صيانة الفكر والعقائد، والمفاهيم لدى الناس الذين كانوا مرتبطين بهم.

١٥- هذا بالإضافة إلى تسلط الأضواء على الحالة التنظيمية الدقيقة التي ركزوها فيما بين شيعتهم، والماحة إلى دور وكلائهم في مختلف الأقطار، وحدود صلاحيات ووظائف أولئك الوكلاء، ثم معالجات الأئمة ^{عليهم السلام} للخلافات التي رجعاً كانت تنشأ فيما بين هؤلاء الوكلاء، مع التركيز الدقيق على الانضباطية في الحالة التنظيمية، حتى إنهم ليرجعون الأموال لأحد الأشخاص، ليدفعه إلى الوكيل الذي كان في بلد ذلك الشخص.

١٦- الاساليب الحربية، ومبادئ الحرب عندهم، هذا بالإضافة إلى المبررات التي كانت تكفي - في رأيهم الذي هو رأي الاسلام - لخوض الحروب و مكافحة ويلاتها. هذا بالإضافة إلى بيان الحدود التي تفرض ايقاف تلك الحرب، ومبررات التخلّي عنها.

ووصف دقيق لتعاملهم الانساني مع أعدائهم، ورفض منطق التشفي،

واسباب ذلك وتأثيراته.

١٧ - ابراز اهتمام الأئمة عليهم السلام بتربيه متخصصين في العلوم والفنون، فهذا متكلم، وذاك فقيه، وآخر كيميائي، وهكذا... ثم اهتمامهم في أن لا يتجاوز كل منهم حدود اختصاصه وارجاع الآخرين حين تمس الحاجة إلى أصحاب الاختصاصات هذه كل حسب ما يتناسب مع ما يطلبه ويريده.

هذا.. إلى جانب ابراز المستوى الثقافي لاصحابهم عليهم السلام حتى لقد أصبحوا في عهد الامام الصادق، والكافر عليهم السلام هم الطليعة المتفقة والواعية، وارباب الفكر والعلم في الأمة الإسلامية، وهيمنوا على الثقافة العامة بصورة واضحة. ودراسة تأثيرات ذلك على صقل الفكر وانتقاء المقولات لدى أرباب الفرق والمذاهب الأخرى، هذا.. بالإضافة إلى تأثيرات ذلك على السياسة والسياسيين ومواقفهم من الأئمة عليهم السلام، ومن الشيعة بصورة عامة.

١٨ - بيان اهتمام الأئمة عليهم السلام بتعليق الاحكام الشرعية وغيرها، حتى لقد ألفت الكتب فيما روي عنهم عليهم السلام من علل أو من حكم ودراسة الطابع والخصائص التي كانت تميز به تلك التعلييلات والمواضيعات والتواحي التي ابرزتها أكثر من غيرها.

١٩ - بيان أنهم عليهم السلام كانوا لا يستعملون التقية في بعض القضايا الحساسة، رغم خطورة ذلك على حياتهم، كقضية: أنهم الأحق بالإمامية من كل أحد، وقضية النص على علي عليه السلام فما هو سر ذلك؟ وما هي الاساليب التي استفادوا منها لاقناع الناس بهذا الأمر الخطير. ثم إظهار أنهم كانوا يركزون في اثبات ذلك على أمرین: أحدهما: اظهار وابيات: أن لديهم علوماً خاصة، ورثوها عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ولا توجد لدى أي كان من البشر. الثاني: قضية النص.

٢٠ - كيف كان يتم الإتصال فيها بين الأئمة عليهم السلام وبين القاعدة الشعبية، وبسائر أفراد شيعتهم، الذين كانوا في ضيق شديد، ومحنة عظيمة من قبل حكام الجور، وكثير منهم في السجون، أو مشردون في البلاد.

مع إعطاء لحة عن الاساليب والوسائل التي كان كبار شيعتهم يتسلون بها للاتصال بهم ولاسيما في الظروف الصعبة والحرجة.

٢١ - لابد من إعطاء لحة عن نشاطات الأئمة حينما كانوا في سجون الطواغيت، سواء في ذلك نشاطاتهم فيها بين الناس الذين يسيرون في الخط الآخر، أي في ركاب الحكام أو ينتمون إلى فرق أخرى ليست على علاقات طيبة مع خط أهل البيت عليهم السلام، حتى لنجد يحيى بن خالد البرمكي يشكوا إلى الرشيد بأن الإمام الكاظم وهو تحت هيمنتهم، ورقابتهم قد أفسد عليهم قلوب شيعتهم.

٢٢ - وبعد.. فان الملاحظ هو: أن الإمام السجاد عليه السلام قد كان يهتم بالموالي وشرائهم وعتقهم بصورة متميزة عن باقي الأئمة باستثناء ما عرف عن امير المؤمنين عليه السلام وكان يعلمهم ويتلقفهم، وكان يكتب ذنوبهم في كتاب، ثم يذكرهم بها ويعتقهم وقد اعتقد الوفاً كثيرة منهم. لابد من دراسة دقائق تعامله عليه السلام معهم وظروف عتقه لهم وآثار هذا التعامل ودواجهه. مع الالتفات إلى أن هذا منه عليه السلام يحيى في وقت كان فيه الحكام يمارسون سياسة التمييز العنصري، وتفضيل العرب على كل من سواهم.

ثم.. الالمح إلى دور الموالي في نشر الاسلام ولاسيما التشيع لأهل البيت، ثم ما كان لهم من دور في نشر الاسلام في الامم الأخرى بصورة عامة.

كما أنه لابد من دراسة ظاهرة تزوج نفس الأئمة عليهم السلام بغير العربيات بكثرة، حتى ان عدداً منهم قد ولد من هؤلاء النساء بالذات.

كما أن معرفة الأئمة بلغات الأمم آثاراً لها طابعها الخاص، لابد من الاطلاع عليه والالام به وبنائشه.

٢٣ - ثم هناك موضوع التهديد منهم عليه السلام لغيبة الامام المهدى صلوات الله وسلامه عليه، وكيف بدأوا يحتجبون عن الناس منذ عهد الامام الهاشمى عليه السلام، ليعودوا شيعتهم على هذه الظاهرة. هذا بالإضافة إلى أن الامام الجمادى والهاشمى قد تصديا لمقام الامامة في سن مبكر جداً، أي في الخامسة أو فوقها بسنوات معدودة. مع ملاحظة مدى تأثير ذلك على موقف الشيعة وعلى فكرهم، ثم على موقعهم بين أهل الملل الأخرى.

مع الاشارة إلى أن الامام المهدى قد غاب وهو صغير السن، وذلك بعد وفاة والده عليه السلام.

٢٤ - ولابد من الحديث عن مساقم الأئمة عليهم السلام في النهضة العلمية، وعن تصريحاتهم أو تلميذاتهم إلى حقائق علمية، لم يكن اكتشافها، أو فقل إدراكتها إلا بعد قرون من الزمن. وعن بعض القواعد والمباني التي ساعدت على تحقق هذه النهضة العلمية، مع ذكر أمثلة صريحة ويقينية في هذا المجال، مع ملاحظة تنوع العلوم، ومن اشتهر من أصحابه بالتصدي إليها كجابر بن حيان وغيره.

٢٥ - ومن الامور الجديرة بالبحث «الدعاء» عند الأئمة، ولا سيما بالنسبة لأمير المؤمنين، والسجاد، والحسين عليهم السلام، مع تقييم وبحث للصحيفة السجادية، ومضمونها المختلفة، وموضوعاتها المتنوعة، السياسية، والعقائدية، والتربوية، والأخلاقية وغير ذلك. مع الاشارة إلى ما يلاحظ من المد والجزر في مستوى اعتقادهم صلوات الله وسلامه على طريقة الدعاء في ابلاغ وتحقيق مقاصدهم الاعلامية والتعليمية والتربوية.

كما لابد من الماححة ولو سريعة بما كان يعاني منه الناس من جهل مطبق، وتجهيل متعمد لهم بالإضافة إلى ظاهرة التحرير التي كانت تستهدف الاسلام وال المسلمين في تلك الفترة، حتى إن بني هاشم، وهم أقرب الناس إلى مصدر الوحي والتزيل كانوا إلى أن مضت سبع سنين من امامه الباقر عليهما السلام لا يعرفون كيف يصلون، ولا كيف يحجون.

كما أن من المفيد جداً تقديم دراسة لرسالة الحقوق للامام السجاد، ولعهد أمير المؤمنين عليهما السلام للاشتر، وتوحيد المفضل، والرسالة الطبية الذهبية.

٢٦ - وإذا كنا نجد: أنه لم يكن يعترف بامامة السجاد سوى ثلاثة اشخاص، أو خمسة، حسب اختلاف النقل، فلابد من معرفة الخطوات التي اتخذها الامام السجاد عليهما السلام لتهيئة الأجواء لمدرسة الباقر والصادق عليهما السلام.

مع أن الناس بعد قتل الحسين، وبسبب السياسة الاموية البغيضة قد انصرفوا عن اهل البيت، ولم يبق بينهم بنظرهم شخصية كبيرة تعنو لها الحياة بالتسليم والخضوع وكيف استطاع السجاد عليهما السلام أن يصبح الرجل العظيم الذي يجله حتى أعداؤه ومخالفوه اكثر من أي إمام آخر، فهل كان ذلك لأنهم رأوا فيه انصرافاً عن طلب الحكم والسلطة؟ أم لغير ذلك من أمور.

وما هو مدى صحة ما يقال من أنه عليهما السلام قد غاب عن الناس عشر سنين ليعيش في الادية، وما هو تفسير ذلك على تقدير صحته.

٢٧ - ما هي دوافع الحركات الشيعية وغيرها كالازيدية وكحركات الغلاة، وكذلك سائر الحركات التي قامت ضد الحكم والحاكمين، مثل حركات الخوارج، وما هو موقف الائمة عليهما السلام من هذه الحركات، وكيف كانوا يوفقون بين آرائهم فيها، وبين حفظ موقعهم وهم يواجهون ظاهرة اندفاع الناس نحوها.

ولماذا نهى علي عليه السلام عن قتال المخوارج بعده. وما هو موقف الشيعة والأئمة منهم.

٢٨ - ولابد أيضاً من دراسة حقيقة موقف الأئمة من الحكام وموقف الحكام من الأئمة، وكيف امكّن لهم الحفاظ على التشيع، مع أنه كان يواجهه الحكام على مدى التاريخ، ومع أن التعاليم التي كان يؤمن بها الشيعة هي على النقيض تماماً مما يسعى الحكام له، ويعملون من أجله.

وقد رأينا: أن حكومة الجبارين ما حاربت مذهبها إلا وخنقته في مهده، وقطعت أوصاله، إلا أن يسير في ركابها ويدور في فلكها ويجد نفسه ويحرف تعاليمه لتصبح في خدمتها، وقد كان المعتزلة فرقة قوية في منطقها وكانت تملك هي مقاليد السلطة على مستوى الخلافة الإسلامية كلها، ولكنها حين رأت السلطة: أنها في غنى عنها وناصرت خصومها فانها أصبحت في خبر كان، وأصبح أصحاب نحلة أهل الحديث، وهي من السخافة بمكان هم المسيطرة، وهم الحاكمون، وبقيت نحلتهم وداموا، وقعدت وقامت، وإن كان الاشعري قد حاول طلاء وجهها ببعض الأصباغ التي لم تستطع التخفيف من بشاعة ملامحها، حين يتأمل بها المتأملون، ويلتفت إلى ملامحها الشوهاء الواقعون. ولابد أيضاً من التوقف عند الاساليب التي كان ينتهجها الحكام لابعاد الناس عن الأئمة، ومنها اسلوب التخويف واللاحقة كما أن من الضروري الالفات إلى أن الشدة وغيرها من الاساليب التي كان الحكام يحاولون من خلالها ابعاد الناس عن أهل البيت عليهما السلام، قد كانت تنتج عكس ما يريدون وخلاف ما كانوا إليه يطمحون، حيث يزداد الناس في كثير من الأحيان تعلقاً باهل البيت، ثم محاولة تفسير ذلك بالشكل المعقول والمقبول.

مع تقديم اطروحة كاملة عن نظرتهم ^{عليهم السلام} إلى الحكم والحاكمين، وعن الموقف الشرعي منهم، وأساليب التعامل معهم.

٢٩ - ومن اللازم أيضاً تفسير ظاهرة عدم ثورة الأئمة بعد الحسين ^{عليه السلام} على الحكام، مع وجود ثورات كثيرة قام بها الزيدية وغيرهم.

كما أن من الضروري معرفة حقيقة موقف الأئمة من ثورة زيد والختار، وكذلك سائر الثورات التي كانت ترفع شعار الحق والعدل، كثورة الحسين الهرش وثورة الحرة بالمدينة بالإضافة إلى ثورة الحسين بن علي في المدينة، وسائر ثورات العلوين.

ولماذا كانوا ^{عليهم السلام} يرغبون باستمرار هذه الثورات، ويقولون لشيعتهم: «ما زالت الزيدية لكم وقاء أبداً»، ويقولون أيضاً ما مضمونه: «ما زلت أنا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد». أو نحو ذلك.

وكيف يمكن تفسير هذا الكلام، وعلى أي معنى يحمل. مع أننا لا نجد في علاقات نفس هذا الإمام بالتأثيرين، ما يشجع، أو ما يستحق أن يقال عنه: إنه علاقات طبيعية على أقل تقدير، وذلك بسبب وجود كثير من الفجوات والمشاكل فيما بينه وبينهم.

٣٠ - يضاف إلى ما تقدم: دراسة ^{عليهم السلام} إدخال بعض الشخصيات الشيعية - ولو مع التقية - إلى المراكز الحساسة في الدولة التي يحكمها الظالمون، كما هو الحال في ابن يقطين في دولة الرشيد العباسي. وقد يقى بعض الشيعة يحاولون النفوذ إلى بعض المراكز في الحكومات، حتى بعد عصر الأئمة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولكنهم في نفس الوقت يمنعون صفوان الجمال من كراء جماله هارون الرشيد حتى لأداء فريضة الحج. فكيف نوفق بين هذين الموقفين.

ومن المفيد جداً أيضاً: التعرف على الاساليب العملية في مجال الدعوة كالدعاء، والشعر، والكرامات، والاخبار باللغويات.

بل نجد عطائهم للشعراء مثيرة للعجب، لكثرتها، حتى ليرد سؤال: أليس القراء كانوا أولى بهذا المال من هذا الشاعر؟

كما لابد من دراسة استشهادات علي والحسين عليهما السلام كذلك لحديث الغدير في رحبة الكوفة وفي مني وغير ذلك من الموضع.

وهناك أيضاً موضوع تخصيص الامام الباقر عليه السلام ثمانائة درهم لنوادب يندينه بعد موته في مني في موسم الحج لمدة عشر سنين.

هذا بالإضافة إلى حنهم الشديد والاكيده على اقامة مجالس العزاء والبكاء على الحسين عليه السلام.

إلى غير ذلك من أساليب تعليمية وإعلامية اختاروها في مجال دعوتهم إلى الله سبحانه، وكلها مشروعة، ومؤثرة.

٣٢ - وإذا كان الاهتمام بالإبعاد عن مذهب أهل البيت، وبالجعل والاختلاق للحديث - قد تجل في القرن الأول أكثر منه في الذي يليه فانتا نلاحظ قلة المأثورات في الفقه في القرن الأول، ولم يكن ثمة تحديد واضح لكثير من المسائل والاحكام في تلك الفترة، وقد يكون ذلك لأجل تفويت الفرصة على الوضاعين وأعداء الحق. وقد يكون لغير ذلك أيضاً. ثم بدأ التركيز على المسائل الفقهية وتحديدها، وتحديد الحق في غيرها من المسائل العقائدية منها وغيرها - قد

بدأ بعد ذلك القرن، أي من زمن الباقر عليه السلام.

أو قفل بعد مضي سبع سنين من امامته كما أشارت إليه بعض النصوص.

كما أن إظهار الجانب العقائدي السياسي والتدبيري قد كان في عهد الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام أكثر منه في عهد سائر الأئمة من ولده.

٣٣ - كما لابد من دراسة مواقفهم عليه السلام من الثقافات الوافدة، والمعايير التي رسموها لشيعتهم لقبول ما يمكن قبوله منها، ورد ما يجب رده، مع بيان ما قبلوه مطلقاً، وما قبلوه بشرط، وما لم يقبلوه مطلقاً أيضاً.

٣٤ - وأخيراً .. لابد من معالجة موضوع الغيبة وفوائدها وآثارها وكيف ربي الأئمة شيعتهم على الاستقلال الفكري، باعطائهم الضوابط والمعايير العامة التي تكتنفهم - لو روعيت - من اتخاذ الموقف الصحيح في مختلف الحالات والظروف، وعلى مر الزمان.

كما لابد من دراسة الزلزال الكبير الذي احدثته الغيبة رغم الاعداد لها بامامة الجواد والهادي وما صغيران، وباحتجاب العسكريين عن الناس أيضاً تهيداً لذلك، وغير ذلك مما يجده الباحث المتابع.

جعفر مرتضى العاملي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى»^(١)

أَهْلُ الْبَيْتِ

لقد تعرّضنا في كتابنا هذا إلى البحث عن المحاولات الفكرية والسياسية لأئمة الشيعة ... الأئمة الذين هم المصدق لأهل البيت عليهم السلام والابناء لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وأمير المؤمنين عليه السلام. وما هو مهمّ التعرّض اليه هنا هو الاجابة عن السبب الذي جعلنا نعتمد كلّ هذا الاعتماد على أهل البيت، فلماذا يعتمد الشيعة على أهل البيت كلّ هذا الاعتماد؟ ولماذا قبلوهم أئمة لهم واعتبروا ولايتهم هي الولاية الأصيلة فقط؟.

الحقيقة إنّ أهل السنة غير الناصبيين يحبون أهل البيت أيضاً ويحترمونهم أعظم الاحترام. غير أن الامر المهم في المسألة هو الاساس الذي بني عليه هذا

(١) الشورى: ٢٣.

«الحب» و«الاحترام» الواجب ابرازها.

فهل اتنا لو بنينا على الاكتفاء بابراز المودة والمحبة لهم، وحصرها في حدود الاحترامات الظاهرية نكون قد التزمنا بهذا الواجب وامتننا الأمر بمحبّتهم؟ وهل أنّ ما بلغنا من روایات عن رسول الله ﷺ في فضيلة أهل البيت علیهم السلام على كثرتها^(١)، وأمره ﷺ بمحبّتهم ينحصر في هذا بعد الظاهري من المحبة، ونظم أبياتٍ من الشعر في مدحهم؟.

بعيد جدّاً أن يجحب عقل منطقي على هذه الاستئلة بالاثبات فيقول بأنّ رسول الله ﷺ اراد منا أن نحبّ قرابته فقط، وأنّه لم يأخذ في هذه المحبة امراً آخر، وأنّه إنما وجبت علينا محبّتهم احتراماً للنبي ﷺ فإنّهم قرابته!.

لا ريب ان الانعطاف الذي يبديه عامة المسلمين تجاه اهل البيت علیهم السلام منشأه هو التوصيات الصادرة عن رسول الله ﷺ عند اهل السنة التي تتحدث عن أنّ رسول الله ﷺ جعل اهل البيت علیهم السلام ركناً للدين بعد القرآن لذا فلن غير الممكن لاحد أن يتتجاهل اهل البيت علیهم السلام حيث بلغ عدد الكتب المؤلفة باللغة العربية من قبل اهل السنة وحدهم حوالي ٧٠٠ كتاب عن اهل البيت^(٢).

لكن كيف انحرف هذا العدد العظيم من الناس رغم وجود هذا القدر من الفضائل الصحيحة بحيث آل الأمر^(٣) في نهاية المطاف وإثر اصرار جمّ من

(١) راجع كتاب «فضائل الخمسة في صحاح السنّة» لمؤلفه آية الله الفيروزآبادي.

(٢) راجع مجلة «تراثنا» مقالة «أهل البيت في المكتبة العربية» لكاتبها السيد عبدالعزيز الطباطبائي، وقد كان ما ألف من الكتب لحد ذلك الحين يبلغ «٣٤٠» مذكورة بالترتيب حسب الحروف الهجائية واستناداً إلى ما قاله الكاتب في مقالته فإنّ عدد الكتب بلغ أخيراً ما يقرب من ٧٠٠ كتاب.

(٣) ينبغي الالتفات إلى أنّ احمد بن حنبل وحده الذي ثبت علياً علیهم السلام خليفة رابعاً فإلى زمانه لم يكن

المحدثين والفقهاء امثال محمد بن ادريس الشافعى الى أن يقف عند حد المحجة
حيث قال:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله
كفاكم من عظيم الشأن انكم من لم يصل عليكم لا صلاة له^(١)

ويسهل الجواب عن هذا السؤال لدى ملاحظة الواقع التي جرت في عصر
النبي ﷺ وبعد وفاته حتى اواسط القرن الثاني الهجري . فهناك رواية تحكي عن
مدى ما كانت قريش تضمره من العداء والنفرة لقرابة رسول الله ﷺ في حياته .

فقد روي أن العباس عم رسول الله ﷺ قال له يوماً : «إِنَّ قَرِيشًا تَلَقَّ
بَعْضَهَا بَعْضًا بِوْجَهِ مُبْسَطٍ ، فَإِذَا رَأَيْتُنَا بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّتِي نَعْرَفُهَا» . فغضب
رسول الله ﷺ وقال : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ إِيمَانًا حَتَّى
يَحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ»^(٢) .

فهذه الرواية تدل على أن قريشاً كانت ساخطة جداً على قرابة رسول
الله ﷺ في اواخر ايامه . وقد جاء في المثل أربعة لا تكون في أربعة السخاء في
الزبيري ، والتواضع في المخزومي ، وصحة النسب في الشامي ، وحب آل محمد في
القرشي^(٣) .

⇒ العثمانية - الذين أخذوا يحملون اسم السنة مع اختلاف يزيد وينقص - يعتقدون بهذا الأمر راجع كتاب
طبقات العنابلة ج ١، ص ٤٥

(١) راجع : كتاب القدر ج ٣ ص ١٧٣ ، والصواعق المحرقة ص ٨٧ ، وشرح المواهب ج ٧ ص ٧ و مشارق
الانوار ص ٨٨ ، والاتحاف ص ٢٩ والاسعاف ص ١١٩ .

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوبي ج ١ ص ٤٩٧، ٤٩٩، ٢٩٥ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٣) ربيع الابرار للزمخشري ج ٣ ص ٤٢٣ .

فالمستظر من هذه الروايات انه كانت لقرابة رسول الله ﷺ منافسات وعداوات. اضافةً الى ذلك فانّ ما حصل من مبايعة أبي بكر في السقيفة التي تمت بدوافع متعدّدة منها منافسة الانصار، وطلب عمر الشديد من جميع المخالفين البيعة، وتهديده عليها والزبير وآخرين بحرق دورهم عليهم اذا لم يبايعوا^(١)، كان من الطبيعي أن يعقبه موقف جديّ من أهل البيت عليه السلام هذا الموقف الذي ازداد اتساعاً بخالفة الإمام ليبيعة أبي بكر التي دامت ستة أشهر وظهور الغضب والسلط في وجه فاطمة عليها السلام من الخليفة^(٢) وهو ما ادى الى أول نوع من الانقسام بين المسلمين... الانقسام الذي كانت ثرته مظلومية أهل البيت عليهم السلام مظلومية بلغت أوجها في كربلاء.

هذا والبي عليه السلام أوصى بهم مراراً على مسمع ومرأى من الناس، وطلب منهم معاملة عترته بالحسنى فضلاً عن الكلمات الكثيرة التي قالها في فضلهم عامة وفضل كلّ واحد منهم على وجه الخصوص.

فقد روى «ابن شيبة» عن «عبدالرحمن بن عوف» في حديث مسنّد أنّ رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه عمد الى الطائف بعد فتح مكة، وحاصرها ثانية عشر او تسعه عشر يوماً فلم تفتح، وفي أحد الايام او احدى الليالي مشى قليلاً ثم وقف وقال:

«أيتها الناس إني فرط لكم فأوصيكم بعترتي خيراً. وإن موعدكم الحوض. والذي نفسي بيده ليقيّم الصلاة وليريّث الزكاة، أو لأبعثن إليهم رجلاً متّي أو كنفسي فليضرّبَن أعناق مقاتلتهم، وليسبيّن ذراريّهم» قال:

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١١، ١٢، ١٣، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٨، ١٩.

(٢) راجع كتاب فضائل الخمسة ج ٢ ص ١٥٦.

فرأى الناس أنه أبو بكر أو عمر، فأخذ بيده على فقال: هذا^(١).

وجاء في رواية أخرى أنّ رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر كتاب الله ووجوب التمسك به: «وأهل بيتي، اذكركم الله في أهل بيتي» كررها ثلاث مرات^(٢).

ورغم هذه الوصايا، وتأكيد القرآن على تطهير أهل البيت، وفرض سهم ذوي القربى، والصلاحة على النبي ﷺ التي فسّرها رسول الله ﷺ نفسه بأنّها الصلاحة على محمد وآلّه، واعتباره أجره من الناس المودة في القربى فان التعامل الفطّ لساستة المجتمع في صدر الإسلام أدى إلى اعتزال الناس لأهل البيت حتى قال أمير المؤمنين عن ذلك: «إنّ الناس نسونا لفروط ما فعلوه بنا»^(٣).

ولقد أخذ «أبو ذر» صديق رسول الله ﷺ الحميم، الذي اطلق نداء التوحيد عند الكعبة في أوج ظلم أبي سفيان، بقابض الكعبة - وفقاً لما رواه أهل السنة في جوامعهم الحديثية - وصاح: «أيتها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفي فأنا أبو ذر الفهاري. لا أحد تكلم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول، سمعته وهو يقول:

«أيتها الناس إني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، واحدهما أفضل من الآخر، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، وإنما مثهما

(١) ابن أبي شيبة ج ١٤ ص ٥٠٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق ج ٢، الحديث ٨٧٥ تقلّاً عن حاشية ابن أبي شيبة، المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٣٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩، ص ٢٨، ٢٩، ٢٠ وج ٢٩٩.

كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تركها غرق»^(١).

هذه هي روايتا الثقلين والسفينة المشهورتان اللتان توکدان المكانة العليا لأهل البيت ولباقيهم في قيادة المسلمين، وهذا هو ابو ذر الذي قال عنه الرسول ﷺ: «ما اظللت السماء ولا اقللت الارض اصدق لهجة منه»، يدعوا الناس لأهل البيت بهذه الطريقة التي احيا بها خاطرات صدر الاسلام في مكة. وكما آذاه المشركون حين اطلق تلك الصرخة نفاه الآخرون حين اطلق صرخته هذه المرة !.

وهكذا فان احداً ما كان يمكنه أن يبيّن مكانة اهل البيت على حقيقتها إلا في المدّة القصيرة التي تولّ فيها الامام عليّ الخلافة. فأحيا في رحبة مسجد الكوفة حديث الغدير ، وعدد فضائل ومناقب اهل البيت، وقد وردت كلماته الرائعة في مكانة أهل البيت السامية في كتاب نهج البلاغة وسائر كتب الحديث والأدب، وقد قمنا بجمع نماذج من خطبه في موضع آخر^(٢).

غير أنّ تسلط معاوية وبني سفيان وبني مروان، وسبّهم العلني لعليّ وآله من على المنابر - حتى أن عبدالله بن الزبير كان لا يصلّي على النبي ﷺ لثلا يعلو لأهل البيت شأن - ما كان ليؤدي الى نسيان أهل البيت وحسب، بل الى رفضهم من قبل الناس. اذ كيف يتوقع والحال هذه أن يذكر شيء من مناقبهم التي نطق بها

(١) المعرفة والتاريخ ج ١، ص ٥٣٨، والروايات متواترتان. راجع كتاب عبقات الانوار ج ٢ من المجلد ١٢ طبعة اصفهان سنة ١٣٤١.

(٢) الحق أن اكثرا طرق حديث الغدير الذي رواه أهل السنة سببها ذلك العمل الذي قام به الامام في رحبة مسجد الكوفة، وهذا يدلّ على أنّ الامام لو لم يكن قد فعل ذلك لآل امر هذا الحديث الى النسيان كما ألت إليه كثير من الامور الأخرى.

رسول الله ﷺ بين الناس؟

فلم يكن ذاكر لعلي عليه السلام غير الكوفة - وهي أيضاً لم تخلُ من بغضه وعداوته - فهبي وحدها التي أبكت ذكر عليّ حياً، واعتبرت آله أحق بالخلافة من سائر الناس، واقررت لهم بها في الباطن حتى أقرّ هشام بن عبد الملك بذلك^(١)، واعترف في نصوص أخرى بأنّ الناس كانوا على استعداد تام لقبوهم في مقام القيادة^(٢) لكنّ بني العباس استغلوا هذه الفرصة فيما بعد، وفرضوا أنفسهم باسم أهل البيت على الناس البسطاء.

وغير خفي أنّ تناقل مناقب وفضائل أهل البيت خصوصاً حديث الغدير بين رواة الحديث والمحدثين الذين ما كان لهم من الانصاف إلّا القليل دام واستمرّ إلى يومنا مما جعلنا نملك ميراثاً مثل «الغدير».

غير أنه قد وقع ما كان يخشى وقوعه إذ انحرفت مسيرة المجتمع الإسلامي فغدا ذلك المجتمع الذي كان ينبغي له أن يتغذى من علوم أهل البيت ويتتفع بهم يُستند إلى أعمال خاطئة وتصيرفات مرفوضة بينما واصل أهل البيت عليه السلام العمل بما تقتضيه وظيفتهم ويلي عليهم واجبهم ضمن مساحة محدودة هم الشيعة الموالون لهم، وإن استفاد أهل السنة من كلماتهم أحياناً.

(١) الفتوح لابن أثيم ج ٤، ص ٢٣، يدلّ على ذلك صريحاً ثورة التوابين وحركة التوابين، وتفصيل القول في ذلك تعرّضنا له في كتابنا تاريخ الإسلام السياسي من العام ٤٠ إلى العام ١٠٠ الهجري.

(٢) الكامل في الأدب للمبرّد ج ١، ص حيث يهذّد خالد بن يزيد في هذه الرواية عبد الملك بن مروان بأنّ زواج الحجاج من بنت عبدالله بن جعفر غير صحيح لأنّ الناس يقولون عنبني هاشم أشياء! فهذه الزواج ربما صار عاملًا لزوال حكمبني أمية وتولي الحجاج الحكم، وهو ما جعل عبد الملك يجبر الحجاج على تطليق بنت عبدالله بن جعفر خوفاً من عقيدة أهل العراق فيبني هاشم.

واستمرت استقامة الأئمة الاطهار في الفكر والعمل رغم ما كانوا يعانون منه من ضغط وقع وكبت، واستطاعوا بما كانوا يتمتعون به من شخصية فذّة من الحفاظ على ميراث الشيعة الذي يستند إلى القرآن والعترة. وقد حفظت الشيعة عملاً ما نادى به أبو ذر حيث واصلوا طريق اهتمام العظام في الفقه والتفسير والأخلاق والسياسة.

واماً أهل السنة فقد أشرنا فيما مرّ إلى أنهم كانوا يعلنون الموذنة لأهل البيت، ويؤلفون الكتب في مدحهم وال تعرض لمناقبهم، بل قد كتبوا كتاباً في سيرة حياتهم أيضاً تعبيراً عن ذلك^(١). لكنهم لم يكلّفوا أنفسهم عناه السؤال والتحقيق عن واقعة الغدير هل كان لاثبات موذنة على فحسب؟

وعن الامامة التي يقول بها الشيعة لأنّهم هل تفتقر إلى أساس متين؟ وهل أنّ حديث «الثقلين» الذي ثبت تواتره لم يكن الاّ بصد الاشارة والارشاد إلى تلك المحبة السطحية لأهل البيت عليهما السلام؟ وهل أن حديث «السفينة» لا يعبر عن تشبيه بليغ في وجوب التبعية لهم عليهما السلام؟

وإنّ ما يثير العجب أنّ حديث «الأئمة اثنا عشر» - استناداً لما يذكره السيوطي وأخرون - حديث متواتر وإجماعي^(٢). لكنّ أهل السنة راحوا يحملونه خطأً - على بعض الخلفاء وربما ذكروا أن اربعة منهم مضوا وسيأتي الباقون. أليس هذا يدلّ على أنّ هذه الرواية تنطبق على أئمة الشيعة فقط؟. وانهم الذين

(١) من هذه الكتب تذكرة الخواص، والاتحاف، ونبأيغ الموذنة، والائمة اثنا عشر لابن طولون وغيرها مما ذكره السيد الطباطبائي في فهرسه المتقدم في مجلة «تراثنا».

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠ - ١٢ - والصواعق المحرقة ص ٧ - ١٠.

امتحن الجاحظ الذي عاصر الامام الحسن العسكري عليه السلام أحد عشر إماماً منهم حيث وصفهم بأنهم «العلماء، الزهاد النساك، الشجعان الطهرة» وأنهم اللائدون بنصب الخلافة^(١)؟

لقد كان للأئمة عليهما السلام من العظمة أنه حين ذكر اسم الامام الرضا عليه السلام عند تنصيبه ولائياً للعهد فقيل: «علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب» قيل: «والله لو ان هذه الاسماء قرئت على اصم أو أبكم لشيء بأذن الله»^(٢).

وما كان بين أهل السنة من يدرك أهمية هذا البيت إلا عدد قليل منهم، وأما أكثرهم فكانوا يبدون تفربتهم من مقام أهل البيت عليهما السلام الشاعن. إذ جاء في رواياتهم أنه قيل لزائدة - وهو من رواة الحديث - لماذا لا تروي عن جابر الجعفي وابن أبي ليل، والكلبي؟ فقال: «... وأمّا الكلبي فقد كنت اذهب عنده واقرأ القرآن فسمعته يوماً يقول: لقد مرضت زماناً فنسّيت ما كنت حفظته، فذهبت عند آل محمد فبصق في فعي فعاد اليّ كلّ ما كنت نسيته» يقول زائدة: «فلم أرو عنه بعد ذلك أبداً»^(٣). ومنه يعلم السبب في مخالفة زائدة للكلبي!

وقد كان الشهريستاني - وهو من أهل السنة والجماعة - يرى لأهل البيت

(١) آثار الجاحظ ص ٢٣٥ نقلأً عن حياة الامام الرضا عليه السلام ص ١٤٧ ، والجاحظ من اكابر الادباء وكتاب أهل السنة في القرن الثالث الهجري .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ج ٢ ص ٤٥،٤٧ ، وكتاب مقاتل الطالبيين ص ٣٧٥ ومناقب ابن شهرآشوب ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٣) تاريخ يحيى بن معين ج ١ ص ٢٨٩ .

منزلة خاصة ومكانة عظيمة ويعتقد أن علم القرآن عندهم فقط^(١).

وحقيقة الأمر أن أهل البيت عليهم السلام كانوا الحفظة الحقيقين لسنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولذا جعلهم النبي صلوات الله وسلامه عليه معاذة القرآن وقال: «إنهما لا يفترقان».

وقد ذكرنا في بحوثنا التاريخية عن الحياة الفكرية لأئمة الشيعة مسألة حفظ السنة تفصيلاً. ونذكر هنا أمثلة ثلاثة على ذلك ليتضح بها المعنى المراد.

* قال أمير المؤمنين: «إن كان الدين يدرك بالعقل فباطن القدم أولى بالمسح من ظاهرها لكنني رأيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يمسح ظاهر قدميه»^(٢).

فهذا إحياء لسنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في مقابل تحكيم «الرأي».

* ينقل أبو موسى الأشعري: «صلّى بنا علىّ يوم الجمعة صلاة ذكرناها صلاة رسول الله فإنما نكون نسيناها أو نكون تركناها عمداً»^(٣).

* كان الإمام السجدة عليه السلام إذا أذن فبلغ «حي على الفلاح» اتبعها بلا فصل قوله: «حي على خير العمل» - التي تركها أهل السنة - وقال: «هو الاذان الاول»^(٤) وذلك ليعلم الناس انهم حرفوا الاذان بمحفظهم هذه الجملة.

وهذه التصرفات وامثلها مما يرجع إلى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كثير عند الأئمة. واعتماد الشيعة كلّ هذا الاعتماد على أهل البيت عليهم السلام واستنادهم إلى آقوالهم وافعالهم انا هو لتأكيد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على ذلك من جهة ولسيرتهم في حفظ

(١) راجع مجلة «تراثنا» العدد ١٢ مقالة آذر شب حول تفسير الشهريستاني.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ج ١ ص ١٨١.

(٣) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١.

(٤) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢١٥.

كيان الدين وقاعدته من جهة أخرى.

ولا بأس باستئنار الفرصة هنا لأقدم النصيحة لعشاق الحق وطالبيه من أهل السنة وادعوهم للتحقيق وتحري الدقة فيما يخصّ أهل البيت عليهما السلام والتفكير في حقيقة المناقب والفضائل المنشورة بحقّهم وال subsequات الفكرية لها فربما هدانا الله إلى التمسك بهم، ووَقَنَا للجواز على الصراط المستقيم^(١).

وبعد تقديم الشكر الجليل لاستاذي العزيز العلّامة السيد جعفر مرتضى العاملي الذي كتب مقدمة ثرّة ومعطاء لهذا الكتاب اقدم بحثي المختصر هذا حول حياة الأئمة عليهما السلام إلى طلاب طريق الأئمة الاطهار.

رسول جعفريان
ربيع الاول / ١٤١٠ هـ

(١) يمكن ذكر كتایین هنا: احدهما كتاب (في مدرسة أهل البيت) وهو من تأليف دار التوحيد. وقد ترجمه الى الفارسية السيد محمد تقى رهبر وطبع ترجمته منظمة الاعلام الاسلامي. واما الكتاب الآخر فهو كتاب (أهل البيت او الوجوه المنيرة) من تأليف العلمين المرحوم شهاب الدين الاشراقي وآية الله فاضل لنكراني وقد تم نشره من قبل مكتب نشر الثقافة الاسلامية.

الإمام علي عليه السلام

قال الحسن البصري في وصف الامام علي عليهما السلام :

«اراهم السبيل، واقام لهم الدين إذا اعوج»^(١)

قد يدعى البعض مثاً أنه يعرف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام أكثر من معرفته بأي شيء آخر، وقد تكون معرفتنا به أفضل من سائر الآئمة عليهم السلام. غير أننا وإن كنا جميعاً نعرف علياً لكن معرفتنا الحقيقة بحياة علي الواقعية ضئيلة جدًا. والظاهر أن سبب ذلك هو قوة الاشراق وسعة المساحة التي يتمتع بها علي عليهما السلام مما يجعل الامام ب حياته واعطاء خط بياني كلي عنه امراً مشكلاً. وأماما معرفته كواحد في كثير، وكثير هو في الحقيقة في شكل الواحد فلا يمكن أن يبين لنا من خلال عدد من المعلومات المشتتة. بل لابد من التفكير بسعة وشمولية مع المحافظة على عنصر التركيز والدقة في حركات علي وخصاله وصفاته ودوافعه واقواله وافعاله لنجد بعد كثير من التأمل والامان أننا لم نعرف عن تلك الشخصية

(١) مصنف ابن أبي شيبة ج ١٢ ص ٨٣

الاً جانباً محدوداً من شخصيته وانما ما زلنا في منعطف الطريق.

معرفة مختصرة

اسمه عليّ، واسم ابيه ابو طالب (وإن كان يجب تسميته أبا عليّ)، أمّه فاطمة بنت أسد، مولده الكعبة الشريفة في مكّة المكرّمة، سنة ولادته العام الرابع والعشرون قبل الهجرة، مكان نشأته بيت رسول الله ﷺ حيث نشأ وترعرع في حضن النبي ﷺ وخدجية.

امضى فترة صباح في بيت الرسول ﷺ حيث كان أبوه لا يقوى على تحمل العبء الثقيل لعائلته. فطلب رسول الله إلهي إعانته بأن يكفل أحد ابنائه لقاء الاتّهاب التي بذلها ابو طالب بحق النبي حين كان يتيماً، فكان عليّ نصيبيه. وهكذا قضت مشيّة الله سبحانه أن يكون عليّ عليه السلام هذا الفخر الذي ما شاركه فيه أحد غير فاطمة عليها السلام.

إيمان علي عليه السلام

استناداً إلى أصح النصوص التاريخية والحديثية فإنّ الامام علي عليه السلام هو أول من آمن برسول الله ﷺ، وإن تدخلت يد السياسة بعد ذلك فاثارت أوهاماً وشكوكاً حول الموضوع. وما جاء في كتب الحديث والتاريخ قد يها وحديثها صريح في هذا الباب بما لا يدع مجالاً للشك والشبهة^(١).

(١) راجع كتاب الغدير ج ٣ ص ٢٢١ وما بعدها حيث يصرّح الامام نفسه في عدة مواضع فيقول في موضع: «أنا أول رجل اسلم مع رسول الله»، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج ٣ ص ٢٥٨ طبعة بيروت

وقد سعى بعض من عرف هذه الحقيقة وصدق بها الى التقليل من أهمية الموضوع بادعاء أن الإمام كان حينها طفلاً لم يبلغ الرشد، لكن ثمة شواهد مقنعة تدلّ بوضوح على نضجه الفكري آنذاك، بل إن عمره يدلّ بوضوح على ذلك.

وقد خصص محمد بن عبد الله الاسكافي في كتابه القيم (المعيار والموازنة) موضوعاً للبحث في هذا الأمر نذكر فيها بلي خلاصته حيث كتب يقول:

«حين نلاحظ النبي كيف يدعو علينا إلى الإسلام يكتننا أن ندرك بوضوح أنه كان حينها بالغاً وعاقلاً وإن النبي ﷺ كان يرى اعتناقه للإسلام واجباً عليه. ولو كان على ﷺ طفلاً آنذاك لم يجب عليه حكم خصوصاً والإسلام في بدايته في ذلك الحين. كما لم يكن المجتمع مجتمعاً إسلامياً كي يقوم الناس بتعليم اطفالهم لقبول الإسلام. وكان الرسول ﷺ في ذلك الوقت محتاجاً إلى إسلام من يعتنق الإسلام عن علم وبصيرة».

ثم يضيف فيقول:

«فإن قيل: وكيف يكون بالغاً وسن البلوغ في الإسلام هو أكمل السنة الخامسة عشرة من العمر في الذكر؟ قلنا: إن آخر حدّ البلوغ في الإسلام هو السن المذكور، أذ به يحصل البلوغ حتى لا يضعف الناس عقلاً من الرجال. ولا ريب أن لكل آخر أولاً ووسطاً فيصبح معه قبول بلوغ إنسان لم يبلغ سن الخامسة عشر. وقد كان لأمير المؤمنين من العمر حين آمن بالإسلام ثلث عشرة سنة وهو ما يعتبر أولاً مراتب البلوغ.

⇒ أو يقول: «أنا أولاً من صلى مع رسول الله»، الاستيعاب ج ٢ ص ٤٥٨، وفي موضع ثالث يقول أيضاً: «اسلمت قبل أن يسلم الناس بسبعين سنتين» الرياض النبرة ج ٢ ص ١٥٨.

ويستمر الاسكافي في حديثه فينقل رواية عن أهل السنة مفادها: أنَّ عَلَيْتَ لِلَّيْلَةِ سَأَلَ النَّبِيَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ عَنْدَمَا رَأَهُ يَصْلِي مَاذَا يَفْعُلُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ : هَذَا دِينُ اللَّهِ يَا عَلَيْهِ.

ثم عرض عليه الاسلام فقال له علي بن ابي طالب عليهما السلام : انظرني حتى اتفكر فيه ليلة» ثم يقول الاسكافي : «وبعيد عن طفل مثل هذا الجواب»^(١).

وتوجد اقوال متضاربة في السنن التي آمن معها علي عليهما السلام حيث أن المنشور إيمانه ما بين ٨ سنين و ١٦ سنة. والذي يبدو من عبارة الاسكافي المتقدمة أنَّ الامام عليهما السلام اعتمد الاسلام وعمره ١٢ سنة^(٢).

غير أنه يبدو لي أنَّ الزيادة والانقصاص في عمر الامام عليهما السلام رغم ما يعتريه من عدم الاطلاع الدقيق بذلك، له دوافعه الخاصة التي منها اظهار الامام طفلاً غير بالغ عند إيمانه إما بدافع التقليل من شأن هذا الأمر، أو لاثبات أنَّ الامام لم يكن له عهد بالجاهلية (وان كان عمره عند إيمانه بالاسلام ١٣ سنة) وعكس هذا يأتي بالنسبة الى فرض الزيادة في عمره.

وإذا كنَّا من القائلين بالأخذ باوسيط الامور فانَّ علينا أن نقبل بقول الاسكافي أي أنَّ نقبل بأنه كان لعلي عليهما السلام ثلث عشرة سنة. خصوصاً وأنَّ النبي عليهما السلام اوكل اليه امر اعداد الطعام في واقعة الانذار^(٣). فلا بد أن يكون علي في ذلك الوقت - بعد ثلث سنين منبعثة الشريفة - في سن يتوقع منه

(١) المعيار والموازنة، ص ٦٧ وما بعدها، طبع بيروت تحقيق المحمودي.

(٢) راجع كتاب : ترجمة الامام علي بن ابي طالب من تاريخ دمشق ج ١ ص ٤١-٤٦.

(٣) هي حادثة الدعوة التي دعا فيها رسول الله عليهما السلام عشيرته واهل قرابته الى منزله ودعاهم الى الاسلام إشارة الى الآية الكريمة : «وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاقْرَبِينَ».

صدور مثل هذا العمل منه.

صحبة علي لرسول الله ﷺ

يُكَلِّمُ تقسيم حياة الامام الى مراحل عدّة:

المرحلة الاولى: وتبدأ من زمان النبي ﷺ وتستمر الى حين وفاته. خلال هذه المدة الطويلة لم يُرِّ علیٰ علیلاً بعيداً عن رسول الله ﷺ الا نادراً، وما من امر حدث الا كان علیٰ فيه معلم واشر. واذا شئنا أن نقوم بتحليل واقعی عن علاقة الاخوة التي اوجدها رسول الله ﷺ بينه وبين علیٰ علیلاً في السنين المتأخرة لكان علينا ان نعتبرها آية على صداقة وصحبة طويلة بينهما - كأخوين - تقتد الى جميع مراحل الحياة.

وقد عَبَرَ الامام عن هذه الصحبة بعبارات مختلفة وضمّنها قالب تشبيهات جميلة. وانعكست آثار هذه الصحبة وتمثّلت بانتقال علم رسول الله ﷺ وعمله اليه وتجلي كمالاته فيه، قال علیٰ علیلاً :

«ولقد كنت اتبّعه اتبّاع الفصيل أثر أمّه»^(١).

وكانَت نتْيَاجةَ هذَا الارْتِبَاطُ الوثيقُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِ :

«إِنِّي لَمْ أَرْدَدْ عَلَى اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ سَاعَةً قُطْ»^(٢).

وقد منح هذا القرب الذي بينهما الفرصة للامام علیلاً لينهل من بحر علم رسول الله ﷺ الذي لا يقف عند حدّ كما قال هو عن ذلك:

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠.

(٢) الخطبة ١٩٥.

«وكان لا يمْرُّ بي من ذلك شيء إلا سأله عنه وحفظته»^(١).

وطبيعي أن النبي ﷺ إذا كان مدينة العلم فإن علياً يجب أن يكون بابها لأنه الوحيد الذي كان على اتصال مباشر بهذا البحر من العلم.

وقد اختاره النبي ﷺ أخاً له لتزداد هذه العلاقة وثوقاً ومتانة وقال في ذلك: «علي مثي» وقال جبرئيل: «وأنا منكما»^(٢) ولما رأى الناس ما على من المنزلة فقد جعلوه واسطتهم عند النبي ﷺ وجعلوا يقدّمون استلهم إلى رسول الله من خلاله^(٣).

يقول أبو سعيد الخدري في وصف هذه العلاقة: «كانت لعليّ درجة لم تكن ل أحد من الناس»^(٤).

وعندما يسأل الإمام لماذا تروي من حديث النبي أكثر مما يرويه سائر الصحابة فيجيب: «لأني كنت إذا سأله أباً، وإذا سكتُ أبتدأني»^(٥).

ومن جملة الأدلة التي تؤكّد وجود هكذا علاقة لعليّ بالنبي ﷺ وآثارها البارزة في علم الإمام معرفته بشأن نزول الآيات القرآنية وتفسيره الدقيق لها. قال علي عليه السلام: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيما نزلت وأين نزلت»^(٦).

وكان الإمام خلال الفترة التي كان فيها النبي ﷺ مشغولاً بالدعوة إلى

(١) الخطبة ٢٠٨ من نهج البلاغة.

(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥٩.

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٥٨ - ٥٩.

(٤) انساب الأشراف ج ١ ص ٩٨ تحقيق محمودي، مصنف عبدالرازق ج ١٠ ص ١٤١.

(٥) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٩٨.

(٦) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٩٩.

الاسلام والتبليغ يعد نفسه للدفاع والتضحية من اجله .

وعندما بلغ رسول الله ﷺ الأمر باعلان دعوته ، واراد ان يدعو قرابته كان علي عليهما السلام نعم العون له ، يهتم الاستعدادات الالزمه للمجلس ويبدي بين القوم وفاءه واحلاصه .

وحيث كان بعض الافراد امثال ابي ذر تائهين في مكة بحثا عن بيت النبي ﷺ كان علي عليهما السلام الفتى الشجاع يأخذهم الى منزله سرّاً مراعياً رغم ذلك اساليب العمل السري الدقيقة .

وعندما قاطعت قريش النبي ﷺ اقتصادياً واجتماعياً وحاصرته في شعب ابي طالب كان علي من جملة من كانوا يتحملون الصعب ويسلكون الطرق الوعرة لتوفير المواد الغذائية للنبي ﷺ وسائر الصحابة ^(١) .

وحيث كان رسول الله يتوجه صوب الطائف والمناطق الواقعة اطراف مكة ليعمل بواجبه في تبليغ الرسالة الالهية كان علي هو الذي يرافقه لكيلا يبقى النبي وحيداً وليعينه عند تعرضه للمشكلات .

وحيث عزم المشركون -الذين وقعوا تحت ضغط دعوة الرسول وتبليغه ورأوا في استمرارها زوال سلطتهم- على قتلها كان ناصر رسول الله ﷺ المضحي معه يعذّان خطة لمواجهة هذه المؤامرة تحتاج الى تضحية وفداء ، وكان في قلب علي عليهما السلام الحب لرسول الله ﷺ ما جعله يرضى من صميم قلبه أن يعرض نفسه الى خطر الموت لينجو رسول الله ﷺ من الخطر الذي يتهّده .

(١) المعيار والموازنة ص ٨٨ .

وبعدما هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة بايام كان على طبلة اقرب الناس اليه يتولى مسؤولية حمل عائلة النبي ﷺ التي كانت عرضة لتهديد المشركين الى المدينة إضافة الى مسؤولية رد امانات الناس (التي كانت عند النبي ﷺ الى اهلها). وقد لبست رسول الله ﷺ مترقباً على مقربة من يثرب حتى يعود اخوه علي طبلة من السفر ليدخل المدينة معه.

وقد ازدادت هذه العلاقات قوّة واستحكاماً بزواج علي من فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله ﷺ وكانت ثرة الزواج المبارك اولاداً كان رسول الله ﷺ يحبهم اعظم الحب ويسمّهم ابناءه^(١) ولم يكن ذلك لاجل فاطمة عليها السلام وحدها بل لاجل علي عليهما السلام أيضاً. لأن النبي كان يعتبر نفسه وعلياً من شجرة وباقى الناس من اشجار آخر.

وقد سئلت عائشة عن احب الناس الى رسول الله ﷺ فقالت: «اما من الرجال فعلىٰ واما من النساء ففاطمة»^(٢).

وكان بيت علي عليهما السلام من القرب الى بيت رسول الله ﷺ ما جعل عبدالله بن عمر يعتبر ذلك شاهداً على العلاقة الوطيدة بينه وبين النبي ﷺ^(٣) تلك العلاقة التي كان زيد بن ثابت يقبلها رغم كل المعارضه التي كان يديها علي^(٤).

واما عن اشتراك الامام في الحروب في صدر الاسلام فقد قيل في ذلك الكثير فبدر وأحد والخندق ثم معركة حنين كلها ملاحم رائعة سطر فيها الامام

(١) وهو ما انكره فيما بعد بنو امية وبنو العباس - راجع كتاب الحياة السياسية لامام الحسن عليهما السلام.

(٢) تاريخ جرجان ص ٢١٨، ربيع الاول ١٤١ ص ٨٢١.

(٣) انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨١-١٨٢.

(٤) مصنف عبدالرزاق ج ١٤١ ص ١٤١، فتوح ابن اعثم ج ٢ ص ١٦٥.

تضحياته وبطولاته فان نصف قتلى بدر لقوا حتفهم على يديه .

وحيثنا فــ اكثــر المسلمين من ســاحة المــعركة في أحد ، ظــل هو وعــدد قــليل مــنــهم الى جــوار رــسول الله يــدافع عنــه وعــن الاسلام . وــفي مــعركة الخــندق كان عــليــ قد اــدــخــر من الأــجــر بــقتــلــه عــمــرو بن عــبــد وــدــ ما يــعــدــ عــبــادــةــ الثــقــلــينــ وــكــانــ فيــ اــكــثــرــ المــعــارــكــ وــالــحــرــوبــ حــامــلاــ لــوــاءــ جــيــشــ الاسلامــ^(١) .

إــنــ منــ يــعــرــفــ حــيــاةــ عــلــيــ عــلــيــاــ وــقــرــبــهــ عــنــ رــســوــلــ اللهــ عــلــيــاــ يــفــهــمــ كــمــ بــذــلــ مــنــ الــجــهــوــدــ وــتــحــمــلــ مــنــ الــمــشــاــقــ مــنــ اــجــلــ اــســتــقــرــارــ الــاســلــامــ وــاــنــتــشــارــهــ . اــجــلــ لــقــدــ كــانــ هوــ وــاــبــوــهــ اــبــوــ طــالــبــ وــاــخــوــهــ جــعــفــرــ اــكــثــرــ النــاســ عــزــمــاــ وــســعــيــاــ مــنــ اــجــلــ الــحــفــاظــ عــلــىــ النــبــيــ عــلــيــ عــلــيــاــ وــالــاســلــامــ^(٢) .

وــكــانــ لــعــلــيــ مــنــ الشــجــاعــةــ فيــ الــحــرــوبــ مــاــ جــعــلــ بــعــضــ الــعــرــبــ يــقــوــلــونــ : «ــكــنــاــ

ــكــلــمــاــ هــجــمــتــ طــائــفــةــ فــيــهاــ عــلــيــ عــلــيــاــ اوــصــىــ اــحــدــنــاــ الــآــخــرــ»^(٣) .

وــكــانــ اــحــمــدــ بــنــ حــنــبــلــ اــذــ اــرــادــ أــنــ يــصــفــ عــلــيــاــ يــقــوــلــ : «ــمــاــ لأــحــدــ مــنــ الصــحــابــةــ

ــمــنــ الــفــضــائــلــ بــالــاســانــيــدــ الصــحــاحــ مــثــلــ مــاــ لــعــلــيــ رــضــيــ اللهــ عــنــهــ»^(٤) .

كــماــ كــانــ اــذــا دــارــ الــحــدــيــثــ فــيــ مــجــلــســهــ - وــهــوــ اــحــدــ اــئــمــةــ الــمــذاــهــبــ الــاــرــبــعــةــ - عــنــ عــلــيــ

ــوــالــخــلــفــاءــ الــثــلــاثــةــ قــالــ : «ــإــنــ اــبــنــ اــبــيــ طــالــبــ لــاــ يــقــاســ بــهــ اــحــدــ»^(٥) .

(١) حــيــاةــ الصــحــابــةــ جــ٢ــ صــ٥١٤ــ، ٥١٥ــ، اــنــســابــ الــاــشــرــافــ جــ٢ــ صــ٩١ــ، ٩٤ــ.

(٢) شــرــحــ نــهــجــ الــبــلــاغــةــ لــابــنــ اــبــيــ الــحــدــيــدــ جــ٧ــ صــ١٧٤ــ.

(٣) رــيــعــ الــاــبــرــارــ جــ٣ــ صــ٣١٩ــ.

(٤) مــنــاقــبــ اــحــمــدــ بــنــ حــنــبــلــ لــابــنــ الــجــوــزــيــ صــ١٦٢ــ، ١٦٣ــ، اــبــنــ اــبــيــ يــعــلــىــ ، طــبــقــاتــ الــحــنــابــلــةــ جــ١ــ صــ٣١٩ــ.

(٥) نــفــســ الــمــصــدــرــ الســابــقــ صــ١٦٣ــ، ١٦٠ــ.

ولا بأس أن ننقل هنا أحدي فضائل الامام بتفسير امام الحنابلة فقد روى
محمد بن منصور الطوسي قال: «كنا عند احمد بن حنبل فسأله شخص: ماذا
تقول في الحديث المروي عن علي عليه السلام انه قال: انا قسيم النار».

قال احمد: ولماذا تنكرونه اما رويانا ان النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق»؟ فقلنا: بل . فقال: فاين يكون المؤمن؟ قلنا: في الجنة . قال: فالمنافق؟ قلنا: في النار . قال: فعلى قسيم النار ^(١) .

وقد منع بنو امية من نقل اغلب هذه الفضائل فيما بعد ولم يكن يجرؤ على نقلها الا عدّة معدودة. وكان عبدالعزيز ابو (عمر بن عبدالعزيز) الذي كان احد خلفاء بنى امية يقول لولده: «لو علم هؤلاء الحمير ما نعلمه عن علي ما تبعنا افغان»^(٢).

سياسة الامام

اذا التفتنا الى طبيعة العلاقات التي كانت تربط امير المؤمنين برسول الله ﷺ والدور المشرف الذي كان الامام يقوم به لنشر الاسلام منذ اوائل ايامه والى زمان رحيل النبي ﷺ والمعبر عن الايثار والتضحية من اجل الاسلام فسوف نفهم ان الامام كان من الشخصيات العظيمة واصحاب النفوذ في زمان حياة الرسول ﷺ ورغم هذه المكانة الخاصة التي كان الامام يتمتع بها تمكن الآخرون -الذين لم تكن لهم هذه المكانة بأدلة ستنقض في حينها- ان يقيدوا حركة

(١) طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى ج ١ ص ٣٢٠، حديث لا يحبك الا مؤمن، من الاحاديث المتوترة في فضل امير المؤمنين عليه السلام راجع كتاب ربيع الابرار ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) ربيع الابرار للزمخشري ج ١ ص ٤٩٩ .

الامام ويستولوا على السلطة بتنفيذ بعض الحيل السياسية الخاصة، وكان من أهم ما عملوه في هذه الفترة هو المكانة المتميزة والفريدة التي كانت لعلي عليه السلام من المجتمع الإسلامي، لذا راحوا يسعون وبما كان في أيديهم من امكانات الى تضييف شخصية علي عليه السلام، وتمكنوا من فرض العزلة عليه وهذا الامر اعلنه الامام وغيره بصراحة ووضوح ^(١):

وكان الامام الذي يرى حقه ضاع منه قد قام معتراضاً في بداية الامر لكنه حين رأى المخالفات ثارت من اطراف وانحاء الجزيرة العربية كف عن المعارضة من اجل حفظ الاسلام. وان كان يبدي بين الحين والآخر احقيته في الخلافة ^(٢). وكان اذا استشاره الخلفاء في امر او رجعوا اليه في قضاة يسدي نصائحه إن رأى في ذلك فائدة. وان كان في بعض الموارد الاخرى يأبى ذلك لعلمه بعدم المصلحة في الامر. وكان عليه في مثل هذه الحالات أن يواجه سيلاً من التهم والانتقادات ^(٣)، ولذا تعرضت علاقاته بال الخليفة الثالث لحالات من التشنج لأن الامام كان في كثير من فتاوى الخليفة يبدي اراء مخالفة ^(٤).

خلافته

وبنور الزمان وتفاقم المشكلات والحوادث وعجز الخليفة ومساعديه السياسيين والعلماء عن حلها راح الخلفاء يتدون ايديهم الى الامام طلباً في

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩ ص ٢٩٩، ج ٢٠ ص ٢٨، ج ٢٩، والجمل للشيخ المفيد ص ٩٢.

(٢) الغارات ج ١ ص ٣٠٧.

(٣) مستند احمد بن حنبل ج ١ ص ١٠٠.

(٤) مستند احمد بن حنبل ج ١ ص ١٠٠.

المساعدة، وكان هذا سبباً في لفت الانظار الى مكانته العلمية في المجتمع الاسلامي وجعل الناس ينظرون اليه على انه خزانة علوم الاسلام واسراره المقدمة. ومن وجة النظر السياسية فان هناك عدداً من الوعيين من كانوا يعتقدون أن السياسات الجارية لا تصب في مصالح الاسلام اختاروه ليكون مرشحاً للخلافة اضافة الى أن عدداً من الشيعة الذين كانوا يرون الارضية مناسبة، قد ضاعفوا من نشاطهم للكشف عن وجه الامام الناصع وراحوا يبذلون جهوداً حثيثة ومساعي سياسية متواصلة ليتولى الامام الحكم، كما أن سائر طبقات الشعب ايضاً اعرضوا عن الخليفة الثالث لأنهم كانوا يرون مسيرة الحكم لا تتفق مع آمالهم واهدافهم من وجة النظر الدينية والسياسية لذا فانهم أظهروا الحب والبيعة والولاء لامير المؤمنين. وقد ادّت هذه العوامل جمياً الى أن يهجم الناس بعد عثمان على بيت علي عليه السلام ليجلسوه على كرسي الخلافة، وهذه هي المرة الاولى التي يباع الناس فيها شخصاً ثم يتولى امور الخلافة بصورة رسمية خلافاً للمرات السابقة التي كان ينصب فيها الخلفاء اوّلاً ثم يدعى الناس لمبايعتهم.

المبادئ والاصول السياسية للإمام طيلة حكمه

انّ من اهم ثرات حكومة الامام امير المؤمنين -التي دامت خمس سنوات فقط- اتخاذه سياسات كان الامام يهدف من خلالها الى تنظيم امور البلاد وتطبيق الواقع الاجتماعية المهمة عليها، تلك السياسات الاسلامية التي بنيت على اساس من التعاليم الدينية والقيم الانسانية العامة، ولم يكن الامام مستعداً للعدول ذرّة عنها. نذكر فيما يلي باختصار ثناذج منها:

الف: اصلاح نظام الحكم وتقديمه على الفتوحات:

ان من احدى المبادئ السياسية عند الامام بنحو قابل لأن يعطي انطباعاً عاماً لجميع مساعي الامام عليه السلام في ايام حكومته هي مبادرته لاصلاح الفساد السياسي المتفشي بين المسلمين، وتقديمه على الفتوحات الاسلامية وتوسيعة المناطق التابعة للدولة الاسلامية. فقد كان الإمام يفضل أن تبقى الدولة الاسلامية منحصرة ضمن مساحة جغرافية محدودة ولا يسود في داخلها الفساد السياسي وانما يتولى مسؤولية الحكم على الناس فيها عناصر لا شك في صلاحيتهم الدينية والسياسية، ولذا فانَّ الامام حين عرض عليه جماعة أن يصبر على معاوية وامثاله رفض ذلك وقال: «ما وجدت الا قتال القوم او الكفر بما جاء به محمد»^(١).

وقال أيضاً: «لم يكن الله يراني اتّخذ المضلين عضداً»^(٢).

ولهذا السبب كفَّ يده طيلة مدة امامته عن الاستمرار في الفتوحات وحاول تنفيذ سياساته، فعندما خالفه اشخاص مثل الناكثين هاجر الى العراق، وحصل على عنon الكوفيين^(٣) واسرع لقتالهم وتمكن في الحرب التي نشبت من قتل قادة الناكثين، والقضاء على حركة راكبة الجمل التي قادت المعركة. وكان الامام يرى نفسه موظفاً لمقاتلة العناصر الداخلية المخلة بالامن والنظام وكان يقول: «أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٤).

وما كان يصبر على معاوية ولم يرضَ ان يكون حاكماً على الشام ولو

(١) الانساب ج ١ ص ٢٣٦ المحمودي، المعيار والموازنة ص ١٣٦، ٥٤، وكتاب الفتوح ج ٢ ص ٢٦٦.

(٢) وقعة صفين ص ٥٢، الطريي ج ٣ ص ٤٦٠.

(٣) اذ ان الاموال والرجال بالعراق، الاخبار الطوال ص ١٥٣، الفتوح ج ٢ ص ٢٦٨.

(٤) الانساب ج ١ ص ١٣٨.

ل الساعة واحدة. فلذا بذل قصارى جهده لازالة هذه العقبة عن طريق الاسلام، وهو وإن وفق إلى حد كبير في ذلك لكن الضعف الذي ابداه أهل العراق، وأغترارهم بالشعارات الكاذبة التي اطلقها معاوية افقد الامام القدرة على ازالته.

وطبيعي أن تكون نتيجة هذا الضعف الفكري الذي اوصل القدرة القتالية لجيش الكوفة إلى درجة الصفر هو تسلط معاوية على العراق بعد استشهاده. لكن سنتي الامام في الحرب مع القاسطين والظالمين صارت أصلاً دينياً مسلماً عند جميع المسلمين واستسست قاعدة في الاحكام الشرعية فيما يخص حرب البغاء.

وفي قتاله المارقين^(١) عندما وجد الامام ان جماعة قد خدعتهم التأويلات الخاطئة للآيات القرآنية وانهم سيجرون المجتمع الاسلامي نحو الفساد اقدم لنفريق جمعهم فحطّم قدرتهم العسكرية. وإن ساعد الحكم الجائر لبني امية فيما بعد على انتشار افكار الخوارج المنحرفة مرة اخرى واتسعت دائرة عملهم السياسي لكنهم لم يقووا على الوقوف بوجه علي عليه السلام فقد قعوا ودمروا على يديه.

وكان الامام يسير بسيرته هذه في جماعة من المسلمين ابتلوا بانحراف في الدين وقعوا -عن علم وغير علم- في حبائل الشيطان وصاروا منافقين، يقول الامام في هذا الصدد:

«ولكنا انما اصبحنا نقاتل اخواننا في الاسلام على ما دخل فيه من الزيف والاعوجاج والشبهة والتأويل»^(٢).

لكنه كان يعتبر الحرب واجباً لاصلاح العناصر المفسدة بين المسلمين التي

(١) مرق عن الدين اي خرج عنه.

(٢) الخطبة ١٢٠ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٥٠١.

تريد انتهاز الفرصة للاستيلاء على الحكم ويقول:

«فَإِنْ رَأَيْتَ قَتَالَ الْمُحْلِّينَ حَتَّى الْقِيَةِ اللَّهُ، لَا يُزِيدُنِي كُثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي
عَزَّةٌ، وَلَا تَفَرَّقُهُمْ عَنِي وَحْشَةٌ»^(١).

طبيعي انه لو كان التصالح مع المعارضين ممكناً واعلنوا فروض الطاعة للامام وتوجيهاته ما خاض الامام حرباً ضدهم لكنهم اوجدوا ظروفاً لم يكن لدى الامام معها خيار سوى الحرب فقد روى طارق بن شهاب عن الامام قوله: «وَاللَّهُ مَا وَجَدْتُ مِنَ الْقَتَالِ بُدَّا»^(٢).

ب - الاستفادة من الاسس الاسلامية والاخلاقية في اصلاح الانحرافات:

وكان من جملة السياسات الاصولية للامام انه لم يكن يعتمد على الطرق والاساليب غير الشرعية في سياسته . وقد اقترح عليه مراراً ان يوقر شرفاء القوم ليأمن خطر مخالفتهم ويستمد العون منهم لكن الامام كان يأبى ذلك^(٣) . إذ لو كان يريد أن يفعل ذلك لسالم معاوية لكنه كان يردد هذه الجملة دائماً ويعتبرها اصلاً مهماً في حكمه حيث يقول: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلَبَ النَّصْرَ بِالْجُورِ؟»^(٤) .

لقد كان دأب على طبلة على شرح سياساته للناس لذا فأنه كان يبين الخطوط العامة لسياسته في خطبه المفصلة التي كان يلقاها في الناس طيلة مدة خلافته . وكان يحاول بذلك أن يكون اقدام الناس عن وعي و اختيار . وكان كلما

(١) الخطبة ٢٧٥ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٨٨.

(٢) التاريخ الكبير للبخاري ج ٢ ص ٦٧.

(٣) الغارات ج ١ ص ٤٥.

(٤) الغارات ج ١ ص ٦٧٥ ، بهج الصباغة ج ١٢ ص ١٩٦.

حالفة في امر سعى لتوسيعه لهم. فإذا وجدهم لم يقبلوه لم يفرض عليهم مراده ويقول : «ليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»^(١).

وفي مقام آخر قال بعد أن ذكر محاولاته لاصلاح الامر من طرق مختلفة : «لا يصلحكم إلا السيف وهيئات ان يكون صلاحكم بفسادي»^(٢).

لقد كان الامام ملتزماً بهذه الضابطة. ولذا فإنه حين رأى نفسه بين اصلاح الناس وإفساد نفسه باعتباره قائداً صمم على ترك الاستفادة من الاساليب الجائرة لاصلاح الناس كيلا يفقد صلاحه. فهو لم يكن يريد أن يستعمل الحيلة والمكر لتحقيق اغراضه السياسية وبذلك يقوّي موقعيته بين الناس فقد كتب فخرى يقول : «ولم يكن الخدع والحيل من مذهب عليّ».

لكنّ معاوية لم يكن كذلك، ولذلك اتهم الامام بضعف الرؤية السياسية وعرف معاوية بقوّتها عنده. وقد قال الامام في الاشارة الى ذلك :

«والله ما معاوية بادهى متى لكنه يغدر ويفجر، ولو لا كراهيّة الغدر لكنه من ادھي الناس»^(٣).

ولهذا السبب كان ابن عباس يقول : «ما رأيت رئيساً يوزن بعلّي»^(٤).

ج - جميع الجهود لحفظ الاسلام:

انّ من جملة المبادئ السياسية عند الامام سعيه لحفظ الاسلام فإذا اقدم

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨.

(٢) الارشاد ص ١٣٤ طبع المطبعة الاسلامية.

(٣) الخطبة ١٩٨ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٧٩، المعيار والموازنة ص ٢٦٦، الغارات ج ١ ص ٢٩٦.

(٤) عيون الاخبار ج ١ ص ١١٠.

على امر معين فأنه يقدم عليه باعتباره مقدمة لبقاء الاسلام، فحين وقعت حادثة السقيفة كان الامام يشهد ضياع حقه، لكنه اختار السكوت لكيلا يتزعزع ايمان سكان جزيرة العرب الحديث، ويصاب الاسلام العزيز بالضرر، فقد كتب في رسالته الى محمد بن ابي بكر يقول:

«فخشيت إن لم انصر الاسلام واهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به على اعظم من فوت ولا ينكم التي إنما هي متابع أيام قلائل...»⁽¹⁾.

هذا في الوقت الذي لم يمتنع الامام ابداً عن اعلان احقيته بالخلافة وحده^(٢) وكان كثيراً ما يعده فضائل اهل بيت رسول الله ﷺ لينبه الناس على تقدّمهم على غيرهم. وفي نهج البلاغة عبارات وكلمات له في هذا الصدد تصرّح بذلك بوضوح. هذا مضافاً الى مساعي الامام الاخرى لتبنيت اسس امامته الالهية بالطرق والاساليب المختلفة^(٣).

مصير السياسة في حكومة أمير المؤمنين

لقد كان طيلة مدة حكومة أمير المؤمنين تناقض اساسيّ بين جهاز القيادة السالم الصحيح وبين ما اعتاد عليه الناس وعملوا به.

فن جهة كان الامام يريد أن يصلح امر المجتمع وفقاً للمعايير الشرعية ويجعل الضوابط الدينية في العلاقات الاجتماعية بين الناس، ويلزم من ذلك أن يستخدم لهذا الغرض اسلوبه الاسلامي والاخلاقي الخاص، بأن لا يقدم على امر

(١) الغارات ج ١ ص ٣٠٧، انساب الاشراف ج ١ ص ٢٨١ تحقيق محمودي، ونهج البلاغة الكتاب ٨١.

(٢) راجع كتاب نهج البلاغة ص ٤١٩ إلى ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧. انساب الاشراف ص ١٧٧.

(٣) راجع كتاب تاريخ الاسلام السياسي حتى العام ٤٠٠ الهجري ص ٤٣٥ الى ٤٣٥.

خارج عن حدود الدين -كما ذكر- للوصول الى اهدافه.

ومن جهة اخرى فانَّ الناس خلال سنين طويلة جعلوا لهم معايير أخرى تكوت في ظلّ مجتمع مرفه متوجه الى احياء القيم الجاهلية وكان تطبيق هذه المعايير معلولاً لامرين:

١- استمرار الفتوحات وزيادة الغنائم.

٢- عدم اعتناء الحكام بتربية الناس تربية اصيلة.

وخلاصة الامر أنَّ الناس كانوا يريدون شيئاً، والامام يريد شيئاً آخر، وهو ما جعل تناقضاً بين الارادتين. لذا لم يكن إصلاحهم بغير السيف ممكناً، ولم يكن علىّ أن يسوقهم الى الاسلام بغیره فماذا يتوقع لسياسة كهذه من مصير؟

لقد سعى الامام أن يدلّ الناس على الطريق، وينزلهم عند حكم العقل، ويرشدهم بإيضاح اسس التقوى الى الهدف المقدس الذي ابتعدوا عنه. لكن نشوب الحروب الداخلية زاد من وطأة الضغط الذي يعاني منه الناس اذ انَّ هذه الضغوط ليست لا تتناءم مع نفسية ذلك المجتمع المياله نحو الرخاء فحسب ، وانما تنافيها ايضاً، لأنَّ المعارك التي كان الناس يخوضونها ضد المشركين كانت تعود عليهم بالغنائم.

واما الحروب الداخلية التي خاضها عليّ ضد الناكرين والقاسطين والمارقين فلا تعود عليهم بشيء وهو ما جعل الناس بل كثيراً من الراغبين ظاهراً في تطبيق الاسلام عاجزين عن الوفاء بتعهّداتهم، فعدلوا عن مواضعهم واعلنوا مخالفتهم، وتركوا علينا علّيلاً وحده، ولم يثبت معه الاّ من كان يعرفه ويعرف طريقه معرفة حقة.

وكان الامام امير المؤمنين عليه السلام يتوقع مثل هذا اليوم ولذا كان في أول الامر يأبى أن ينصح لطلب الناس، ويرفض قبول حكمتهم، لأنه يعلم انهم لا يثبتون على تنفيذ سياساته واجراء برامجه، اذ كان يقول:

«دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون امراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»^(١).

لكنه قال في آخر الامر جملة تؤكّد تحقق توقعه السابق وتثبت صحة رأيه الأول بعد أن اختبر الناس رأيه حيث قال: «اعلموا أنه قد وقع الامر الذي كنتُ أحذركم إياته، وأنّ الفتنة كالنار كلّما اسعته ازدادت، وإنّما سأمسك هذا الامر ما أتمسّك فإذا لم أجده بُدّا فآخر الدواء الكي»^(٢).

وكان عاقبة هذا الحكم على خلاف السنن الجارية في المجتمعات البشرية حيث صار الحاكم مظلوماً والرعية ظلمة بدلًا من أن يكون هو الظالم وهي المظلومة كما هو المتعارف، وغدا الناس امراء له بدلًا من أن يكون هو اميرهم. واضح ماذا يكون عليه مصير حكومة بهذه. قال علي عليه السلام:

«لقد أصبحت الامم تخافُ ظُلْمَ رُعائِتها، واصبَحَتْ أخافُ ظُلْمَ رعائِتي»^(٣).

وقد ازدادت حركة الامم وخروجها من الطاعة الى عدم الطاعة خلال الحروب الداخلية الثلاث شيئاً فشيئاً. فقد بلغ اقبال الناس وهجومهم عليه في أول الامر حدّاً كاد ان يسحق معه ابناء ويهلكا تحت ضغط الجمع الحاشد حتى

(١) نهج البلاغة، لصبيحي الصالح ص ١٣٦.

(٢) الفتوح لابن اعشن ج ٢ ص ٢٧٢.

(٣) الخطبة ٩٥ من نهج البلاغة، وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٨٢.

اضطر في نهاية المطاف واثر المزيد من الاصرار أن يقبل الخلافة معللاً ذلك بقوله عليه السلام :

«ولكني آسى أن يلي امر هذه الامة سفهاؤها وفجّارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده حولاً والصالحين حرباً والفاسقين حرباً»^(١).

ولكن لما كان أول الناس بيعة له قد اعلن مخالفته قبل غيره والامر ما زال في أوله، فان من الطبيعي أن يلحق به آخرون ويزداد عدد مخالفيه بالتدريج، فقد انقاد الناس في حرب الجمل للامام، واطاعوا امره وان عصاه في الكوفة ابو موسى الاشعري ودعا الناس الى القعود، فقدع عن القتال معه بعض ظاناً انه بذلك حفظ دينه لكنه لم ينصر الحق طبعاً ولذلك نرى الامام يصفهم بدقة بهذا الوصف فيقول: «خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل»^(٢).

ورغم ان الناس في حرب صفين كانوا على اطمئنان كامل بصحّة مسيرهم في أول الأمر لكنّ ضغط الحرب اضعف عقيدتهم، ولأن من عزّهم، وادى بهم الى التراجع عن التزاماتهم وتعهّداتهم السابقة وسحقها، عندما رجحوا قول معاوية على قول عليّ واعتبروا معاوية مع القرآن وعاماً به دون عليّ.

وفي المرحلة اللاحقة شكل المخالفون للامام علي عليه السلام صفاً أمامه حيث أنهم إذا كانوا يرفضون قتال معاوية معه في صفين، فقد خرجن عليه هذه المرة ليخرجوا بذلك عن الدين.

وقد قصرت يد الامام في الأيام الأخيرة عن القيام باي عمل وعجز حتى

(١) الكتاب ٦١ من نهج البلاغة.

(٢) تصنیف نهج البلاغة ص ٥٧١.

عن الدفاع ازاء الهجمات التي كان معاوية يشنها على المناطق الخاضعة لحكومته، كما ضعف ايان الناس ايضاً حتى لم يعودوا مستعدين لسماع كلام الامام، بل كانوا يرون انفسهم عاجزين عن الدفاع عن بلاد العراق تحت ضغوط هجمات معاوية.

اما الخوارج هؤلاء المتعصبون الجهلة، فقد كان فهمهم للدين يتسم بالجمود فلم يكونوا يعرفون الدين ولا يفهمون للمتدين معنى، وهو ما أدى بهم في نهاية المطاف الى أن يرتكبوا تلك الجريمة البشعة باراقتهم لدم عليّ هذا المثال الانساني الكامل الذي ستبق البشرية عاجزة عن الاتيان بعثله، وبذلك كانت الخاتمة للحياة السياسية لامير المؤمنين.

ان مثل هذه النتيجة -وكما توقعها الامام- كانت هي المآل الطبيعي لمجتمع خرج عن مساره الاوّل، واضحى اشبه ما يكون ببناء دعائمه منهارة وجدرانه متزلزلة بحيث ان المكث فيه يعد بحكم الاتتحار. ورغم ان الامام لم يكن قادرًا على التخلّي عن الساحة عند هجوم الناس على داره لأن ذلك كان بمنابع الاهمال لارادة الناس وعدم الاهتمام بطالبيهم، الاّ أنه فعل ذلك من اجل أن تبقى تلك التجربة، وليكون من جانب آخر قد ادى واجبه ومسؤوليته في الامامة. وان اصراره على عدم الاستجابة لارادة الناس هو اهم دليل لدينا على تكوين مثل هذه الرؤية بشأن حياة الامام في الحكم.

لقد كانت حصيلة هذه الحكومة هي بلورة المبادئ الاسلامية للسياسة التي ينبغي أن تطبق على المجتمعات البشرية في المستقبل وعندما تتاح لها الفرصة المناسبة . وقد كانت فيها -بلا شك- تجارب ودروس ضرورية لتسير على ضوئها الاجيال القادمة وتنأى بنفسها عن حب الدنيا وتلتزم طريق الاستقامة والتقوى وتنمسك بتطبيق الاحكام الالهية. فالخطب البلاغية في وصفه للمفسدين الظالمين

والخوارج والناكثين والمارقين، والكلمات القصار التي تتطوّي كل واحدة على عالم واسع من المشاعر والرؤى وتُعتبر باجمعها ارثاً ثقافياً ودينياً وسياسياً. وقد تكون هي اهم ثرة انتجتها خلافة امير المؤمنين التي دامت مدة خمس سنوات.

تحرّك الامام لاحياء الدين

حينما بدأت الفتوحات في اعقاب وفاة النبي ﷺ، تركّزت مساعي الحكام آنذاك على السيطرة على اكبر مساحة ممكنة من الارض، وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية. ورغم الجهود التي بذلها المسلمون آنذاك في سبيل مواجهة الكفر والشرك، الا انهم -ولأسباب عديدة- لم يتمكّنوا وللأسف من التخلص من منحدر الانحرافات الدينية التي كانت شائعة آنذاك عن جهل أو عن قصد أحياناً. ولقد كانت هذه الانحرافات تتسع يوماً بعد آخر، وتهجر شّنة رسول الله ﷺ الى جانب كتاب الله، ويحل محلّها الرأي والبدعة التي اصطلح عليها بالبدعة الحسنة!

ولقد بدأ اهتمام الناس يتضاءل بهذه المسألة من اجل الحصول على الغنائم والوصول الى حالة الرفاه، وبدأت اصوات المعارضة ترتفع فقط، حينما شعروا ان الغنائم الحربية الهائلة توزّع على عائلة خليفة المسلمين عثمان في غيابهم! وكان من بين الناس اشخاص واعوان ايضاً. وقد بدأوا بالتردد للتخلص من الظلم والاستبداد الذي لحقهم من ولاة الخليفة في الولايات والامصار المختلفة. وقد انضم اصحاب علي طليلاً الى هذه الحركة ايضاً من اجل تحقيق اهدافهم المتمثلة بتطبيق الاسلام الحقيق.

ولما جلس امير المؤمنين على كرسي الامامة والخلافة، تركّز جلّ اهتمامه -كما اشير الى ذلك فيما سبق- على اصلاح الفساد الداخلي. ولو صرفاً النظر عن

الاصلاحات السياسية التي نتجت عنها الصراعات المشهورة في عهد الامام عليه السلام فإنه عليه السلام قد بدأ جهوداً حثيثة ايضاً في مجال الاصلاحات الدينية.

ولقد كان من ابرز الانحرافات الدينية هو زوال الرؤية الدينية، واضمحلال مشاعر التدين بين عامة الناس، الامر الذي ادى بهم الى السعي لا من أجل تحقيق اهداف الدين المبين، بل لاجل الحصول على اكبر حصة ممكنة من بيت المال، وتنظيم شكل وماهية حياتهم ضمن هذا السياق ايضاً.

ولقد صعد الامام من وتيرة خطبه العميقة الجامعة من اجل ازالة الدوافع غير الدينية وقد ركز في كلامه وخطبه البليغة المثيرة التي كان يلقاها في صلاة الجمعة او الموارد الاخري على التقوى، ويحث الناس على ضرورة عدم الانغماس في الدنيا، ويحذر طلاب الدنيا ويقرّعهم. ولو ان احداً اراد تدوين ثقافة التقوى لوجد أغنی مفاهيمها وكلماتها في رحاب نهج البلاغة. صحيح ان النصيحة والدعوة الى التقوى هي من المستلزمات المعروفة لكل خطبة وهي امر عادي ايضاً، الا ان كل هذا التأكيد من قبل الامام عليها، وكل هذه الاضاحات التي اوردها بشأنها، اما يدل على أنه كان يهدف بطرحها الى اصلاح مجتمع ملتوٍ بالدوافع غير الدينية، ولا يحمل شيئاً من هم الدين، بل همه الاكبر اكتساب المال وجمع الغنائم وقبض اكبر سهم ممكن من بيت المال.

وبالاضافة الى التقوى، يشتمل نهج البلاغة على قضايا كثيرة، وذات اهمية بالغة لفهم الدين، وتبیان الكثير من جوانبه، والخطب التي تتناول معرفة الله على درجة كبيرة من السعة، وذات عمق عقلي وعلمي، وهي جميلة وجمالها يشكل تلك الصورة الرائعة الجذابة لنهج البلاغة.

وقد سعى الامام عليه السلام في شتى الجوانب الدينية لاحياء القرآن وسنة رسول

الله ﷺ ولا جهاض السياسات الفكرية الخاصة التي ادت الى ظهور البدع واندثار السنن الالهية. فحينما قل التذاكر بالحديث امر الامام بتذاكره ونقله، ولما كان الآخرون يمنعون من تدوين الحديث لأسباب واهية، كان الامام ينادي من على المنبر: «من يشتري علمًا بدرهم»^(١). فاشترى حارت الاعور رقعة وكتب عليها: قال الامام: «يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل»^(٢).

وكذلك كان الحسن بن علي يوصي ابناءه بكتابه الحديث حتى وان مَرِّق الآخرون ما كانوا قد كتبوا.

وسنشير الى هذه القصة المأساوية في مكان آخر من الكتاب^(٣).
ولهذه الأسباب ايضاً تم تناقل الحديث الحقيقى لرسول الله ﷺ -الذى كان على لسان اهل البيت- بصورة مكتوبة، وبهذه الشاكلة بقى احاديث الشيعة في مأمنٍ من التحرير الذي طال احاديث اهل السنة. وحينما تغلغلت ثقافة اهل الكتاب الى المجتمع الاسلامي في قالب الاسرائيليات واتبع البعض اساليب خاصة في نشرها والترويج لها، ابرز الامام معارضته الصريحة وراح يحذّر الناس من اتباع ثقافة وتراث اهل الكتاب^(٤).

كان الامام يشير الى هذه الانحرافات بصرامة، ويرى في المجتمع الذي عاصره تجربة عصر المغاهيلية تتكرر فيه من جديد.

(١) التراثيب الادارية ج ٢ ص ٢٢.

(٢) تقييد العلم ص ٩٠، ربيع الاول ج ٣ ص ٢٢٦.

(٣) نشرية نور العلم، الاعداد ١١، ٩٠، ١٢، ١٣ من الدورة الثانية.

(٤) التراثيب الادارية، ج ١ ص ٧٦.

«ألا وان بلتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه»^(١).

وقال ايضاً في موضع آخر: «اعلموا انكم بعد أن هاجرتم عدتم الى روحيتكم البدوية، وبعد أن عقدتم او اصر الولاية بينكم اتبعدتم سبيلاً الفرقه .. ما تتعلقون من الاسلام الا باسمه، وما تعرفون من الاسلام الا رسمه.. الا وقد قطعتم قيد الاسلام، وعطّلتكم حدوده وأمّتم أحكامه»^(٢).

وهذه العبارة تعكس رؤية الامام ونظرته الى ذلك المجتمع، وتبّرّز العلل التي من اجلها سعى الامام الى احياء الدين، والتي تحدث الامام نفسه عنها قائلاً: «قد ركّزت فيكم راية الایمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام»^(٣).

وحينما كان ابو ذر تلميذ الرسول ﷺ وعليه السلام المخلص الذي ما اظلت السماء ولا اقلّت المخضراً اصدق لهجة منه، يزيد وصف الامام بكلام كان يقول: «علي زر الدين»^(٤) (اي قوامه).

وكان يقول للناس: «ستكون فتنة فإن ادركتمها فعليكم بكتاب الله وعلى زر الدين»^(٥).

والتلמיד الآخر لهذه المدرسة -الا وهو عمار بن ياسر- كان يتحدث عن النهج الذي سلكه علي عليه السلام. واصفاً أيّاه بالعبارة الرائعة التالية:

(١) نهج البلاغة -ص ٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٣ ص ١٧٩.

(٣) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٣.

(٤) الفائق في غريب الحديث ج ٢ ص ١٠٨.

(٥) انساب الاشراف -ج ١ -ص ١١٨.

«لو لم يعمل عملاً ولم يصنع شيئاً إلا أنه أحيى التكبيرتين عند السجود
لكان قد أصاب بذلك فضلاً عظيماً»^(١).

وهذه العبارة تشير الى ان اهم الاعمال في رأى علي واصحابه هي احياء
دين النبي ﷺ حتى ان عملاً كالذى ذكره عمار صار يعدّ من اعظم الانجازات
التي حققها الامام.

ولهذا السبب فقد قال عنه عمر وحسب معرفته به : «أني لأرى أن الله أن ولي
 شيئاً من امركم سيرحملكم على طريق الحق»^(٢).

وما يؤسف له أن الخليفة نفسه لم يكن يرضى أن يعذ الارضية التي تمكن
الامام من تطبيق آرائه عملياً. وفي مورد آخر لما اراد الحكم بين علي وخصم له،
فنادى علياً بكتيته واعتراض الامام عليه على مناداته له بكتيته بحضور خصمه
واحترامه بشكل لم يفعله مع خصمه قال عمر للامام: «بأبيكم هدانا الله وبكم
اخرجننا من الظلمات الى النور»^(٣).

لقد كان الامام شديداً في امر الدين، ولم يكن الدافع لذلك سوى حفظ
الدين في المجتمع اذ كان يقول : «والله لا ادهنت في ديني»^(٤).

وعندما كان اصحاب الامام يريدون وصف علي بالشعر كان يقولون عنه :

(١) انساب الاشراف - ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، مصنف ابن ابي شيبة ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) انساب الاشراف - ج ١ ص ٢١٤؛ ادب المفرد للبخاري ص ١٤٩.

(٣) الزمخشري - ربيع البار - ج ٣ ص ٥٩٥.

(٤) نهج السعادة - ج ٢ ص ٢٠٢.

اوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً

جزاك ربك عنا فيه احساناً^(١)

والحسن البصري رغم انه لم يكن يحمل نظرة ايجابية عن الامام، الا انه لما اراد وصف الامام بجملة قال : «أراهم السبيل واقام لهم الدين اذا اعوج»^(٢).

وهذا يظهر أن اهم الظروفات التي كان يرثىها ائمماً كانت تمثل فيما يقوم به من أعمال في سبيل احياء الدين، وكان يرى واجبه يتجسد في ابلاغ كامل سنة النبي ﷺ، ولذلك فانه كان ينادي بأعلى صوته : «والله ما أسمعكم الرسول شيئاً الا وها انا اذا مسمعتموه»^(٣).

وكان يرى نفسه منقذاً واعياً ومحلاً لسيرة الرسول ﷺ، وكان يقول عند رؤيته تردد بعض الناس : «لو غبت عنكم من يسير فيكم بهذه السيرة؟»^(٤).

ولهذا السبب ايضاً كان يؤكد على ايضاح سيرة الرسول ﷺ للناس في مختلف جوانب الحياة، وكان يطبق ذلك بين الناس باسم السنة^(٥).

وصلى ابو موسى خلف الامام علي عليهما السلام بعد ٢٥ عاماً من وفاة النبي ﷺ فقال : «ذكرنا ابن ابي طالب صلاة النبي ﷺ»^(٦).

ومن خلال امعان النظر في الشواهد السالفة يكن ان ندرك جيداً أن احد

(١) كشف الغمة - ص ٢٥.

(٢) مصنف ابن ابي شيبة ج ١٢ ص ٨٣.

(٣) نهج البلاغة ص ١٢٢.

(٤) المصنف لعبد الرزاق ج ١٠ ص ١٢٤.

(٥) نهج السعادة ج ٢ ص ١٠٠.

(٦) البخاري، التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٣.

اكثر الاعمال اهمية لدى الامام طوال حياته والتي يمكن اعتبارها سياسة وتعاملاً منطقياً مع مسائل الحياة هي حفظ اصول وفروع الدين وجعل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المحور الوحيد الذي تدور عليه مساعيه ومساعي عامة الناس.

البعد العلمي للامام علي عليه السلام

سمعنا كثيراً انه لا يوجد كلام بعد القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ ، مثل كلام امير المؤمنين. ويمكن معرفة مدى صحة هذا الادعاء من خلال مراجعة كتاب نهج البلاغة الذي لا يضم الا بعضاً من كلام امير المؤمنين.

فالقضايا التي تناولها الامام في مجالات معرفة الله ومعرفة الدين والشؤون الاجتماعية والسياسية وخاصة في باب علم الاخلاق؛ تُعد كل واحدة منها فريدة في جمالها ولا نظير لها في جمالها وروعتها، ويمكن الاستفادة منها في صياغة اطروحة اساسية لبلورة العقائد الدينية، ورسم الخطوط العريضة في السياسة الاسلامية، وتنظيم قواعد الاخلاق الدينية.

وقد اكّد صحابة النبي على هذه النقطة خلال حياته وطرحت بصور مختلفة، مثل: «علي اعلم الناس بالكتاب والسنّة»^(١).

وقد كان النبي ﷺ يعتمد على عليٍّ الى حد بعيد بحيث كان يأمره أن يعلم الوضوء والسنّة^(٢).

(١) المعيار والموازنة ص ١٠٢ ونقل عن عائشة انها قالت: «علي اعلم الناس بالسنّة» البخاري، التاريخ

الكبير ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٥٢.

ولم يكن قد بلغ مرحلة متقدمة من شبابه حتى ارسله النبي ﷺ لتولي القضاء في اليمن. وأكّد أحد الصحابة هذه القضية بقوله: «كنا نتحدث ان علياً اقضى اهل المدينة»^(١).

وقال ذلك الصحابي ايضاً: «اعلم اهل المدينة بالفرائض علي بن ابي طالب»^(٢).

وقال الامام علي طبلة: «نحن اهل البيت اعلم الناس بما قاله الله ورسوله»^(٣).

قال: «فما نسبت حديثاً او شيئاً سمعته من رسول الله»^(٤).
وكان يقول ايضاً: «والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيما نزلت وain نزلت»^(٥).

وكان عبدالله بن عباس يقول، وهو ذو المنزلة السامية بين المحدثين: «اذا حدثنا ثقة عن علي بفتيا لم نعدّها»^(٦).

وكان الامام يرى نفسه في درجة من العلم بحيث يقول: «سلوني عن كتاب الله فاته ليس آية الا وقد عرفت أبليل نزلت ام بنهار، في سهل او جبل»^(٧).

(١) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٧ . والاستيعاب - ج ١ ص ٩ - الطبقات . ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) انساب الاشراف ج ١ ص ١١٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٤) انساب الاشراف ج ١ ص ١٢١ .

(٥) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٩ ، حلية الاولياء - ج ١ ص ٦٧ .

(٦) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٩ .

(٧) انساب الاشراف ج ١ ص ٩٩ .

وكذلك كان علي يقول: «لو أردت أن أوقر على الفاتحة سبعين بعيراً لفعلت»^(١).

وكان مشهوراً بين العلماء منذ القديم بأن أحداً لا يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني» غير علي عليه السلام^(٢).

ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يعتبر الخليفة الثاني وطوال فترة خلافته علياً بثابة مرجعه العلمي ، مع انه لم يستفد من الامام كما ينبغي وهو مما يؤسف له طبعاً ، فقد كان عمر يقول: «لا ابقاني الله لمعضلة ليس بها ابو الحسن»^(٣).

ونقل بشكل متواتر عن الخليفة الثاني انه قيل لعمر من اين اعتمر فقال: «أئتِ علياً فاسأله»^(٤).

بالاضافة الى ذلك ، فالامام هو واضح علم النحو وهو من اهم الفروع الأدبية ، وهو العلم الذي اصبح فيما بعد من اكتر الجوانب ضرورة لصيانة القرآن من التحريفات النحوية .

والاقوال التي مر ذكرها لا تشكل الاً جزءاً ضيئلاً من الاعترافات التي ذكرت بشأن علم الامام عليه السلام ، ونحن طبعاً لسنا بصدده تقصي هذه الاقوال والعبارات هنا لكي نأتي على ذكرها باجمعها . ولو لم تكن اي من الاقوال السابقة موجودة لكان قول رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «انا مدينة العلم وعلي بابها» وحده كافياً

(١) التراتيب الادارية . ج ٣ ص ١٨٣.

(٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ١٣٧.

(٣) الطبقات: ج ٢ ص ٣٣٩؛ أنساب الأشراف: ج ١ ص ١٠٠.

(٤) غريب الحديث ج ٣ ص ٤٠٦.

وهي رواية متواترة عند السنة والشيعة.

نمط حياة الامام عليه السلام

من المسلم به ان حياة الامام هي افضل افراط الحياة التي جربتها الانسانية على طوال فترة حياتها ولحد الان، حياة الانسان الكامل الذي يعتبر اكثر افراد البشرية واقعية والهيبة ومن الافراد النادرين الذين يليق اطلاق كلمة خليفة الله في الارض عليهم. وهي حياة جذابة الى ابعد الحدود بحيث صعدت بالمحب الى اقصى درجات المحبة واوصلت المبغض الى اقصى درجات البغض. وهي الشخصية التي قال عنها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «يا عليّ يهلك فيك رجلان، محب مفرط، ورجل مفرط»^(١).

فن يتبيّع له يتّنامي حب التشيع في قلبه حتى يبلغ حد الترفّ^(٢)، وان غفل عن نفسه اصبح عرضة لميول المغالاة وقلماً شوهد من نسب اليه الالوهية خلال حياته الا انّ الامام تعرض لمثل هذه النسبة في مجتمع تكررت فيه التأكيدات الالهية على الطبيعة البشرية لرسول الله، رغم تصدّي الامام العنيف لمثل هذه النسب والشبهات.

ومن المثل السامية في حياة الامام الزهد الذي طغى على كل حياته، الزهد الذي يعني الاعراض عن كلّ ما في العالم في الوقت الذي يكون مالكاً له باسره، الزهد الذي يرجح القناعة، ويجعل الصبر ذلولاً خاضعاً له امام المشاكل والصعاب.

(١) المعيار والموازنة ص ٢٣ ويقول عليه السلام في نهج البلاغة: هلك في اثنان محب غال ومبغض قال.

(٢) اذا صار الشخص شيعة يزداد حتى يرفض. رك: المعيار والموازنة ص ٢٣.

تحدّث جماعة عند عمر بن عبد العزيز عن الزهاد، وتساءلوا عن ازهد الناس فعدّ بعض الحاضرين اشخاصاً من جملتهم أبو ذر، فقال عمر بن عبد العزيز: «أزهد الناس علي بن أبي طالب طالب^(١)».«

كان الإمام يجمع الفقراء حوله ويعاملهم برفق واحسان^(٢)، وفي كثير من الأحيان كان يأتي إلى الصلوة ويخطب الناس ولا زال رداءه الوحيد يقطر ماء^(٣) وهو على بدنه.

وبينما كان هو على رأس السلطة، والاموال الطائلة المتأتية من الضرائب المختلفة وخرج الاراضي الشاسعة تتدفق على خزائن بيت المال من كل صوب، كان هو يتناول ابسط الاطعمة، حتى قيل له: «بالعراق تصنع هذا؟ العراق اكثراً خيراً وطعاماً».

الا أن ذلك كان يُعدّ من المناقب بالنسبة للإمام^(٤). اذ كان يقول: «انا الذي اهنت الدنيا»^(٥).

وعندما كان يقسم بيت المال على المسلمين لم يكن يأخذ لنفسه شيئاً، وكان يعود إلى داره خالي اليدين، حتى ان بعض الناس كان يتردد هل يعتبره ازهد الناس أم انه^(٦).. فكان حقاً خير مصدق لقوله: «خير القول ما صدقه العمل»^(٧).

(١) المعيار والموازنة ص ٢٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٤٠.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٤١.

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢٤٩.

(٥) حياة الصحابة ج ٢ - ص ٣١٠.

(٦) الغارات - ج ١ ص ٥٥.

يقول اسود بن قيس: «كان عليٌ يُطعم الناس بالكوفة الخبز واللحم وكان له طعام على حدة. فقال قائل من الناس لو نظرنا الى طعام امير المؤمنين ما هو؟ فأشرفوا عليه فاذا طعامه ثريده بزيت مكللة بالعجوة، وكان ذلك طعامه، وكانت العجوة تُحمل اليه من المدينة»^(٨).

ويقول عقبة بن علقمة: «دخلت على عليٍ فاذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته، وكسر يابسة، فقلت: يا امير المؤمنين أناكل مثل هذا؟ فقال لي: يا ابا الجنوب رأيت رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا ويلبس اخشن من هذا، (واشار الى ثيابه) فان أنا لم أخذ بما أخذ به خفت ان لا الحق به»^(٩).

وجاء عن عدي بن ثابت انه قال: «اتي عليٌ بفالوذج فأبى أن يأكله»^(١٠).

واورد ابو اسحق الثقي صفحات كثيرة من كتاب الغارات خصصها لذكر الامثلة الدالة على زهد عليٍ في الملبس والأكل والتعامل مع بيت المال وعدم الاسراف في القضايا الاقتصادية ورعايته لحدود الله بدقة.

لقد كانت شخصية الامام من السمو والرقة حتى ان معاوية كان يثنى عليه ايضاً في مجالسه الخاصة^(١١).

(٧) الغارات - ج ١ ص ٢٤٩.

(٨) انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٧ - ر. ك الغارات ج ١ ص ٨٥-٨٧-٨٨.

(٩) الغارات - ج ١ ص ٨٥.

(١٠) الغارات - ج ١ ص ٨٨.

(١١) ابن عدي - الكامل في ضعفاء الرجال - ج ٥ ص ٢٤-١٨.

يقول ابو سعيد الخدري: «حضر الرسول ﷺ جنازة احد الانصار، وقال:
هل عليه دين؟ قالوا: بلى: فرجع الرسول ﷺ. فقال له علي عليه السلام: انا اضمن
دينه، فقال له النبي ﷺ: فك الله رقبتك كما فككت عن اخيك المسلم»^(١).

أجل هكذا كان عليٌ يتصرف في ماله الخاص، ولم يكن مستعداً لاعطاء
اقل مبلغ لاقرب شيعته ما لم يكن له بحق^(٢).

(١) الزمخشري، ربيع الابرار ج ٢ ص ٦١٩.

(٢) ربيع الابرار ج ٣ ص ٧٧.

الأمام الحسن عليه السلام

قيل للحسن بن علي: «فيك عظمة . قال: لا بل عزة
قال الله تعالى: فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين»^(١)

ويدور الحديث عن مظلوم آخر من اهل بيت النبي ﷺ ، وهو المظلوم الذي طالما تعرض الى ظلم التاريخ وعدم دقته ، اذ بقيت الخطوط العامة لسياسته في فترة حكمته القصيرة واستشهاده محاطة بهالة من الغموض والابهام نتيجة للدعایات المغرضة التي اشاعها الحكام الامويون اعداء الانسانية والاسلام ودسائس علماء السوء المأجورين او المغفلين .

في رواية ان امير المؤمنين ع اراد في يوم ولادة الحسن ع ان يسميه (حرباً) لكن النبي عارضه وقال: ما شأنه وال الحرب؟ هو حسن»^(٢) .

(١) ربيع الاول ١٧٧ ص ٣

(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى ، ترجمة الحسن بن علي . تراثنا العدد ١١ ص ١٢٨ .

ان استعمال مثل هذا التعبير قد يعرض شخصية علي عليه السلام للاستفسار من عدّة جوانب ومن جملة ذلك انه :

لم يكن مقاتلاً شجاعاً بل كانت طبيعته ممزوجة بحب الحرب، وكان مبدئياً ذا شخصية ميالة للعنف وتشتم بحب المخاطرة (كما نقل هذا الرأي عن الجاحظ).

انه لمن السذاجة حقاً ان نتصور ان الامام كانت له حقيقة مثل هذه الشخصية لأن عطفه وانسانيته التي اعطت لتاريخ البشرية جمالاً خاصاً لا تتسمج مع مثل هذه الاوصاف السقيمة حيث كان في ميدان الوعى محارباً شجاعاً لكنه كان شديد التسامح والعفو مع عدوه المهزوم، ويجلب للارامل واليتامى الطعام ويشاطرهم الحزن ويحمل همّهم و... وهذا من عجائب الخلق ان تجتمع في شخص واحد مثل هذه الصفات المضادة ولا تغلب على شخصيته صفة واحدة منها (فالجاحظ) وامثاله لم يتمكنوا من التخلص من تأثير وجهة النظر التي وضعها بنو امية امام انصارهم، ولذلك لم يستطيعوا تقديم وصف صحيح عن شخصية كشخصية امير المؤمنين، خاصة وانهم قالوا انه تمسك بنفس الموقف ازاء تسمية الامام الحسين عليه السلام.

تربي الحسن في حجر رسول عظيم كرسول الله عليه السلام واب وام كعلي عليه السلام والزهراء عليها السلام وكان النبي يعتبره وابا الحسين كأبنائه وكان يؤكّد على ذلك ايا تأكيد، ويتحدث عنه بمنتهى الصراحة بحيث لا يبق هنالك ايّ مجال امام الدعايات^(١) المضادة لأهل البيت التي يبتهها ويروّجها ادعية الخلافة كبني امية وبني العباس ولكي لا يتمكن محترفو السياسة هؤلاء من المساس او الامساك الى

(١) العلّامة السيد جعفر مرتضى العاملبي، الحياة السياسية للامام الحسن، ص ٢٧ وما بعدها.

اسمي واقوى الوسائل الروحية والنسبية التي تربط بين امير المؤمنين عليه السلام والحسينين عليهم السلام برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ولكن لا يمكن امثال هؤلاء من اخراج محنة اهل البيت من قلوب الناس. فحضوره واخوه الحسين في المباهلة واستعمال كلمة (ابناءنا)^(١) بشأنها يعتبر وثيقة فخر واعتزاز اخرى لهم، وشهادة تعكس قداستها الذاتية.

ونزول آية التطهير بشأنهم النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين- تأكيداً آخر يثبت نفس تلك الحقيقة ويؤكدها، كما كان الامام يؤكدها ايضاً^(٢).
واما من حيث الشكل فانه كما ذكر انس بن مالك، لم يكن أحد من اهل البيت اشبه منه برسول الله صلوات الله وسلامه عليه^(٣).

وقد استخدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الطف وارق التعبير في مدحه، وكان يحبه الى درجة كبيرة حتى ان اعداء اهل البيت كانوا اذا تذكروا معاملة رسول الله له تملكهم احترام عميق له وبيان عليهم الموضع امامه.

يقول عمير بن اسحق: «رأيت أبا هريرة التقي بالحسن بن علي عليه السلام فقال له: اكشف لي بطنه حتى أقبل حيث رأيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقبل منه، قال: فكشف عن بطنه فقبله»^(٤).

هذا السلوك من ابي هريرة وامثاله لا يُعتبر امراً غريباً اذا اخذنا بنظر

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) ابن سعد - الطبقات ص ١٦٧؛ الاربلي - كشف الغمة ج ١ ص ٥٣٨.

(٣) تاريخ ابي زرعة الدمشقي، ج ٢ ص ٥٨٧.

(٤) مسند احمد - ج ٢ ص ٤٢٧ و ٤٤٨؛ والطبراني في المعجم الكبير ج ٣ ص ١٩ رقم ٢٦٩٠.

الاعتبار الحب الذي كان يبديه له النبي.

فقد قال عنه النبي ﷺ: «لو كان العقل رجلاً لكان الحسن»^(١).

ولم يكن تكريم الرسول ﷺ لهذين الأخرين ناتجاً عن القرابة النسبية، بل ان احترام النبي ﷺ ومداراته للحسن على اعين الناس من على المنبر وفي وسط الصلاة (عندما كان الحسن في دور الطفولة صعد على ظهر النبي أثناء الصلاة وهو في حالة السجود فصبر النبي حتى نزل من على ظهره من تلقاء ذاته) كان له هدف خاص، هو اثبات احقيه الحسن واهل بيته في خلافة النبي وقيادة الامة الاسلامية من بعده.

ولما كان الامام الحسن علیه السلام يخطب من على المنبر بعد استشهاد امير المؤمنين علیه السلام وكان بحاجة الى محفز يحث الناس على بيعته، قام رجل من قبيلة الازد وصاح: «رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن في حبوته وهو يقول: من أحبني فليحبه وللبيغ الشاهد منكم الغائب ولو لا عزمه رسول الله علیه السلام ما حدثت احداً شيئاً ثم قعد»^(٢).

من المؤكد أن هذا الحديث كان احد الدوافع وراء مبaitته الا ان الناس قد قصرروا فيما بعد في الدفاع عنه لأسباب سنشير اليها في محلها^(٣).

وبغض النظر عن محبة امير المؤمنين علیه السلام للامام المجتبى باعتباره ولده، فهو

(١) فرائد السبطين - ج ٢ ص ٦٨.

(٢) البخاري - التاريخ الكبير ج ٢ ص ٤٢٨، مسند احمد بن حنبل ج ٥ ص ٣٦٦.

(٣) الروايات الواردة في فضله كثيرة ولا داعي لذكرها هنا بأجمعها، يمكن مراجعتها لمن يشاء في مطانها.

كان ينظر اليه والى اخيه على أن في بقائهما امتداداً لنسل رسول الله ﷺ ، فلم يكن يسمح في المروء بأن يتعرضا لظرف يهدد حياتهما بالخطر، في وقت كان هو يخوض الحرب في قلب جيش العدو^(١).

المشاركة في حروب الجمل وصفين والنهر والنهر وان

من المشاهد المهمة التي اقترنت بالظهور السياسي للامام في المجتمع هي مشاركته الفعالة في حرب الناكرين. فقد بعثه امير المؤمنين علیه السلام كممثل عنه الى الكوفة^(٢) لكي يعلم الناس هناك بخروج الناكرين على حكومة الحق ويدعوهم للمشاركة الفعالة في تصدی امير المؤمنين لاصحاب الجمل. وأول ما قام به الامام انه عزل ابا موسى الاشعري الذي كان يثبط الناس عن قبول دعوة امير المؤمنين علیه السلام بحجة حقن الدماء. ثم القى علیه خطبة مثيرة اججت مشاعر الناس فحشد عشرة آلاف رجل من اهالي الكوفة للمشاركة في الحرب.

وفي صفين كان الامام الحسن علیه السلام ايضاً احد المقاتلين الذين ابدوا نشاطاً منقطع النظير في إثارة الناس ضد القاسطين. فقد خطب مرّة بجيش الكوفة يحثّهم على الحرب والثبات فيها حيث قال فيها:

«فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجندوه فإنه قد حضر، ولا تخذلوا
فأن الخذلان يقطع نيات القلوب»^(٣).

ورغم هذه المواقف الصريمة من قبل الامام في مقابل عثمانيي الجمل وصفين

(١) ر.ك. ربيع الباراج ٣ ص ٥٣٧.

(٢) نصر بن مزاحم - وقعة صفين ص ١٥.

(٣) نصر بن مزاحم - وقعة صفين - ص ١١٤.

فإن المؤرخين والمحققين الذين سعوا في جعل الأب والابن بواجهة بعضهما الآخر وتشويه موقف أحدهما من خلال التشكيك بموقف الآخر، حيث سعوا إلى اظهار سياسة الامام وكأنها معارضة للسياسة التي كان ينتهجها الأب، وذلك لاظهار الابن شخصية ضعيفة من جهة، والادعاء بأن الأب شخص سفاح متير للحروب من جهة أخرى. فزعموا أنه أهتم أباه بالاشتراك في قتل عثمان^(١)، في حين أن جميع الشواهد التاريخية تصرح بأن الامام الحسن عليه السلام أخذ الماء إلى عثمان بأمر من أبيه، وأنه قد ذهب برفقة أخيه الحسين عليهما السلام وعدد من أبناء كبار الصحابة لحماية عثمان والوقوف امام داره لمنع الناس من الهجوم عليها -كما كتبوا ذلك هم أنفسهم- وان أباه عاتبه لعدم تمكنه من منع ازدحام الناس الذي نتج عنه مقتل عثمان.

ان التلاعب في تاريخ مثل هذه الشخصيات -الناشئ من الثقافة الاموية المغالية- قد استغل هنا في قضية الصلح مع معاوية، اذ حاولوا ومن خلال نقل جملٍ كاذبة وتعتمد الكثير من التحرير والتزوير، والاستفادة من ذلك في سياق نفس التحليل الذي مر ذكره.

و سنشير خلال هذا البحث إلى ذلك الصلح المفروض ومظلومية الامام فيه.

كما انهم استندوا إلى مجموعة من الجمل والاقوال التي نسبوها إلى النبي عليهما السلام مثل: «الحسن مني والحسين من علي»^(٢) وسعوا من خلالها إلى وضع الامام الحسن عليه السلام إلى جانب النبي عليهما السلام، ووضع الحسين عليه السلام -الذي وقف بوجه حكومة يزيد الاموية وصنع ملحمة كربلاء الخالدة- إلى جانب الامام علي عليه السلام الذي واجه مجرماً كبيراً في تاريخ الانسانية، هو معاوية. وبهذا يلوّحون إلى ان

(١) ر. ك. البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ١٢ تحقيق المحمودي، طبعة بيروت.

(٢) ذخائر العقبي ص ١٣٢.

الخط السياسي للنبي ﷺ مختلف -بل قد يتعارض- مع الخط السياسي الذي سار عليه علي عليهما السلام! وكتبا ايضاً: ان الامام الحسين قال لأخيه: «يا ليت قلبي كان لك ولسانك لي»^(١).

ولابد أن القارئ الكريم يدرك ان هذه الجملة ايضاً تظهر بعدها آخر من النظرة المنحرفة عن الامام الحسن عليهما السلام.

وسنرى من خلال مواصلة البحث بأن الابن كان في نفس المسار الذي انتهجه الأب، ولكنه اضطر لنفس الاسباب التي جعلت الأب في السنة الاخيرة من حكمته يشاهد تجاوزات معاوية على العراق والمحجاز واليمن ولا يبدي اي رد فعل تجاهها -إلى الكف عن المطالبة بالحكم والتوجه إلى المدينة وحيداً.

ومن جهة أخرى كان من الضروري اعطاء فرصة لمعاوية الذي حصل على بعض الواجهة نتيجة الدعاية والضجة المفتعلة التي اثارها اعداء امير المؤمنين عليهما السلام لكي يتولى زمام الامور كحاكم بلا منازع وليكشف بعد ذلك القناع عن وجهه الاموي الكريه، ويعلم المسلمون مدى خطورة هذا العدو الذي يتباكي على الاسلام ويتظاهر بالحرص على ادارة البلاد وراحة العباد، وانه لا يقل خطورة عن شخصية ابي سفيان الذي كان يشكل عائقاً امام انتشار الاسلام واقامة دولته، والاحاديث المؤلمة التي احدثها للاسلام وال المسلمين مثل بدر وأحد و...

مسؤولية الامامة

استشهد امير المؤمنين عليهما السلام في وقت كانت تمر فيه الكوفة باصعب الظروف.

(١) الاربلي، كشف الغمة، ج ٢ ص ٢٤٣.

فرغم ان اهل الكوفة انتصروا على اهل البصرة بعد منافسة طويلة فيما بينها، الا انه لم يمض وقت طويل حتى تعرضوا للهزيمة والمهانة في صفين رغم ما ابدوه من شجاعة فائقة، ولم يكن بينهم وبين النصر آنذاك سوى خطوة واحدة ولكنهم اغتروا بخدعة العدو. فكانت الهزيمة امام اهل الشام وهي البلاد التي بقيت خصماً منافساً للكوفة مدة ليست بالقصيرة. وبعد أن كانت الكوفة تحارب الشام وعلى رأسها معاوية (رمز الجاهلية) من اجل الاسلام الحقيقى وتطبيقه اصبحت بعد مدة تقبل وجودها بل وتتقبل تفوقها ايضاً وذلك بسبب الضعف الذى اصابها.

وكانت تلك بداية لمرحلة جديدة، فقد ظهرت نتيجة الضغط النفسي والشعور بالحقاره عند اهل الكوفة فرقه منحرفة ومعاندة تدعى بالخوارج، وهم الذين اصروا على الامام بوجوب قبول التحكيم الذي اقترحه معاوية، الا انهم عندما رأوا انعكاسات عملهم، جعلوا امير المؤمنين عرضة للانتقادات والاعتراضات والتهم الغادرة، فكانت النتيجة ان واجه بعضهم بعضاً وتقاتلوا بكل ما لديهم من اسلحة، وبهذا نزلت ضربة أخرى اخلت بالانسجام الذي كان يسود الكوفة.

وفي مثل هذه الظروف فقدت الكوفة قدرتها تماماً على الاستمرار في الصراع، وكلما الحَّ عليهم امير المؤمنين عليهما بضرورة التهَّيُّؤ لمقاتلة معاوية واحتثاث هذه الغدة السرطانية من جسد الاسلام المقدس، لم تظهر منهم اية رغبة بل لم يكونوا مستعدين للدفاع حتى عن العراق ايضاً. فقد كان ولاة معاوية وقادة جيشه يغدون على العراق باستمرار، لكن اهل الكوفة لم يكونوا يبدون اي رد فعل بازاء ذلك. فلا نصائح الامام ولا تقريره اثر فيهم وأعادهم الى رشدهم، لأن تراخي اهل الكوفة وسذاجتهم هو الذي اوصلهم الى هذه الدرجة من الضعف

والانهيار النفسي وشلّهم عن القيام بأيّ عمل.

وفي مثل هذه الظروف المريمة في الكوفة استشهد الامام. ورغم ان مظلومية هذا الاستشهاد قد اثار عاصفة في المجتمع. الا أن الكوفة وسبب اختلاف ولا ابابالية اهلها لم تتأثر كثيراً بتلك العاصفة. وصار معاوية وجيش الشام كالكافوس الذي سلب من اهل العراق قلوبهم وعقولهم، حتى ان الجسد الطاهر لأمير المؤمنين عليهما السلام دُفن سراً، وظل مكان دفنه مخفياً عن الجميع الى أن كشف أئمة الشيعة عنه، ودلوا الناس عليه.

لقد اثارت تلك المظلومية موجة بين اهل الكوفة، فالعراق وان اصبح في حالة شديدة من الضعف الا انه لم يخضع لسلطة الشام بهذه البساطة، وكان يعتبر ذلك عاراً عليه لا يكفيه الرضوخ له بسهولة. لذا فانهم اجتمعوا وشكلوا قوة لفتت الانظار اليها، ثم راح اهل الكوفة يبحثون عن قائد يبايعونه حتى ينفذ البراجم التي استثنى امير المؤمنين عليهما السلام، وينتهج نفس السياسة التي كان قد ابتدأها. ولم يكن من احد يعتليك مؤهلات مواصلة هذا الطريق سوى ابن الامام علي عليهما السلام، فبايعوه واشترطوا البيعة له بمواصلة الحرب ضد معاوية. وحيث أن الامام كان قد جرّبهم في السابق فقد قبل البيعة بشرط ان يعمل بما يرى فيه الصلاح، وان لا يرفع احد عقيرته بالاعتراض حتى وان اضطرته الظروف لقبول الصلح مع معاوية.

وفي هذه المرة ايضاً اتخذ اهل العراق قرارهم بجزمٍ وجذّ في الوهلة الاولى ولكنهم سرعان ما تراجعوا عن قرارهم كما هو شأنهم دائماً وتقبلوا وبكل بساطة ذلك العار الذي أبوا قبوله.

ولو تقدّمنا قليلاً الى الامام لرأينا أن مبايعة الامام قد تمت بسبب ما للناس من معرفة به في قيادة المجتمع، وفضلاً عن ذلك فالدافع الاساسي الكامن وراء

تلك البيعة هو التأكيدات المتكررة من قبل الرسول ﷺ والامام علي عليهما السلام بشأن امامته وجدارته بالقيادة.

فقد كان رسول الله ﷺ قال عنه وعن أخيه: «الحسن والحسين إمامان قاماً أو قعداً»^(١).

وامير المؤمنين عليهما السلام عينه خليفة له من بعده، كما قال هو في رسالة بعثها إلى معاوية: «فإن أمير المؤمنين عليهما السلام نزل به الموت ولواني هذا الأمر من بعده»^(٢).

ولما دعا عبدالله بن عباس الناس إلى مبايعته قال: «هذا ابن بنت نبيكم ووصي امامكم فبأيده»^(٣).

واستند جماعة من وجهاه الكوفة عند اراده مبايعته إلى كونه وصي ابيه وخليفته وقالوا له: «أنت خليفة أبيك ووصييه، ونحن السامعون المطيعون»^(٤).

الاقوال المذكورة فيها سبق هي مجرد أمثلة للشواهد التي تدل على أن امامه الحسن انا كانت من قبل ابيه واعتباره وصيأ له^(٥).

ومنذ اليوم التالي للبيعة، باشر الامام مهمته الاساسية في اعداد الناس لمواجهة القاسطين.

(١) الأربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ١٥٩، الشيخ المفید، الارشاد ص ٢١٠.

(٢) الاصفهاني، مقاتل الطالبيين ص ٥٥. المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٢.

(٣) الاصفهاني، مقاتل الطالبيين ص ٣٤، الطبرسي اعلام الورى ص ٢٠٩.

(٤) العلامة المجلسي، بحار الانوار ج ٤٤ ص ٤٣.

(٥) انظر كتاب (الحياة السياسية للأمام الحسن) تأليف السيد جعفر مرتضى العاملي ص ٤٧ وما بعدها.

رغبة الامام القاطعة في محاربة معاوية رغم الموقف الضعيف لاهل العراق

كانت اهم قضية بالنسبة لللام واهل العراق هي الموقف ازاء معاوية ومحاربته. فانفصال الاقاليم الاسلامية عن بعضها لم يكن له مفهوم آنذاك، ووحدة الاراضي الاسلامية كان امراً مسلماً به في رأي كل مسلم. فلم يكن بامكان العراق الانفصال عن الشام، ولا الشام عن العراق أو مصر والمحجaz، لذا كان من المحمّ حل مسألة المحاكمية المطلقة على البلدان الاسلامية.

فن الناحية الدينية، كان معاوية في نظر الامام وشيعته عنصراً فاسداً يجب ازاحته عن سدة الحكم، وهو العمل الذي كان يعتبره امير المؤمنين عليه اهم واجب امامه منذ توليه لزمام امور المسلمين حيث جعله في رأس قائمة براجمه. فقد كان الامام علي عليه يخير المسلمين ما بين محاربة معاوية او الكفر بما انزل الله. ولابد ان تكون هذه السياسة مثالاً يحتذى به بالنسبة لابنه وشيعته ايضاً، ومثل هذا التكليف انا يجب على الامام انجازه فيما لو كانت لديه القدرة والظروف المناسبة للقيام به.

ومن ناحية الخلافة فان المهاجرين والانصار من وجهة العرف السياسي المقبول يومذاك - هم الذين كان عليهم ان يعينوا الخليفة. وقد صوّتوا لعلي عليه السلام. وكان اكثر الانصار وجماعة من المهاجرين قد بايعوا الامام الحسن عليه السلام الذي كان وقتها في الكوفة. لذا كان معاوية يُعتبر من الناحية العملية باغياً. واما من ناحية المفاهيم والمعايير السائدة والمقبولة آنذاك لم تكن في يده أية ورقة راجحة لذا كان ينبغي تحديد مصيره.

اضافة الى ذلك، فان اهل العراق كانوا على علم بان معاوية بقصد الهيمنة على منصب الخلافة وان الاحوال والاوپاع السائدة حينها لم تكن في صالحه،

وكان يتّحّم عليه القيام بعدّة خطوات في هذا المجال. وتصور مثل هذا الأمر كان مرفوضاً بشدة من قبل أهل العراق، ولا ريب أن انتصار أهل الشام على الكوفة كان يعد هزيمة بالنسبة لأهل الكوفة، بل يعني تعرّضهم للانتقام على يد أهل الشام.

ومثل هذه الأمور أدّت إلى أن تتعقد حكومة الإمام الحسن عليه السلام ومنذ يومها الأول على موضوع الحرب لاسيما وإن بعض الذين بايعوه كانوا من الخارج وكانوا يصرّون بشدة على الحرب، ويقولون بوجود علاقة لا تقبل الانفصام بين الحكومة وال الحرب.

ورغم أن الأمور كانت تسير على ما ينبغي حسب الظاهر، إلا أن باطن المجتمع - وللأسف - كان يعاني من متابعة خاصة تراقصها ميول انحرافية في الأبعاد الفكرية والاجتماعية. وهذا السبب لم يكن يمتلك القدرة الكافية لاتخاذ قرار حاسم بشأن الحرب. فقد كان هذا الظاهر والباطن المتناقض يسير في اتجاه معاكس لبعضه الآخر اذ بنفس السرعة التي بويع فيها الإمام الحسن عليه السلام قتلت مبايعة معاوية أيضاً بسرعة أكبر وعلى نطاق أوسع.

ومنذ الوهلة الأولى لمباشرة الإمام الحسن عليه السلام لهام حكومته، ورغم معرفته التامة لطبيعة و Maher معاوية، إلا انه بدأ يتعامل مع الأمور بما يتّطابق و سياساته الدينية فابتدأ بدعوته إياه للكفّ عن التجاوز والعدوان واعلان الطاعة لحكومته الشرعية.

واشار الإمام في نفس تلك الرسالة إلى اختلاف الأمة حول مسألة الامامة بعد رحلة النبي الكريم صلوات الله عليه وآله وسالم وانه هو وشيعته يعتبرون الحكومات السابقة غير شرعية وان مثل هذا المنصب حق محصور باهل بيت النبي، وانهم اغا سكتوا عن

هذا الامر فلمصالح خاصة، وان عمل معاوية هذا لا يعدو ان يكون تجاوزاً على الحق البديري لاهل البيت وبعد اظهار العجب من هذا التجاوز طلب اليه اعلان البيعة وهدّده ان هو لم يبايع ولم يدخل في الطاعة فانه سيتوجه اليه ويقاتلته بكل ما لديه من امكانيات.

وكتب معاوية ردأً على رسالة الإمام، واستند في رسالته الى ارائه الجاهلية وتعلل فيها بكبر سنّه وانه ادق رؤية من الإمام الحسن في المسائل السياسية ودعاه الى بيعته واضاف في ختام رسالته: «إنّ امري وامرک شبيه بامر ابی بکر وامرکم بعد وفاة رسول الله ﷺ»^(١).

وكان من الطبيعي أن لا ينتهي مثل هذا الاختلاف المتجذر بمثل هذا الاسلوب بل كان لابد من مواجهة حاسمة تتقرر على ضوئها الامور في ساحة الوعى. لذلك باشر الإمام الحسن عليه السلام بعزم راسخ باستجواب وتحشيد قواه لمواجهة القاسطين. وكتب معاوية الى عماله في الولايات وطلب فيها منهم ترويده بالمقاتلين لكي يستغل الوضع المضطرب في العراق ويهجم على الكوفة ويسيطر عليها ويسقط حكومة الإمام الحسن عليه السلام. وكان لدى معاوية فئة كبيرة ومنظمة من العيون والجواسيس موزعة في جميع ارجاء البلاد الإسلامية، وكان يحصل من خلال هذه الشبكة قطعاً على المعلومات والاخبار الدقيقة عن اوضاع العراق.

حركة اهل العراق البطئية لمحاربة القاسطين:

انّ اهل الكوفة وان بايعوا الإمام الحسن عليه السلام بعيد استشهاد الإمام على عليه السلام

(١) البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ٣١ طبعة محمودي.

واضطراب الاوضاع في تلك الأيام خوفاً من هجوم جيش الشام، لكنهم صنعوا به ما صنعواه من قبل بالامام علي عليهما السلام حيث التزموا الجلوس في بيوتهم رغم تحذيراته المتكررة وتقريره المتواتي لهم، ولم يبدر منهم اي رد فعل مناسب. فعندما دعاهم الامام الحسن عليهما السلام للاستعداد لمحاربة معاوية لم يلتفت احد نداءه^(١) حتى توجه عدي ابن حاتم الى المعسكر بفردءه فاضطررت جماعة من قبيلة طيء، والقبائل الاخرى الى اللحاق به.

ثم بعد العملية الاعلامية الواسعة والخطب المتكررة التي اوردها الامام، وبعد ذهابه الى النخيلة ورؤيته تقاعس اهل الكوفة، وبعد عودته الى الكوفة اجتمع اليه ما يقارب ١٢ ألف رجل في معسكر النخيلة فقط^(٢).

وقد كتب بعض المؤرخين: «بعد استشهاد امير المؤمنين عليهما السلام بايده اربعون الف رجل على محاربة معاوية، فاشتبه البعض الآخر عندما تصور ان هذا الرقم يمثل عدد المقاتلين الذين احتشدوا في معسكر النخيلة»^(٣).

والواقع هو ان هذا النقل مبالغ فيه ولا يمتاز بكثير من الصحة والدقة.

يكفيانا هنا القاء نظرة سريعة على كلمات الامام عليهما السلام وتقريره المتكرر لاهل الكوفة وتأكيده على وجوب التحشد من جديد، والهجوم على الشام لانهاء فتنة معاوية. لنرى كيف أنهم واجهوا هذه القضية المصيرية بعدم الالکتراث، وتجنبوا تلبية نداء الامام، ولم يبدوا اي موقف ايجابي ملموس. واذا افترضنا صحة ذلك

(١) ابو الفرج الاصفهاني - مقاتل الطالبيين - ص ٣٩.

(٢) اليعقوبي - تاريخ ج ٢ ص ٢١٤. الاصفهاني - مقاتل الطالبيين ص ٤٠. ابن عساكر - تاريخ دمشق ص ١٧٦.

(٣) الطبرى - تاريخ - ج ٢ ص ٩٤. ابن الاثير ج ٢ ص ٦١.

ايضاً فلا يوجد دليل على حضور مثل هذا العدد الى جانب الامام المجتبى، لا سيماء وان المؤرخين قد اشاروا الى أن ١٢ ألف رجل حضروا هناك.

واختار الامام عبيد الله بن عباس لقيادة الجيش، وقيس بن سعد بن عبادة كمعاون له وارسله لمقاتلة ما يربو على ٦٠ ألف مقاتل من جيش الشام، واقام هو في المدائن ليحشد اعداداً اخرى من المقاتلين.

وبما ان الامام وجيشه كانوا في معزٍ عن بعضها؛ فقد تمكّن معاوية من بث الاشاعات المضللة في كل منها وجعل احدهما يسيء الظن بالآخر. فقد اشيع بين جيش الامام ان الامام قد تصالح، وفي خضم احتدام مثل هذه الاقاويل والاشاعات دعا معاوية قادة جيش الامام للالتحاق به واستلام جائزة قدرها الف درهم^(١).

فاضطرّب جيش الامام بهذه الاشاعة ولا سيما مع وجود الظروف النفسية السيئة التي كان يعاني منها، وانعدام الدوافع المحفزة على القتال لديه، فانحدر صوب معاوية. وبقي فقط اربعة آلاف رجل الى جانب قيس بن سعد وثبتوا في وجه معاوية.

وفي هذه المرة حاول معاوية خداعه، لكن قيساً كان اكثر وعيّاً من ان يُخدع بمثل هذه الاشاعات او ينهاي امام مثل هذه الاغراءات التي عرضها عليه معاوية. وإضافة الى التأثير الكبير الذي تركه هروب جيش الامام صوب معاوية فان رسالته الذين تشرفوا بمقابلة الامام في المدائن وطلبوها منه الاستجابة للصلح وواجههم بالرفض قد اشاعوا -في طريق عودتهم- بين الناس بأن الامام قد قبل

(١) الشیخ المفید -الارشاد ص ١٧٠. ابن ابی الحدید شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ٤٢.

بالصلاح، وقد جعلت هذه الاشاعة الكاذبة^(١) الناس في حيرة من امرهم وجعلتهم في اتم الاستعداد لتقبّل معاوية.

وفي هذه الائتاء دارت على الألسن اشاعة^(٢) تفيد بقبول قيس بن سعد للصلح وهو قوّة المقاومة الوحيدة المتبقّية في مقابل معاوية، وكانت هذه بثابة الضربة القاضية وجّهت إلى الوضع النفسي المنهار في الكوفة، وقضت على رمق المقاومة النهائي لديه.

وفي مقابل هذه الاجواء وفي مثل هذه المواقف الخيانية لأهل العراق لم يجد الامام بدّاً من اعتزال الحكومة. فهو لم يعد قادرًا على القيام بأي عمل مؤثر في الوقت الذي لم يكن مَن يصرّ من الاصحاب على محاربة القاسطين سوى عدد ضئيل فقط. ولذلك عندما تقدّم معاوية إلى الامام بطلب الصلح عدّة مرات، اضطر الامام إلى قبول ذلك.

الصلح المفروض من قبل معاوية وتحليل أسبابه

ان سلوك اهل العراق مع الامام علي عليهما السلام في أواخر فترة حكمه، يعكس روحيتهم الضعيفة وعدم مقاومتهم وصمودهم في حرب طويلة الامد، وخاصة في حرب لا غنائم فيها، وتدور حولها شبّهات وتأولات منحرفة كان يثيرها اعداء امير المؤمنين عليهما السلام بين الناس وتكررت نفس تلك السلوكية مع الامام الحسن عليهما السلام ايضاً في فترة حكومته. فقد اظهر اهل الكوفة انهم لا يريدون قتال معاوية، وكان

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٤.

التحاق القبائل^(١) بمعاوية الواحدة تلو الاخرى قد اثبت ان ليس بامكان الامام الاتكال عليها، والقيام بعمل عسكري ضد معاوية.

ومن الواضح أنّ اي شعب يتعرض لحالة كهذه من الضعف لا يمكن لقائد ذلك الشعب القيام باي عمل فاعل. وسنحاول هنا نقل اسباب ودوافع هذا الصلح المفروض استناداً الى رأي الامام الحسن عليه السلام نفسه. فقد تطرق الامام الحسن ذات مرة الى سلوك اهل الكوفة مع ابيه وقصة مبايعته هو شخصياً فقال:

«سمعت اليوم ان اشرافكم ذهبوا الى معاوية وبابيعوه وهذا يكفيوني.

فأنتم الذين اكرهتم ابي يوم صفين على الحكمين»^(٢).

وقال في موضع آخر: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني اليه سلماً»^(٣).

وللامام ايضاً تعبير أخرى يشير فيها الى اهل العراق واصفاً اياهم بالناس الذين لا يمكن الوثوق بهم ويشير فيها ايضاً الى تجارب ابيه المريرة مع الكوفة^(٤).

وقد قام الامام المجتبى بدوره بحملة اعلامية شاملة لحثّ الناس على قتال العدو لكن نفوذه وتأثيره على الناس (على العكس مما قاله بعض المؤرخين) كان اضعف من ابيه. فاذا كان الامام علي عليه السلام غير قادر على اثارة الناس وتحفيزهم

(١) ابن الاعثم - الفتوح - ج ٤ ص ١٥٧ طبعة الهند. ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٤٣. البلاذري - الانساب ج ٢٩ ص ٢٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج ج ٢ ص ٩٠، العلامة المجلسي، البحار، ج ٤ ص ٢٠، البحريني، عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٧٥.

(٤) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠٥.

على الحرب، فكيف يمكن للإمام الحسن القيام بهذا العمل؟ وهل كان يجوز للإمام اللجوء إلى أساليب الخداع والمحيلة لاعتراض الناس لمحاربة القاطنين؟

لقد أشرنا قبل هذا^(١) خلال شرحتنا لخصائص أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينَ أنه ما كان يريد احراز النصر عن طريق الجور. فلو أراد هذان الرجلان العظيمان حشد الناس للحرب من خلال أساليب الاستبداد والقهر والتهديد فقد كان بيسورهما، ولكنها لم يرضا فعل ذلك.

فالحرب قضية تقوم على دعامتين: اجازة القائد، وموافقة الناس. ولذا نجد النبي ﷺ رغم ما كان يتمتع به من قبول اجتماعي قد ترك قرار الحرب في معركتي «بدر» و «أحد»^(٢) إلى رأي الناس ومشورتهم. وعندما رأى الإمام المجتبى أن الناس لا يميلون إلى الحرب حتى ان ثلثي الناس الذين كانوا يدعون الصمود إلى آخر لحظة التحقوا بمعاوية ليلاً اختيار الصلح. اذ ما الذي يمكن للإمام ان يفعله إذا كان الناس لا يريدون الحرب ولا يبدون اي حماس بشأنها؟

لقد كان الإمام نفسه راغباً في الحرب، الا ان تقل الحرب ينبغي ان تتحمله اكتاف الناس. ولما لم يكن الناس راغبين في الحرب، ولا قادرين على ادراك فلسفتها ومبانيها الفكرية في تلك الظروف المسمومة التي اوجدها معاوية وطبلوه الدعائية الاموية، فلا يمكن للقائد طبعاً القيام بأي عمل. وللإمام المجتبى عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينَ كلام جميل وبليغ في هذا المجال يحلل فيه ذلك الموضوع افضل تحليل فقد قال:

«أنا والله لا يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام

(١) ر. ك. الحياة الفكرية للإمام عليع في الصفحات السابقة.

(٢) العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من السيرة ج ٣ ص ١٤٥.

بالسلامة والصبر، فثبتت السلامة بالعدواة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم الى صفين امام دنياكم واصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم. الا وقد اصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تكون له، وقتل بالنهر وان طلبوه بثاره. واما الباقي فخاذل واما الباهي فثار. الا وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة. فان اردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عزوجل بظبي السيف، وان اردتم الحياة قبلناه واخذنا لكم الرضى، فناداه الناس من كل جانب البقية البقية وامضى الصلح»^(١) .

يتضح من الكلام السالف ذكره بأن الامام كان يؤكد على وجوب الحرب ولم تكن قضية حقن الدماء مطروحة باي شكل من الاشكال الا اذا افترضنا ان ارقة الدماء في مثل هذه الظروف لا تتطوی على النتيجة المطلوبة. والامر المسلمين به هو ان المانع من نشوب الحرب والدافع نحو قبول الصلح كان ارادة الناس التي كانت تمنع الامام من القيام باي عمل عسكري ضد القاسطين.

وقد اشار الامام الى هذا الموضوع ضمن تحليله لقضية الصلح فقال: «اني رأيت هؤلئك الناس في الصلح، وكرهوا الحرب فلم أحب أن احملهم على ما يكرهون»^(٢) .

وهذا تعبير آخر عن نفس ذلك الامر الذي اشار اليه امير المؤمنين عثيل

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٤٠٦، ابن عساكر نفس المصدر ص ١٧٨. ابن الاثير، اسد الغابة ج ٢ ص ١٤، ابن الجوزي، تذكرة الخواص ص ١٩٩. المجلسي البحار ج ٤٤ ص ٢١. البحرياني عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٧٩.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٢٠.

مرات ومرات^(١) وهو مبدأ اساس وثابت في التعامل السياسي للقائد مع جماهير الامة، ويقول ايضاً في موضع آخر: «والله إني سلّمت الأمر لأنّي لم أجد انصاراً ولو وجدت انصاراً لقاتلته ليلي ونهاراً حتى يحكم الله بيننا وبينكم»^(٢).

ووردت ايضاً في اقوال الامام التي يدافع فيها عن موقفه ازاء المعارضين عليه، نقطة أخرى تلقت الاهتمام الا وهي ان هذا الصلح اما قبل من أجل المحافظة على بقايا الشيعة، فخواص شيعة امير المؤمنين عليهما استشهد أغلبهم في معارك الجمل وصفين والنهر وان وبقيت منهم ثلاثة قليلة فقط. وان وقعت حرب جديدة -ومع الاخذ بنظر الاعتبار ضعف اهل العراق- فستتحقق بالامام الحسن وشيعته خسائر لا تعوض. لأنّ معاوية والحال هذه سيبالغ في قعهم. اما الصلح فبامكانه البقاء عليهم الى أن تتهيأ ظروف افضل في مستقبل، واذا تقرر في يوم ما اراقة دمائهم فيينبغي ان يعطي ذلك مردودات ذات فائدة و يؤدي الى خلق تيار مؤثر في حركة التاريخ.

لنتأمل هنا كلام الامام عليهما الذي واجه به اعترافات بعض اصحابه: «ما اردت بمحالحتي معاوية الا أن ادفع عنكم القتل عندما رأيت تباطؤ اصحابي عن الحرب ونکولهم عن القتال»^(٣).

وتطرق في حديث آخر الى هذا الموضوع فاشار فيه الى ضرورة الصلح في ظل وجود بعض الظروف، فذكر صلح الحديبية كشاهد على كلامه فقال: «ولولا

(١) ابن ابي الحديد - شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٢٩.

(٢) العلامة المجلسي - بحار الانوار ج ٤٤ ص ١٤٧.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١.

ما اتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الارض احد^(١).

وقال في مقابل اعتراض مالك بن حمزة: «يا مالك لا تقل ذلك، لما رأيت الناس تركوا ذلك الا اهله خشيت أن تجتنوا عن وجه الارض فاردت أن يكون للدين في الارض ناع». ^(٢)

فلو وقعت للامام الحسن في مثل هذه الظروف حرب فانها ستنتهي قطعاً بضرره وضرر خاصة اصحابه، وحتى الامام امير المؤمنين نفسه اصغى مستعداً للكف عن الحرب مع معاوية عندما تعرض لمثل هذه الظروف.

نورد فيما يلي مقطعاً من كلامه الموجه الى فئة من المطالبين بواصلة الحرب:

«يا قوم قد ترون خلاف اصحابكم وانتم قليل في كثير ولئن عدتم الى الحرب ليكونن اشدّ عليكم من اهل الشام، فاذا اجتمعوا واهل الشام عليكم افتوكم. والله ما رضيته ولا هوبيته ولكنّي ملث الى الجمهور منكم خوفاً عليكم»^(٢).

وكما تلاحظون فان امير المؤمنين عليه السلام نفسه قد اشار في مثل هكذا ظروف الى موضع المحافظ على الشيعة، وذكر أنّ احد الاسباب في قبول التحكيم المفروض هو ازالة التهديد عن اصحابه المقربين.

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها بعض رواة الاخبار التاريخية لدس اشاعة معارضة الامام الحسن عليه السلام لاخيه في صفحات التاريخ، فإنه على العكس

(١) البحرياني - عوالم العلوم - ج ٣١ ص ١٧٤.

(٢) البلاذري - انساب الاشراف - ج ١ ص ٣٣٨ ط المحمودي. محمد باقر المحمودي - نهج السعادة ج ٢ ص ٢٦٨.

كان يعتقد بصحة واستقامة الطريق الذي سلكه اخوه. وشار في موضع متعددة الى أن اي عمل آخر سوى ما قام به اخوه لن يثمر عن شيء، وكلام الامام الحسين عليهما السلام مع الذين طلبوا اليه القيام بعملٍ ما ملائمة جداً لتأييد الموضوع الذي نبحثه:

«صدق ابو محمد فليكن كل رجل منكم حلساً من اخلاص بيته ما دام هذا الانسان حياً»^(١).

«وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك فالصقوا رحمة الله بالارض واكمنوا البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»^(٢).

فهذه الكلمات وغيرها تؤيد وجهة نظر الامام الحسن عليهما السلام بعدم جدوى التحرك العسكري في مواجهة معاوية.

الصلح المفروض وبنوته

ولو فرضنا ان الامام الحسن عليهما السلام قد غير رأيه في مواصلة الحرب بسبب الضعف الذي رأه على اهل العراق. فان ارسال معاوية المبعوثين الى المدائن و تعرض الامام لذلك في كلماته - التي تقدم ذكر بعضها - يشير الى ان معاوية كان راغباً في انهاء النزاع من غير اللجوء الى الحرب واراقه الدماء. فقد اظهر للناس من خلال ذلك وبشكل ذكي انه رجل حليم وهادئ وانه يريد الاستيلاء على العراق بغير الحرب والصراع.

(١) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١.

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢٢.

وهذا الاسلوب يمنع طبعاً من قيام اي تحرك مضاد من قبل اهل العراق. بالإضافة الى ذلك، فإنه استطاع اضفاء صبغة قانونية على عمله واحياء هذا التصور في الذهان وهو «انه ليس هو الذي يريد الاستيلاء على الخلافة الاسلامية بالقوة، بل ان الناس انفسهم وعلى رأسهم الامام الحسن عليه السلام هم الذين اوصلوا الامر الى هذه الحال».

ومع كل ذلك فإنه لعدم التزامه بالتعهدات التي اتفق عليها الطرفان في كتاب الصلح يكون قد كشف عن وجهه القبيح المخادع. إلا أنّ التاريخ في نقله لبعض البنود -التي ادعى كتاب التاريخ بأن الطرفين قد اتفقا عليها- قد ظلم الامام الحسن ايا ظلم. اذ بالتمعن الدقيق في الموضوع ندرك بسهولة مدى ما احدثه بعض من الرواة والمؤرخين الذين لم يتحرروا من ميولهم المذهبية خلال تدوينهم للوقائع التاريخية من تلقيق وتزيف للاحبار والحقائق لصالح السياسة الاموية ضد الشيعة وتحريف الكثير من وقائع التاريخ.

وكان القصد الكامن من وراء هذه الجريمة هو اثبات النقاط التالية :

- ١- ان الامام الحسن عليه السلام هو الذي تقدم بطلب المصالحة من موقف الضعف والعجز.
- ٢- ان الامام بادر الى القيام بهذا العمل من اجل بلوغ اهدافه المادية والحصول على الدينار والدرهم.
- ٣- انه كان يفكّر بنفسه فقط تاركاً الناس لمعاوية.

وكان الزهريّ -وهو احد المرتبطين بيلات هشام بن عبد الملك ومن انصارهم المخلصين- احد مصادر هذا التحريف فقد ذكر أن اساس عقد المصالحة

لا ينطوي سوى على شروط مالية وقبض خراج (الاهواز) و(دارابجرد)^(١).

ونحن في هذا البحث المختصر لا نجد الفرصة مواتية لتناول جميع النصوص التاريخية بشأن بنود معاهدة الصلح. لذا فاننا نكتفي بذكر رواية تناقلتها المصادر القديمة باعتبارها نصاً كاملاً ونعطي بعض الايضاحات بشأنها. وقد تُقل هذا النص من قبل مؤرخين قد يختلف اسناد كل منها عن سند الآخر تماماً. وهذا التمايز الموجود بين النقلين بخصوص نص معاهدة الصلح هو من الدلائل على صحتها. فقد ورد في تلك الرواية ما يلي:

انفذ الامام عبدالله بن نوفل الى معاوية فتوّّق منه لتأكيد العجة بأن يكون الناس في أمان على انفسهم واموالهم وسيكون مستعداً لقبول مشروع المصالحة. الا أن عبدالله بن نوفل طرح على معاوية شروطاً غيرها وهي:

١- تسلّم الخلافة بعد معاوية الى الامام الحسن عليه السلام.

٢- دفع مبلغ ٥٥ ألف درهم سنوياً بالإضافة الى خراج دارابجرد. وقد قبل معاوية بهذه الشروط.

ولما رجع عبدالله بن نوفل الى الامام واعلمه بشروطه التي طرحتها لم يوافق عليها الامام وقال: لست طالب خلافة، والاموال التي تعهد معاوية بدفعها لي انا هي من بيت المال ولا يحق لها التصرّف ببيت مال المسلمين. ثم دعا كاتبه وامرها بكتابة ما يلي:

«هذا ما تصالح عليه الحسن بن علي ومعاوية بن ابي سفيان صالحه

(١) ر. ك. تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٢٥. وابن سعد. الطبقات ص ١٦٨.

على أن يسلم اليه الأمر على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وان يكون الامر شورى والناس آمنون حيث كانوا على انفسهم واموالهم وذراريهم، وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي غائلاً سراً ولا علانية، وعلى أن لا يخلف أحداً من أصحابه»^(١).

ويبدو ان الشروط الاخرى التي نقلت بشكل مفصل او مختصر هي اشارة الى هذه النقطة وانها كانت من تعبير المحدثين، مع ما يحتمل ايضاً من استعمال المؤرخين لعبارات متساهلة في نفس هذا النص.

اما الشرط المالي الذي اورده بعض المؤرخين في معايدة الصلح فقد كذبه الامام شخصياً إلا أنه قد ورد في رواية أخرى ان هذا الشرط كان من اجل توفير ارزاق عوائل شهداء الجمل وصفين^(٢)، وفي مثل هذه الحالة يحتمل ان يكون هذا الشرط خارج نص معايدة الصلح المتفق عليها. وعلى كل الاحتمالات فمن البدئي أن الامام -ومع جميع ما ورد في التاريخ بشأن كرمه وجوده- لا يطرح مثل هذا الشرط لمصالحة الشخصية، رغم ما لأهل البيت عليه السلام من حق وافر في بيت مال المسلمين.

ويحتمل كذلك ان تكون اشاعة الشرط المالي التي اخذت طابع الخبر التاريخي قد افرزتها الرسالة التي بعثها معاوية الى الامام الحسن يحثه فيها على قبول الصلح ويعلن فيها استعداده لوضع مبلغ قدره مليون درهم سنوياً تحت

(١) ابن الأعثم، الفتوح، ج ٤ ص ١٥٨، البلاذري. انساب الأشراف ج ٢ ص ٤٢، ابن شهرآشوب: المناقب ج ٤ ص ٣٣.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الانوار ج ٤٤ ص ٣٠. عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٨٢ و ١٨٧ و ١٨٨.

تصرفه بالإضافة الى خراج «دارابجرد» و «فسا»^(١). ومن ثم نقلها المؤرخون المغرضون او الجهلة، فيما بعد على انها أحد بنود معااهدة الصلح.

واما موضوع تعيين الامام الحسن عليه السلام ك الخليفة بعد معاوية والذي جاء في الرواية التي نقلناها فانه لم يرد في نص المعااهدة، وقد كذبه الامام ايضاً.

لكن مع كثرة الاخبار التاريخية الواردة في هذا الصدد يُستبعد أن يكون مصدرها جيئاً رسالة معاوية تلك التي قال فيها ضمن تعهّداته بانه سيسسلم الخلافة من بعده الى الامام الحسن عليه السلام.

وقد اشار الامام في معااهدة الصلح الى أنه: لا يحق لمعاوية تعيين الخليفة من بعده بل ينبغي ان يتم ذلك عن طريق شورى المؤمنين، وهذا لا يعني اضفاء طابع الشرعية او الرسمية من قبل الامام على «شورى تعيين الخليفة» نظير الشورى التي شكّلها عمر او اي شكل آخر لها، بل ان الهدف من ذلك هو القبول الشعبي للحاكم وهذا لا يتنافي ومعتقدات الشيعة، لأن الحاكم وفي جميع الاحوال وإن كان الامام المعصوم ، بحاجة الى قبول الشعب له لكي يتمكن من امساك زمام امور الحكم، وكذلك الحال بالنسبة الى الله سبحانه و تعالى، تكون له صفة الحاكمة التشريعية في حال قبول الناس له ولدينه، رغم ان له الولاية التكوينية المطلقة على الكون شاء الناس ذلك ام أبوا.

لقد بادر الامام الحسن عليه السلام الى مثل هذا العمل من اجل انقاذ الخلافة من نظام الوراثة الذي يتوقع ان يقوم به معاوية هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان الناس في ذلك الوقت كانوا يعتبرون الخلافة مساوية للبيعة الاختيارية لاهل الحل

(١) البلاذري - انساب الاشراف - ص ٤٢.

والعقد، وانه من خلال احيائه لهذا المبدأ يكون قد اوقع معاوية في دائرة مخالفة الناس فيما لو تجاوز ذلك، ورغم ان معاوية كان اذكي من ان يقع في دائرة الخلاف مع اولئك الناس غير الواقعين، ولكن ذلك كان اقصى ما يمكن اتخاذه من تدبير وقائي على يد الامام في تلك الظروف العصيبة، لكي يفضح للناس شخصية معاوية المنافقة، ويكشف للأجيال القادمة دوره الخبيث في التاريخ.

والنقطة المهمة الواردة في معاهدة الصلح نستعرضها فيما يلي وبشكل مختصر:

- ١ - توفير الأمان للجميع وخاصة شيعة امير المؤمنين عائلاً الذين شاركوا بشكل او آخر في معركتي الجمل وصفين ضد العثمانية.
- ٢ - عدم ورائية الخلافة بعد معاوية.

٣ - توفير الأمان لأهل بيت رسول الله ﷺ وعلى رأسهم الحسنان عليةما بهما من خير.

لكن معاوية لم يلتزم باي من النقاط الواردة اعلاه، وهنا يجب على اولئك الذين لا زالوا يوالون معاوية أن يذكروا لنا السبب في أنه لم يلتزم بابسط تلك البنود، ولم يعمل بها رغم انه قبلها ووقع عليها. والاكثر اثارة من ذلك هو ان معاوية وبعد موافقته على بنود المعاهدة وتوقيعه عليها، دخل الكوفة وقال ضمن كلمته التي القاها على مسامع الجمورو وبقيت الانظار مشدوهة لسماعها:

«أني كنت شرطت شرطًا ووعدت عدة أراده لاطفاء نار الحرب، ومداراة لقطع هذه الفتنة، فاما اذا جمع الله لنا الكلمة والالفة، وأمننا من الفرقه، فان ذلك

تحت قدمي^(١). أتَيْ والله ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتجووا ولا لتزكوا
انكم لتفعلون ذلك، وانما قاتلتكم لأنتم علىكم وقد اعطاني الله ذلك وانت
كارهون^(٢).

يقول ابو ساسان الحصين بن منذر: لم يلتزم معاوية باي من التعهّدات التي
قطعها للامام الحسن عليه السلام اذ قتل حجراً واصحابه ولم يعهد بانتخاب الخليفة الى
شورى المؤمنين واختار ابنه يزيد لولاية العهد من بعده، وسمّ الامام
الحسن عليه السلام^(٣).

خطبة الامام عليه السلام بعد دخول معاوية الى الكوفة

لما دخل معاوية الكوفة اصدر بياناً يهدّد فيه الناس أنّ من لم يباع الى
ثلاثة ايام فلا أمان له. وعندما اجتمع الناس في مسجد الكوفة الجامع اراد معاوية
الاستهانة بالامام الحسن والحصول على تأييد ضمني منه امام الملاّعام فدعاه الى
القاء خطبة من على المنبر، وقد نقل المؤرخون روایات متضاربة في هذا الصدد
متضاربة، واوردت كل روایة منها مقطعاً مختلفاً من خطبة الامام. فقد ورد في
احدى الروایات انه قال عليه السلام:

«انما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه وآله وسليمه وليس الخليفة من سار
بالجور ذلك ملك ملك يمتع به قليلاً ثم تنقطع لذته وتبقى تبعته» (وان

(١) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ٤٦. ور.ك. ابن الاعثم ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) الاصفهاني - مقاتل الطالبيين ص ٤٤ طبعة النجف.

(٣) البلاذري - انساب الاشراف. ج ٢ ص ٤٨.

ادری لعله فتنة لكم ومتاع الى حين»^(١).

فالامام عليه السلام يعرض معاوية للناس عن طريق الكناية بصورة ملك جائر، وجاء في رواية اخرى أنه عليه السلام اشار الى انه واخاه الحسين عليهم السلام الشخصان الوحيدان على الارض اللذان جدّهم نبی الاسلام صلوات الله علیه وآله وسلم اذ قال:

«ان الله قد هداكم بآولنا محمد، وأن معاوية نازعني حقاً هو لي فتركته لصلاح الامة وحقن دمائها».

نعم فبعد ان دامت خلافة الامام مدة سبعة اشهر وسبعة أيام أكره على التنازل عن الخلافة لمعاوية والذهب الى المدينة. وخلال هذه المدة كان اهتمامه منصباً على الحرب، وكان من الصلاح من وجها النظر الحكومية ابقاء عمال ابيه استناداً الى ما ذكره ابن الخطاط. وقد اصدر المغيرة بن شعبة كتاباً مزيفاً لنفسه باسم الامام وكان ذلك من النقاط المهمة في حياة بعض الصحابة الذين يعتبرهم اهل السنة عدواً بآجعهم وفعلهم حجّة شرعية.

الامام ومعاوية ومحاربة الخوارج

حينما كان الامام متوجهاً الى المدينة اضطرم تردد الخوارج ثانية في احياء مختلفة من العراق. وكان امير المؤمنين قد قال سابقاً بهذا الصدد: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي» وهو ما يقتضي عدم مساعدة الشيعة للامويين في قمع الخوارج. وكان في نية معاوية استغلال الشيعة لتحقيق هذا الغرض. فارسل الى الامام

(١) الاصفهاني - مقاتل الطالبيين ص ٤٧. ر. ك. ذخائر العقبي ص ٤٠. نظم درر السمحطين ص ٢٠٠ - ٢٠١

الحسن عليه السلام - الذي كان في حينها قد وصل إلى القادسية - كتاباً يطلب منه العون لمحاربة الخوارج، وكان الإمام على وعي تام بأهداف هذه المخطة فردّ إليه الجواب بهذا المضمون: «تركت قتالك وهو لي حلال لصلاح الأمة والفتهم، افتراني أقاتل معك»^(١).

وورد في نصوص أخرى بأن الإمام قال: «لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك»^(٢).

وهذا دليل آخر أيضاً على رأي الإمام القاطع بشأن محاربة القاسطين.

وكان معاوية في كل مرة يسعى للقضاء على بني هاشم بالسلوب معين، فقال في أحدى المرات: «إذا رأيتم هاشمياً غير كريم وأموياً غير حليم وعومياً غير شجاع فأعلموا أنهم لا يشبهون آباءهم».

ولما سمع الإمام المجتبى هذه المقوله، قال:

«والله ما أراد بها النصيحة، ولكن أراد أن يفني بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجون إليه، وأراد الحلم لبني امية حتى يحبّهم الناس، واراد للزبيريين الشجاعة حتى يعرضوا أنفسهم للقتل»^(٣).

(١) البلاذري - انساب الأشراف: ج ٢ ص ٤٦.

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٤٢. المبرد، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٣٣. ابن أبي الحديد ج ٥ ص ٩٨.

(٣) ربيع البار ج ٣ ص ٤٢٢.

خصائص الامام الحسن عليه السلام

يعتبر الامام الحسن المجتبى عليه السلام احد الماذج الانسانية المتميزة، وشخصيته الفريدة والاجتماعية يمكن ان تكون معلماً بارزاً للسائرين على طريق الانسانية. وليس بالامكان هنا تناول جميع الروايات في هذا المجال بشكل مفصل، لذا نقتصر على ذكر عدد من النقاط فيما يلي:

في الجانب العبادي تُعتبر ملامحه الوضاءة تاجاً يزيّن تاريخ البشرية فقد جاء في رواية ان الامام الحسن المجتبى قال: «أَنِّي لِأَسْتَحِي مِنْ رَبِّي أَنْ الْقَاهُ وَلَمْ أَمْشِ إِلَى بَيْتِهِ».

فمشى عشرين مرّة من المدينة على رجليه^(١). وتُقل ايضاً: لقد حجَّ الحسن خمساً وعشرين حجّة ماشياً^(٢).

ومن الميّزات الاخرى التي تمتاز بها شخصيته هي العفو والتسامح والاستفادة المشروعة من النعم الالهية وهذا ما تناقلته السن المؤرخين^(٣).

في رواية: «ان رجلاً جاء اليه طالباً حاجة فقال: ليكتب حاجته ويأتِ بها، فلما حضر الرجل دفع اليه الامام ضعف ما طلب»^(٤).

وجاء في رواية أخرى: «ان الحسن عليه السلام قاسم الله ماله ثلاث مرات حتى انه

(١) ابو نعيم الاصفهاني - اخبار اصفهان ج ١ ص ٤٤.

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٧٢.

(٣) ربيع الباراج ١ ص ٦١٧.

(٤) البهقي، المحسن ص ٥٥.

كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً ويعطي خفّاً ويمسك خفّاً^(١).

ومن الصفات الجميلة الأخرى التي تبيّن بها امامنا هذا هي الحلم والصبر والتحمل وتجنب الرياء والتنسّك. وقد وردت روايات متعددة في هذا الصدد نورد أحدها:

قال رجل من اهل الشام: «رأيت في احد الايام رجلاً حسن الهيئة، وسيماً، يرتدي ثياباً فاخرة، وهو راكباً بغلة زينت بشكل يلفت النظر، فسألت عنه فقيل لي: هو الحسن بن علي بن ابي طالب، فمُلئت غيضاً منه وحسدت ابن ابي طالب على مثل هذا الولد. فلما دنوت منه سألته أنت ابن ابي طالب؟ فقال ابن ابنته. فأنبريت له بالسبّ والشتم، فلما فرغت قال: هل انت غريب؟ قلت نعم. قال: هلْ معِي. ان كنت مشرداً اويناك، وان كنت محتاجاً اعطيك، وان كنت جائعاً اطعمك، فوالله ما فارقته وعلى الارض احد احبّ الّئي منه».

وإضافة الى دوره في الامامة وكونه حلقة وصل في نقل آثار رسول الله ﷺ وما نقله اهل السنة عنه ايضاً من روايات في الفقه^(٢)، فإن اهم دور اذاه في المجال الديني هو حثّ الناس على كتابة الحديث. وهو امر في غاية الاهمية اذ ادى نهي الخلفاء عنه الى بقاء الاحاديث لدى الشيعة من جهة، ومن جهة اخرى واجه اهل السنة مشكلة ضياع وفقدان الاحاديث بسبب عدم تدوينهم لها في بداية الامر.

وقد روي عنه انه اوصى اولاده واولاد اخيه فقال لهم:

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٧٣.

(٢) ابن عدي - الكامل في ضعفاء الرجال ج ٣ ص ١١٨٧.

«يا بنى ائمّ صغار قوم فتوشكون ان تكونوا كباراً، فتعلّموا العلم فمن
لم يستطع ان يحفظه او يرويه فليكتبه ويضعه في بيته»^(١).

وكان الامام احياناً مرجعاً لحل بعض المعضلات التي يطرحها بعض الناس
على معاویة^(٢).

استشهاد الامام عليه السلام

ان إحدى الجرائم البشعة التي ارتكبها معاویة خلال فترة حكمه هي قتله
ريحانة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الامام المحسن المجتبى عليه السلام، وآثار هذه الجريمة المروعة
مسطورة علينا على صفحات التاريخ. وقد تمت تلك الجريمة بهذا الشكل الرهيب
الذى دبره معاویة بالاتفاق مع عنصر خبيث وفاسد مثل بنت الاشعث بن قيس
(زوجة الامام) التي دست له السم فمات شهيداً. لقد كشف معاویة عن وجهه
المنافق المرائي وفضح شخصيته الشيطانية ونقضه للعهود والمواثيق مرات ومرات
خلال فترة حياته السياسية. وكانت هذه الجريمة اوضح من غيرها في انتظار
الناس.

وقد اثبتت التاريخ هذه الحقيقة^(٣). فقد نقل الطبری عن (ام بكر بنت المسور)
أنها قالت: سُقِيَ السُّمُّ لِلأَمَامِ الْمَجْتَبِيِّ عَدَةَ مَرَّاتٍ، وَكَانَ يَنْجُو مِنْهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِلَى أَنْ
مَاتَ فِي الْمَرَّةِ الْآخِيرَةِ^(٤) ومع هذا فنحن نجد اشخاصاً متعصبين يدافعون عن بني

(١) البخاري - التاريخ الكبير، ج ٥ ص ٤٠٧.

(٢) الزمخشري - ربيع الابرار، ج ١ ص ٧٢٢.

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠. ابن عبد البر - الاستيعاب ج ١ ص ٣٨٩. و...

(٤) الطبری - المنتخب من ذیل المذیل ص ٥١٤ طبعة دار المعارف في مصر.

أمّيّة بايّ شكل من الاشكال من امثال ابن خلدون الذي اشار الى أنّ هذه القضية لا اساس لها وهي ضعيفة وقال:

«انّ ما ذكر بشأن سُم الحسن بن علي على يد معاوية فهي رواية لفّتها الشيعة وحاشا لمعاوية ذلك»^(١).

ولا ريب أنّ هذا ناتج عن الميول المذهبية الخاصة عند ابن خلدون الذي يرحب في تغيير شهادة تاريخ الاسلام دفاعاً عن شخصية مشبوهة وكريهة مثل معاوية.

وان مأساة الامام ومظلوميته في دفنه كانت اكثرا ثأة وايلاماً، فعندما اراد اهل البيت دفنه الى جوار النبي ﷺ طبقاً لوصيته، انبرت لهم زمرة من بنى أمّيّة مع احدى زوجات رسول الله ﷺ (عائشة)^(٢)، وهي زمرة طالما وقفت في الظروف الحساسة والمصيرية بوجه اهل البيت من اجل تغيير مسار الاحداث لصالح الافكار المنافقة والمراکز الخفية المعادية للإسلام. فقد رفع مروان بن الحكم عقيرته من بين هذه الزمرة المشاغبة وصاح: أيدفن عثمان في اقصى اطراف البقع بدن الحسن بن علي في بيت رسول الله؟!

وكانـت المرأةـ التي تقدـدـ ذلكـ الشـغـبـ رـاكـبةـ عـلـىـ بـغـلـ وـتـسـيرـ اـمـامـ ذـلـكـ الجـمـعـ وـتـدـعـيـ مـلـكـيـةـ دـارـ النـبـيـ عـنـ طـرـيـقـ الـأـرـثـ، وـتـمـانـعـ بـكـلـ قـوـةـ وـاـصـرـارـ منـ دـفـنـ الـإـمـامـ فـيـ مـقـبـرـةـ رـسـوـلـ اللهـ، مـعـ اـنـهـ مـنـ روـواـ: «اـنـاـ مـعـاشـرـ الـأـنـبـيـاءـ لـاـ نـورـثـ»!

وبعد هذا النزاع المؤسف والجدال المريض دُفن الشهيد المظلوم في البقع.

(١) ابن خلدون-العبر- ج ٢ ق ٢ ص ١٨٧.

(٢) الاصفهاني- مقاتل الطالبيين ص ٤٩. ابن شهرآشوب- المناقب ج ٢ ص ١٧٥.

ويحتمل ان استشهاد الامام كان بين سنتي ٤٩ و ٥٠ للهجرة. وقد اقيمت في المدينة المنورة مآتم الحزن على ريحانة رسول الله ﷺ وعُطل اهل المدينة - وكان اكثراهم من ابناء الانصار - اسواقهم واقاموا مجالس المداد على هذه الفاجعة الكبرى^(١).

وطبقاً لما ذكره الطبرى فان نساء بني هاشم اقمن مجلس نياحة لمدة شهر باكمله وامتنعن عن الزينة عاماً بتمامه. واستناداً الى ما نقله الطبرى ايضاً عن الامام الباقر ع: ان الناس بكوا على الحسن بن علي سبعة أيام ولم يفتحوا فيها اسواقهم^(٢). وذكر ايضاً ان جمعاً عظيماً من الناس شارك في دفن الامام المجتبى في البقيع وكان الزحام شديداً الى درجة لم يبق معها محل لسقوط الابرة.

ويقول عمر بن بشير الهمداني: قلت لأبي اسحاق: متى ذلّ الناس؟ قال حين مات الحسن، وادعى زياد، وقتل حجر بن عدي^(٣).

(١) الحاكم النيسابوري - المستدرك ج ٣ ص ١٧٣.

(٢) المنتخب من ذيل المذيل ص ٥١٤.

(٣) الاصفهاني - مقاتل الطالبيين ص ٥٠.

الأطام الحسين

عليه السلام

قال الامام الحسين عليه السلام : «إِنَّا أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ وَمَعْدُنُ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلِفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَحْطُ الرَّحْمَةِ وَبِنَا فَقَحَ اللَّهُ وَبِنَا خَتَمَ»^(١).

الامام الحسين عليه السلام هو ثالث أئمة الشيعة وقد ترك تأثيراً عميقاً في نفوسهم بسبب استشهاده. كما هو حال أخيه عليه السلام محبوب رسول الله عليه السلام وهو من ابرز مصاديق: (أهل البيت، ذو القربي، سيد شباب اهل الجنة، اصحاب الكساء و...) وقال فيه الرسول الكريم عليه السلام اجمل كلام له في الثناء «حسين مني وانا من حسين». وهناك مصادر كثيرة جمعت ودونت الروايات التي تتحدث عن فضائله^(٢).

وعلاوة على مشاركة الامام الحسين عليه السلام في حروب الجمل وصفين

(١) الفتوح ج ٥ ص ١٧.

(٢) ر. ك. الفيروزآبادي فضائل الخمسة في صحاح السنتة.

والنهر وان ، فانه قد وقف بثبات خلف امامه ابيه ، ووقف ايضاً الى جانب أخيه ، ودافع عن موقفه عندما صمم على الحرب ، وعندما صمم على الصلح .

وقد خصصنا فصلاً من كتاب التاريخ السياسي للإسلام لـ«رأي الامام الحسين عليهما السلام بشأن الصلح»^(١) واثبتنا فيه عدم صحة ما اورده بعض المعاندين من معارضه رأي الحسين عليهما السلام حول موقف أخيه . واستناداً الى النصوص التاريخية الصرحة فانه لم يكن مماثلاً لأخيه في الرأي من باب التابعية فقط ، بل حتى من حيث التحليل فانه كان يعتقد بنفسه تحليل أخيه للأوضاع ايضاً^(٢) . ومن المواقف الأخرى للامام هو تصدّيه لمعاوية بسبب قتله لحجر بن عدي واصحابه . وكتب له كتاباً مطولاً يذكر فيه: انه لا يريد حربه ولا الخلاف عليه ، لكنه يخشى ان لا يرضي عنه الله في قعوده عن حرب معاوية . ثم اشار الى استشهاد حجر ووصفه بالشخص العابد الذي ينكر الظلم ، ويختلف البدع ولم يكن يخشى شيئاً ، وقرع معاوية على قتله ايّاه ، وكذلك طرح له الامام جملة من اخطائه منها ادعاؤه ان زياداً أخيه وشرح له جرائم زياد بحق المسلمين في العراق . وفي الختام هدده الامام بالقيامة والحساب والكتاب وانه لن ينجو من العذاب بسبب ايذائه للناس وحبسهم وتعذيبهم ، واستتبع الحادث فعله في اخذ البيعة لزيرد شارب الخمر اللاعب بالكلاب^(٣) .

وفي الحقيقة ان اكثرا الحادث اهمية في حياة الامام الحسين عليهما السلام هي واقعة

(١) التاريخ السياسي للإسلام من سنة اربعين الى نهاية القرن الاول للهجرة .

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١ ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١ ، الارشاد ص ٢٠٦ .

(٣) انساب الاشراف ترجمة معاوية ج ٢ ص ٧٤٤ حديث ٣٠٣ ، الاخبار الطوال ص ٢٢٤ ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٠ ، رجال الكشي ص ٤٨٤ ، دعائم الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .

كريباء التي كان لها اعمق الاثر في حياة الشيعة وخاصة في الجوانب الروحية والتاريخية لذا فاننا لا نطيل المكوث في هذه المقدمة وننطلق منها مباشرة لتبليان واقعة كريباء.

الامام الحسين عليه السلام ومبایعه یزید

بعد هلاك معاوية في شهر رجب من العام ٦٠ الهجري تربيع یزید -الذى فرضت خلافته على المسلمين مسبقاً بالاكراه- مكان ايه في السلطة وصرف كل همه الى اخذ البيعة من خصومه ومعارضيه البارزين في المدينة، لأنهم كانوا يعتبرون خطراً كاماً يهدّد حكومته^(١).

ولم يكن خبر موت معاوية قد بلغ اسماع اهل المدينة بعد، حتى كتب الى الوليد بن عتبة بن ابي سفيان واليه على المدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين بن علي عليه السلام وعبدالله بن الزبير ويشدد عليهما تشديداً لا رُخصة فيه. ولما وصله الكتاب استشار مروان فاشار عليه باحضارهما في نفس تلك الليلة واخذ البيعة منها والا فيضرب اعناقهما قبل أن يعلن الخبر فيشب كل واحد منها إلى ناحية ويظهر الخلاف^(٢).

وبعد أن جاءه الخبر، جمع الحسين نفراً من مواليه وغلمانه ثم مشى نحو دار الامارة وامر فتيانه ان يجلسوا بالباب فان سمعوا صوته اقتحموا الدار.

وهناك اقرأه الوليد الكتاب فقال الحسين عليه السلام : ان مثلي لا یبایع سرّاً، فاذا

(١) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٢٧.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ١١.

جمعت الناس لذلك حضرت وكنت واحداً منهم.

فاقتصر الوليد بكلامه، الا ان مروان حثه على حبس الامام حتى يبایع. واشتد الكلام بين الحسين ومروان، ولما هم الحسين بعفادة دار الوليد قال له: «إنا اهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحظ الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبایع مثله»^(١).

وفي هذا المجلس صرّح الامام بأولوية اهل البيت عليهما السلام بالخلافة استناداً إلى آية التطهير^(٢).

وفي اليوم التالي كان ابن الزبير قد خرج من المدينة^(٣)، وفي الليلة التالية (في الثالث من شعبان عام ٦٠ للهجرة) مضى الحسين عليهما السلام ايضا نحو مكة ومعه عامة من كان بالمدينة من اهل بيته الا اخاه محمد بن الحنفية فانه أقام^(٤).

وكانت مكة اكبر قاعدة دينية في الاسلام وكانت دائماً محل تجمع الشخصيات الاسلامية الكبيرة. واتصل الامام هناك بالشخصيات المختلفة واوضح لهم اسباب عدم مبایعته ليزيد.

ابتعد اهل الكوفة كثيراً عند سماع هذا الخبر، لأنهم كانوا يعذّون اللحظات انتظاراً لهذا اليوم، وهذا فقد اجتمع جماعة من رؤسائهم ومن ضمنهم سليمان بن

(١) ابن الأعثم ج ٥ ص ١٧.

(٢) ابن الأعثم ج ٥ ص ٢٥.

(٣) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٢٨.

(٤) ابن الأعثم ج ٥ ص ٣٧.

صُرد و... فتحذثوا في هذا الاجتماع وطرحوا موضوع دعوة الامام الى العراق ولاجل حصول الاطمئنان الكامل والتوثق من هذه القضية اخذ سليمان بن صُرد من الحاضرين عهداً بعدم نقض ما انفقوا عليه^(١) ثم ارسلوا اليه كتاباً وفيه توقيع عدد من رؤساء الشيعة من امثال: سليمان والمسيّب بن نجّة وحبّيب بن مظاهر ورفاعة بن شداد وعبدالله بن وال يدعونه فيه للقدوم الى الكوفة.

ولم يردد الامام على هذه الكتب وما زالت تأتيه الكتب الواحد تلو الآخر، حتى جاءه قيس بن مسهر الصيداوي وعبدالله بن وال نيابة عن الناس لمقابلته ودعوته الى الكوفة والباحث معه حول هذا الموضوع. وظلت كتب اهل الكوفة تأتيه بشكل متواصل حتى اخذت القضية طابعاً لم يعد بالامكان السكوت حياله او تجاهله وعدم الاهتمام به^(٢).

وفي هذه الائتاء التق بالامام في مكة هاني بن هاني وهو احد شخصيات الكوفة . وفي هذا اللقاء عرض على الامام استعداد اهل الكوفة وحتى اشرافها لاستقباله وكان ذلك بمنابة التأكيد على محتوى الكتب التي وصلته .

وكان اول عمل قام به الامام هو ارسال مسلم، ولما تأهب مسلم للرحيل قال له: «إن رأيت الناس مجتمعين على بيعتي فعجل لي بالخبر حتى اعمل على حسب ذلك»^(٣).

وورد اول كتاب من مسلم بعد وصوله وهو يؤكّد على ايجابية الموقف،

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦١. ابن الاعثم ج ٥ ص ٤٦.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ٤٩.

(٣) ابن الاعثم ج ٥ ص ٥٣.

وجاء فيه: «بایعک اکثر من ۲۰ الفاً من اهل الكوفة، عندما يصلک كتابی عجل بالمسیر»^(۱).

ان کتب اهل الكوفة وكلام مبعوثیم وكتاب مسلم عن الموقف في الكوفة تشير باجمعها الى ان حركة قوية ضد السلطة الامامية على وشك الاندلاع. وفي الثامن من ذي الحجّة وفي غمرة مناسك الحج عجل الامام بالمسير نحو الكوفة، لأنّه كان يرى ان لحظة واحدة من التأخير يمكن أن تؤدي الى قلب اوضاع الكوفة صالح بنی أمیة.

وفي الطريق لحق الامام بعیر مقبلة من الین وفيها هدايا مرسلة الى يزيد في الشام فأخذها وما عليها وقال لاصحاب الأبل من اراد منکم فليأت معنا الى العراق ومن اراد ان يفارقنا فليرحل^(۲).

ثم واصل مسیره نحو الكوفة فالتقاه الفرزدق الشاعر مقبلاً من العراق يريد مكّة، فسألة عن الوضع في الكوفة فقال: «قلوب الناس معك وسيوفهم عليك».

ومضى الحسين طليلاً حتى اذا صار «بیطن الرمة» كتب الى اهل الكوفة يعلمهم بقرب وصوله^(۳) ثم بعث بالكتاب مع قيس بن مسهر الصيداوي، وقبل وصوله الى الكوفة اخذه خُصين بن ثیر وبعث به الى ابن زياد. ولکی لا یقع الكتاب بيد ولاد الامویین عمد الرجل الى قضم الكتاب وبلعه. وبعدها بعدها ايام استشهد في الكوفة.

(۱) ابن الاعثم، ج ۵ ص ۱۵۰.

(۲) البلاذري، انساب الاشراف ج ۲ ص ۱۶۴، تصحیح المحمودی. الدینوری الاخبار الطوال ص ۲۴۵.

(۳) الدینوری الاخبار الطوال ص ۲۴۷.

استمر الامام في طريقه حتى وصل منطقة زورد ولقي فيها زهير بن القين الذي كان الى حد تلك اللحظة عثماني الرأي، وطلب منه النصرة. فتأثر بكلام الحسين، وتشجع زوجته فقبل الدعوة والتحق بتلك القافلة المتوجهة الى كربلاء. ولما وصل الامام الى مكان يقال له ذات عرق لقيه شخص من بني اسد واحبره باستشهاد هانئ ومسلم^(١).

وقد ورد في احدى الروايات التاريخية ان الامام قرر الرجوع في تلك اللحظة الا أن اخوة مسلم منعوه، ولكن يستبعد أن تكون هذه الرواية صحيحة. ذلك لأن الامام وجميع من برفقته لا زالوا حتى ذلك الحين يحسبون للكوفة حسابها ويعلقون عليها املاً كبيراً، وكان التصور السائد لديهم هو: «والله ما انت بمسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع»^(٢).

وفي منطقة زباله وصلت الى الامام رسالة مسلم التي كان قد طلب في آخر لحظات حياته من عمر بن سعد ارسالها الى الامام. وفي هذه الرسالة اوضح مسلم للامام بأن الكوفة قد اضحت بئثابة فخ ينتظر قدمه فعليه ان لا يقترب منها. ولم يمض طويلاً وقت حتى بلغه خبر استشهاد قيس بن مسهر^(٣) وعبدالله بن يقطر^(٤) اخو الامام من الرضاعة. وكان مجموع هذه المعلومات يشير الى أن كفة الظروف والموقف السياسي في الكوفة تميل لصالح الأمويين. وبناءً على هذه المستجدات، اشار الامام خلال اجتماع احتشد فيه عدد كبير من رافقه، الى هذه الوضاع وقال

(١) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٢٠.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٢٠.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٤٨.

(٤) ضبط في بعض كتب التاريخ نفس المهموم قيس بن مسهر وعبدالله بن يقطر.

هم:

«أيتها الناس قد خذلنا شعيبتنا فمن أراد منكم الانصراف فلينصرف»^(١).

و عند سماع الناس هذا الكلام انصرف عدد كبير من الناس ممن كانوا قد تبعوا الامام لأغراض مادية. وبقي معه نفر من اهل بيته وخاصة انصاره الذين رافقوه من المدينة او مكة^(٢).

وبالنظر لطبيعة الظروف السياسية الخاصة في تلك الايام تيقن الامام ان حركته المعارضة هذه سُمِّنَى بالفشل العسكري. ولكن من الواضح ان هذه الحرب غير المتكافئة بين الحسين بن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والامويين كانت لها اسباب ودافع معنوية أخرى لا يمكن فهمها او تحليلها بالمنظار السياسي المتعارف.

واستمر الامام في مسيره نحو الكوفة حتى بلغ منطقة شرارة، فامضى فيها ليلته وواصل في اليوم التالي مسيره، وعند منتصف النهار لاحت له طلائع جيش الكوفة بقيادة الحر بن يزيد الرياحي. كان الحر قائداً عسكرياً، وكان في مهمته هذه يؤدي واجبه العسكري الموكلي اليه فقط، ولا ينظر مطلقاً الى الجانب السياسي من الموضوع. وهذا السبب فانه وقف وجميع من معه خلف الامام مأمين به لصلة الظهر. وكانت مهمة الحر هي اخذ الامام الى الكوفة ومنعه من العودة. ولما انتهى الحسين عليه السلام من صلاته حول وجهه الى القوم ثم قال:

«أَنِّي لَمْ آتَكُمْ حَتَّى أَتَتْنِي كِتَبَكُمْ، وَقَدَمْتُ عَلَيْهِ رَسْلَكُمْ، فَانْ اعْطِيْتُمْنِي مَا

(١) البلاذري - انساب الاشراف ص ١٦٩.

(٢) ر. ك. الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٨. البلاذري - انساب الاشراف ص ١٦٩. الطبرى ج ٤ ص ٣٠٠.

اطمئنَ اليه من عهودكم ومواثيقكم دخلنا معكم مصركم، وان تكون الاخرى
انصرف من حيث أتيت»^(١).

وادعى الحرَ انه لا يعلم بهذه الكتب. ورفض الامام الذهاب الى الكوفة
وسلك طريق الحجاز^(٢). فاصطف الحر وفرسانه معترضاً طريقه. وبعد أخذ وردَ
اتفقا على سلوك طريق وسط لا تؤدي الى الكوفة ولا الى الحجاز، فاللتزما طريقاً
تؤدي الى العَذِيب»^(٣).

وهنا عرض الطرماح بن عدي على الامام ان يسير نحو جبال طيء لكنه ردَّ
عليه هذا الاقتراح بسبب ما توافق عليه مع الحر^(٤). وحاول الامام في مسيرة
التباعد عن الكوفة جهد المستطاع، لكن الحر كان يمنعه من ذلك حتى بلغوا قصر
بني مقاتل ، ثم توجّهوا منها الى نينوى^(٥). وفي نينوى وصل الى الحر كتاب من ابن
زياد يأمره فيه أن يجتمع بالامام، و لا يحله الا بالعراء على غير ثُمُر ولا ماء^(٦).

وهنا جاء عدد من شيعة الكوفة، ورغم معارضته الحر لهم فانهم قد دخلوا
في عسكر الحسين^(٧). وكتب البلاذري ما يلي: طلب الامام من الحر السماح له

(١) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٩، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٠، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٣٥.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٥٠.

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٠، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٤١، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٠.

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٣٠٧، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٣.

(٥) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥١.

(٦) البلاذري - المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٦، الدينوري المصدر نفسه.

(٧) نفس المصدر السابق.

بالذهاب الى الشام لوضع يده بيد يزيد^(١).

لكن اكثرا المؤرخين ضعفوا هذه الرواية، مضافاً الى ان كل الذي جرى ويجري الى تلك اللحظة اما كان بسبب عدم مبايعة الامام ليزيد، فلو كان عليه^{عليه السلام} مستعداً للبيعة لما وقعت تلك الحرب وما أريقت كل تلك الدماء.

وبينا كان الحر يساير الامام، عرض زهير بن القين على الامام قتال هؤلاء القوم فهم قلة وقتاهم أيسر، لكن الامام رفض هذا الاقتراح قائلاً: «إني اكره أن ابدأهم بالقتال»^(٢).

وأكره الامام على النزول هناك، فامر بحط ائتماله في كربلاء وكان ذلك يوم الاربعاء في الاول من المحرم او يوم الخميس الثاني منه. وقال الدينوري انه كان يوم الاربعاء^(٣).

وفي اليوم التالي بدأ جيش ابن زياد يتحشد في ذلك المكان تدريجياً. وكان ابن زياد يؤكد على وجوب ان تتلطخ أيدي جميع القبائل بدم سبط النبي عليه السلام ليحول بذلك دون قيامها في المستقبل باي تحرك محتمل بدافع الانتقام لدم الحسين^{عليه السلام}. وبناءً على رواية ابن اعثم فقد سار من الكوفة ما يقارب ٢٢ ألف رجل. لكن رواية البلاذري^(٤) والدينوري^(٥) تشير الى أن الكثير منهم تخلفوا في منتصف الطريق وفروا من جيش ابن زياد، لأن اكثريتهم اهل الكوفة لم تكن راغبة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٣.

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٣.

(٤) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٩.

(٥) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٥٤.

في قتال سبط الرسول، لذلك اصدر ابن زياد بياناً جاء فيه:

«أيما رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن العسكر برئت منه الذمة»^(١)! وتحت تأثير مثل هذا التهديد توجهت هذه الجموع الى كربلاء.

وحتى عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي كان متأهباً للرحيل الى بلاد فارس كواحدٍ جديدٍ على الري لقتال الدياللة المشركين، ورغم كراهيته الشديدة هو وبني زهرة^(٢) للمشاركة في دم الحسين عليهما السلام فقد جاءه امر ابن زياد بالقضاء اوّلاً على الحسين ومن ثم الذهاب الى الري وتسليم منصب الولاية عليها. ولذا عُين قائداً لجيش الكوفة. ومرةً الرجل بحالة من الصراع النفسي الداخلي المريض حول هذا الموضوع انتهت به الى اختيار ولادة الري في مقابل اراقة دم سبط رسول الله^(٣).

وكان اوّل عمل قام به ابن سعد بعد وصوله الى كربلاء هو ارسال مبعوث من قبله الى الامام ليستفسر منه عن سبب قدمه. فعرض عليه الامام جميع الرسائل التي وصلته من اهل الكوفة وقال:

«ان كان اهل هذا المصر غير راغبين في استقبالي فاني راجع من حيث اتيت».

وكان ابن سعد يبحث عن طريق للتخلص من هذا المأزق فبعث بكتاب الى ابن زياد جاء فيه: «قطع لي الحسين عهداً بالرجوع الى الحجاز او الذهاب الى أحد

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٨.

(٢) ابن سعد، مجلة تراثنا العدد العاشر ص ١٧٨.

(٣) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٧٣.

النفور الاسلامية والعيش فيها كانسان عادي . وفي هذا للك رضا وللامة صلاح»^(١) .

وابدی ابن زياد رغبة في قبول رأی ابن سعد لكن الشمر جعله يعدل عن رأیه فكتب الى عمر بن سعد ما يلي : «لم ابعثك الى الحسين لتطاوله الايام ، فان نزل الحسين واصحابه على الحكم فابعث بهم الى سلماً ، وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتقتل بهم فانهم مستحقون لذلك»^(٢) .

فارسل عمر بن سعد بكتاب ابن زياد الى الحسين ، فقال الحسين للرسول :
«لا أجيئ ابن زياد الى ذلك ابداً فهل هو الا الموت فمرحباً به»^(٣) .

وورد كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد : «ان امنع الحسين واصحابه من الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنعوا بالتقى الزكي عثمان»^(٤) .

وكتب له كتاباً آخر جاء فيه : «بلغني ان الحسين واصحابه حفروا الآبار وهم يشربون منها فاذا وصلك كتابي هذا امنعهم من ذلك وشدد عليهم في الماء جهد المستطاع»^(٥) .

وفي الأيام الأخيرة التق الامام بابن سعد عدة مرات ، ووجه في اقناعه بالتخلي عن تنفيذ الجريمة التي امر بها ، لكن هاجس ولاية الري - وكما تشير الروايات التاريخية - كان قد افقده صوابه .

(١) المقيد ، الارشاد ص ٣٣٩ طبعة بصيرتي - قم .

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٦٦ ، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٣ .

(٣) الدينوري . الاخبار الطوال ص ٢٥٤ .

(٤) ر. ك. الدينوري ص ٢٥٥ ، البلاذري ج ٢ ص ١٨٠ ، فيما يخص تهمة ابن زياد بشأن عثمان راجع كتاب التاريخ السياسي للإسلام الى سنة اربعين للهجرة ص ٣٧٧ .

(٥) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٦٢ ، الطبرى ج ٤ ص ٣١ .

وفي عصر التاسع من المحرم ابتدأ جيش الكوفة القتال، فسألهم الامام تأثير الحرب الى غد، فأجابوه. وفي الليل خاطب الامام انصاره وكل من تبعه قائلاً لهم:

«إني قد اذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلٍّ ليس عليكم مثيًّ ذمام، هذا الليل قد غشىكم فاتخذوه جملأً ولیأخذ كل منكم بيد رجل من اهل بيتي». فاعلن اصحابه استعدادهم للتضحية والوفاء^(١).

وفي تلك الليلة امر الحسين اصحابه ان يحرروا وراء البيوت اخدوداً لثلاثاء يأتوا من ادبار البيوت فيدخلوها. وانقضت ليلة العاشر من المحرم. وفي الصباح الباكر كان الجيشان قد اصطفا في مقابل بعضها استعداداً للقتال.

وعبا الحسين عليهما السلام انصاره وهم خمسون رجلاً من كانت لديهم القدرة على المغرب واما العشرون الآخرون -كما ذكر ابن سعد^(٢)- فهم الذين انضموا اليه من جيش الكوفة. ثم وجه الحسين عليهما السلام خطابه الى جيش الكوفة قائلاً:

«قد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فان تممتم عليّ ببيعتكم تصيبوا رشدمكم، وانا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع انفسكم واهلي مع اهلكم فلكم فيي أسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي ونقضتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بمنكير. لقد فعلتموها بأبني واخي وابن عمّي مسلم بن عقيل. عودوا الى رشدمكم وانسبوني وانظروا هل يحق لكم قتلي وانا سبط النبي ﷺ وابن ابن عمّه وهو اول

(١) ابن سعد، مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٨.

(٢) ابن سعد - تراثنا ص ١٧٨.

القوم اسلاماً واعمامي جعفر والحمزة والعباس. الم تسمعوا رسول الله يقول عنی وعن اخي: «الحسن والحسين سيداً شباب اهل الجنة»، وان لم تصدقوا فاسألو جابر بن عبدالله الانصاري وابا سعيد الخدري وزيد بن ارقم، فهم احياء»^(١).

ولم يكن الحر بن يزيد يتصور حتى ذلك الوقت ان هذه التحرّكات ستنتهي الى حرب جدية مع سبط رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه. ولكنّه لما رأى ان القضية اضحت جادة جاء الى ابن سعد وسأله: ألم يقنعك كلام الحسين؟ فاجابه ابن سعد: «لو كان بيدي لما قتلتنه».

وبعد هذه الاحداث انحاز الحر بن يزيد الى الحسين واعتذر له عما كان منه واختار طريق الشهادة، وكان اول شهيد من انصار الامام الوفياء^(٢).

وكان نهج امير المؤمنين صلوات الله عليه وآله وسلامه في جميع الواقع العسكرية والمعارك أن لا يكون البادئ بالحرب، وها هو ذا ابنه الحسين صلوات الله عليه وآله وسلامه يتّأسي بنهج ابيه فلا يبادر بالحرب. وكان عمر بن سعد هو الذي اطلق اول سهم على جيش الحسين وقال للقوم: «اشهدوا لي عند الامير بأني اول من رمى سهماً على جيش الحسين»^(٣).

وشّبت الحرب، وكانت في أواها على شكل مبارزة فردية فكانت خسائر العدو اكثراً بكثير من شهداء الحسين. فارعب هذا المشهد عمرو بن الحجاج فصاح:

(١) ابن سعد - مجلة تراثنا، العدد العاشر ص ١٨١، ر. ك. ابن الاثير ج ٤ ص ٦١.

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٦٤.

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٦، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٨٣.

«إنكم تقاتلون شجعان العرب ولو لم ترمواهم بالحجارة ليقتلونكم»^(١).

فحمل جيش الكوفة حملة واحدة على الامام واصحابه، واستشهد خلال عدّة معارك جميع انصار الحسين حتى لم يبق معه غير اهل بيته وثم استشهد جميع اهل بيته، وانتهت المعركة باستشهاد الامام مع ٧٠ رجلاً من اصحابه.

دور الانحراف الديني في واقعة كربلاء

لقد حصلت في المجتمع الاسلامي خلال الفترة الممتدة من وفاة النبي الاكرم ﷺ وحتى واقعة كربلاء تغيرات وانحرافات ثقافية جسيمة. وبالرغم من ان غلو وانتشار هذه الانحرافات اتّخذ طابعاً متدرّجاً، لكن الكثير من العلماء يعتقدون ان قواعدها الاولى قد أرسيت في السنوات الاولى التي تلت رحلة النبي ﷺ.

والانحرافات التي تهمّنا في هذا الصدد هي تلك الانحرافات التي استغلّها الحكام لاستغفال الناس وتبّير جورهم واستبدادهم.

وكان لبني أمية دور فاعل في ايجاد ونشر هذه الانحرافات، وكانوا يستغلّونها دائماً للتغطية على تصرفاتهم المعادية والمخالفة للإسلام، لأنهم لم يكونوا قادرين على صياغة شخصياتهم المحايلية المتفرّعة، وآخرتها بشكل ينسجم مع الإسلام. واستخلاف يزيد هو أحد الاحداث التاريخية التي اثبتت ان بني أمية لا يقيمون للإسلام اي وزن، وان تظاهرهم به افأ هو لمجرد التغطية على وجههم القبيح، وتبّير تسلطهم على رقاب الناس واكراه الناس على قبولهم.

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٣١، ابن الاثير ج ٤ ص ٦٧.

وقد وصف الامام الحسين عليه السلام بنى أمية بقوله: «إِنَّ هُؤُلَاءِ قَدْ لَزَمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَانِ وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ وَعَطَّلُوا الْحَدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفَيْءِ»^(١)!

ومن اجل تنفيذ مخططاتهم الشيطانية الفاسدة، عمدوا الى تحريف المفاهيم الاسلامية الاصلية وجعلوا يستغلونها في موارد غير مشروعة. وسنورد فيما يلي امثلة ونماذج لتلك المفاهيم التي امتدت ايديهم اليها بالتحريف، وكان لها دور مؤثر في وقوع حادثه كربلاء المأساوية مع اسناد ذلك بالشواهد التاريخية.

طاعة الانئمة، ووجوب حفظ الجماعة، وحرمة نقض البيعة

تعتبر العبارات الثلاث هذه هي من اكثـر الاصطلاحـات تداولاً على السـنة الكـثير من المـخلفـاء، وربـما يـ肯ـ القـولـ بـانـهاـ كانـتـ تـقـيمـ دـعـائـمـ خـلـافـتـهمـ وـتـضـمـنـ بـقـاءـهاـ وـاسـتـمـارـاـهاـ. والمـصـطـلـحـاتـ الـثـلـاثـةـ المـارـةـ الذـكـرـ صـحـيـحةـ بـاجـعـهاـ وـتـشـتـمـلـ عـلـىـ مـفـاهـيمـ اـسـلـامـيـةـ أـسـاسـيـةـ دـينـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ. وـحتـىـ مـنـ النـاحـيـةـ الـعـقـلـيـةـ اـيـضاـ فـانـ استـمـارـ المـجـتمـعـ وـحـفـظـ الـحـيـاةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ مـنـ الـانـهـيـارـ يـقـومـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـبـادـئـ الـثـلـاثـةـ الـمـهـمـةـ.

صـحـيـحـ انـ طـاعـةـ الـامـامـ تـحـظـىـ بـأـهـمـيـةـ بـالـغـةـ، لـأـنـ طـاعـةـ الـامـامـ تـعـنيـ اـتـبـاعـ النـظـامـ الـحـاـكـمـ، وـلـكـنـ هـلـ يـجـبـ اـطـاعـةـ ايـ اـمـامـ وـلـوـ كـانـ جـائـراـ؟ـ اـمـ انـ الـامـامـ يـجـبـ اـنـ يـتـمـتـعـ بـجـمـلـةـ مـنـ الشـرـوـطـ وـالـصـفـاتـ وـمـنـ ضـمـنـهاـ الـعـدـالـةـ وـالـتـنـفـيـذـ الصـحـيـحـ وـالـدـقـيقـ لـلـاحـکـامـ الـاسـلـامـيـةـ؟ـ

(١) البلاذري - ج ٢ ص ١٧١، ابن الأعثم ج ٥ ص ١٤٤، الطبرى ج ٤ ص ٣٠٤.

وما يُؤسف له ان عدم وجوب العدالة اصبح امراً مقبولاً من الناحية العملية، بل من الناحية النظرية ايضاً ارتضاه عدد كبير من الناس.

والمحافظة على الجماعة تعني عدم اثارة الاضطرابات والفتن وعدم القيام بما من شأنه تفريق وحدة الصدف، وزعزعة المجتمع، ولكن هل يمكن الصمت ازاء التسلط الاستبدادي والحاكم الفاسق؟ واذا ارتفع صوت بالاحتياج ضد مثل هذه الحكومة، هل يجب اعتباره اخلاً بالنظام الاجتماعي وتفریقاً لوحدة الجماعة؟!

اما عدم نقض البيعة فقد اثني عليه الاسلام كثيراً باعتباره تمسكاً بالعهد، وبالغ في مذمة نقض العهد والبيعة، ولكن اذا كان المبایع مثل يزيد او البيعة المنقوضة مثل بيته فهل يخل ذلك بالجماعة؟ بل ويتسع في هذا المبدأ بحيث يُدان المُعترض ويُستنكر فعله ام يجب استثناء مثل هذه الموارد من المبدأ المذكور؟

وكما سبقت الاشارة فان خلفاء بني امية ومن بعدهم خلفاء بني العباس استغلوا هذه المفاهيم بشكلها المحرف - اي بمعنى الاستفادة من هذه المبادئ الثلاثة مخدوفاً منها الشروط والضوابط التي وضعها الاسلام لها - وبهذا الشكل كانوا يدفعون الناس الى القبول بمحکمهم.

فعندما اراد معاوية اخذ البيعة ليزيد ذهب الى المدينة لكي يكره المعارضين فيها على المبایعة ايضاً، وكانت عائشة من جملة المعارضين، لأن اخاها محمد بن ابي بكر قد قتل على يد معاوية، ولما عرض عليها موضوع البيعة خاطبها قائلاً:

«انني قد اخذت البيعة ليزيد من جميع المسلمين، فهل تُبَيِّن لِي نقضها. فاعتبر تلك البيعة التي ثبتت كأنها في حكم العدم وان يخلع الناس عهودهم»؟

فقالت له عائشة: «أني لا أرى ذلك ولكن عليك بالرفق والتأني»^(١).

وهذه الحالة-تبين لنا كيف أن عائشة قد لانت وتساهلت في مبدأ نقض البيعة وتركت معاوية حاليه. لأن مبدأ عدم نقض البيعة وبالشكل الذي استغلّه معاوية هو من نتاج افكار عائشة وامثالها.

يقول ابن اسحق: كنا نصلّي (ظاهراً في المسجد الحرام) وكان شمر بن ذي الجوشن يصلّي معنا ايضاً. وبعد الصلاة رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنك تعلم أني رجل شريف فاعف عنّي. فقلت له: وكيف يغفو عنك وانت من اشتراك في قتل سبط الرسول؟ فقال: وما عسانا ان نفعل؟ لقد امرنا أمراً وفعل ذلك، وكان ينبغي علينا فعل ما أمرنا به وان لا نعصي لهم امراً، لأننا لو عصينا، لكننا شرّاً من هذه الحمير السقاعات^(٢).

وقال ابن زياد لمسلم بن عقيل بعد القبض عليه:

«يا شاقٌ خرجت على امامك وشققت عصا المسلمين؟»^(٣).

وقال شرطة عمرو بن سعيد بن العاص (والى مكة) للإمام الحسين عليهما السلام اثناء خروجه منها: «الا تتقى الله تخرج عن الجماعة وتفرق بين هذه الامة»^(٤).

ويعلل عمرو بن الحجاج احد قادة جيش الكوفة تلك الجريمة ويقول مفتخراً:

(١) ابن الأعثم- ج ٤ ص ٢٣٧، ابن قتيبة. المصدر السابق ج ١ ص ١٨٣.

(٢) ابن سعد تراثنا، العدد العاشر ص ١٩٧، ابن حجر، لسان الميزان ج ٢ ص ١٥٢ الحمير السقاعات.

(٣) ابن الأعثم ج ٥ ص ٩٨.

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢٨٩.

«إتنا لم نعص امامنا ولم نفارق الجماعة»^(١).

وعندما كان يحيّ جيش الكوفة على القتال كان يقول لهم:

«الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق عن الدين وخالف

الامام»^(٢).

وكان رجل مثل عبدالله بن عمر - وهو من جملة فقهاء اهل السنة
ومحدثهم - يعتقد لو ان الناس بايعوا رجلاً فاسقاً وغير كفؤ مثل يزيد، يجب
عليه انه يقبل البيعة. وهذا فقد قال معاوية بشأن بيعة يزيد:

«فإذا اجتمع الناس على ابنك يزيد لم أخالف»^(٣).

وكتب أناس من امثال عمرة بنت عبد الرحمن بن عوف الى الامام
الحسين عليهما السلام ما يلي: «التزم الطاعة وتمسك بالجماعة واعتبرها واجبة عليك»^(٤).

الاعتقاد بالجبر

ان أحد المواضيع التي كان لها دور منحرف في تاريخ الاسلام خاصة في
واقعه كربلاء هو الاعتقاد بالجبر، يقول ابو هلال العسكري: «ان معاوية كان هو
المبتكر له»^(٥).

(١) نفس المصدر ص ٢٧٥.

(٢) الطبرى - ج ٤ ص ٣٢١.

(٣) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٦٧.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) ابو هلال العسكري - الاوائل - ج ٢ ص ١٢٥.

فقد قال عن بيعة يزيد:

وان أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للقضاء الخيرة من امرهم»^(١).

وقال عبيد الله بن زياد للامام السجاد: «أولم يقتل الله عليا؟».

فقال له الامام: «كان لي أخ يقال له علي، اكبر مني قتله الناس؟»^(٢).

ولما تعرّض عمر بن سعد للانتقاد والمذمة لمشاركته في قتل الامام الحسين طلب قال: «كان ذلك قدرأً من الله مقدراً»^(٣).

وكان كعب الاخبار اليهودي المتظاهر بالاسلام يطلق لبني أمية ويقول رجماً بالغيب: «ان الخلافة لن تصير الى بني هاشم».

رغم ان الخلافة والحكومة صارت فيما بعد بيد العباسين والعلويين وكلاهما من بني هاشم ونُقلت نفس هذه النبوة ايضاً عن عبدالله بن عمر انه قال: «فاما رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان»^(٤).

وبناءً على هذه التحريرات لم يعتبر الكثير من المؤرخين والباحثين السنة ثورة الامام الحسين طليلاً ثورة ضد الفساد، ووصفوها بأنّها تمرّد غير شرعي لا أكثر^(٥).

(١) ابن قتيبة - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧ و ١٨٣.

(٢) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٨٨.

(٣) ابن سعد تطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٤٨ ط بيروت.

(٤) ابن عساكر - ترجمة الامام الحسين من تاريخ دمشق ص ١٩٣.

(٥) تاريخ الاسلام - جامعة كامبردج ج ١ ص ٨١ النص الانجليزي. وراجع كتاب الشبراوي الاتحاف بحب الاشراف، ترجمة الحسين طليلاً.

موقف أهل الكوفة من واقعة كربلاء

ورد في كتب التاريخ كما شاع بين الناس بما يشبه المثل ان أهل الكوفة اهل غدر وخيانة وقلما تجد لهم وفاءً بالعهد، وقد اشرنا سابقاً الى نفسية اهل الكوفة وقلنا انهم كانوا عجولين وانهم يتغزلون دوماً في اتخاذ قراراتهم وغالباً ما كان ينتهي ذلك بضررهم وضرر حكامهم. فقد كانوا سريعي الغضب وسريعي الرضى يسارعون الى الاستسلام كما يسارعون الى التردد، وهذه الصفات الى جانب بعضها كانت النفسية السائدة عند أولئك القوم. وسنتحدث فيما يلي عن موقفهم من حادثة كربلاء.

كان أهل الكوفة يتألفون من مجموعة من القبائل المختلفة التي كانت تركيبتها عرضة للتغيير والتبديل اثناء الادوار المختلفة للحكام. وكانت تلك التغييرات في تقسيمات القبائل تتم بما يتناسب ومصالح الحكام. وفي نفس الوقت كان الحكام يراغعون رؤساء القبائل واسرافها لعلمهم بأن نفوذهم وسيطرتهم في كثير من الحالات اكثراً وقوى من سيطرة ونفوذ الحكام والولاة.

وكان الشيعة يؤلفون جزءاً من سكان هذه المدينة. ورغم ان بعض القبائل اشتهر بالتشييع الا أنه لا يمكن القول ان القبيلة الفلانية كان جميع افرادها شيعة. وهكذا فان الشيعة كانوا ينتشرون في القبائل ولم يكن فيها بينهم انسجام كامل، وكانت تحكمهم النزعات القبلية الخاصة إضافة الى تلك النفسية الكوفية التي تهيمن عليهم.

ولم يكن عدد الشيعة آنذاك كبيراً جداً، اذ ذكر ان حجر بن عدي عندما وقف في مسجد الكوفة بوجه زياد اضمه اليه نصف او ثلث الحاضرين في المسجد.

لكن الكثير منهم كانوا يشأعون اولاد علي في المسائل السياسية فحسب فيصدق على هؤلاء الاشخاص كلمة التشيع السياسي اكثر من كلمة التشيع العقائدي. وبناءً على هذا لم يكن شيعة امير المؤمنين عليهما السلام الحقيقين كثيري العدد والعدة.

لا شك ان اهل الكوفة استدعوا الامام الحسين عليهما السلام ولم ينصروه، بل قد كان لهم دور مباشر في قتله. لكن علينا أن نرى من هم أولئك الناس؟ ومن الذين كتبوا الكتب ولماذا لم ينصروه؟ ...

لابد من الاشارة اولاً الى ان نمط التفكير الشيعي في الكوفة قد احرز تقدماً ملفتاً للنظر، فان اهل الكوفة لم يعارضوا الامويين فحسب بل وعارضوا بني العباس ايضاً لأنهم غصبوا حق آل علي في الحكم. وهذا السبب نجد المؤرخين والمحدثين المرتبطين بالبلاط الاموي كانوا شديدي الكراهية لأهل الكوفة وكذلك الحال بالنسبة للعلماء المرتبطين بالسلطات العباسية فانهم كانوا ينظرون الى الكوفة بنفس تلك النظرة الحاقدة. والظلم الذي تعرضت له الشيعة لم يكن منحصراً بالظلم السياسي فحسب بل تعداً الى الناحية الفكرية والعقائدية اذ كان الشيعة يُتهمون دوماً بالكفر والانحراف عن الاسلام من قبل العلماء المأجورين. وهذا أمر لابد من ملاحظته والامعان فيه عند مطالعة ونقل الاحداث التاريخية، فان المؤرخين كانوا ينظرون الى الواقع التاريخية من منظار معادٍ للتشيع وحاقدٍ على الشيعة. ومن خلال الالتفات الى هذه النقطة يتحقق لدينا ان مثل هؤلاء المؤرخين يحاولون دائماً وصف الشيعة بعدم الوفاء، ويلقون بجريدة عدم دفاع الكوفة عن الحسين عليهما السلام في رقاب الشيعة. في الوقت الذي سيظهر على ضوء الملاحظات التالية ان اهل الكوفة كانوا لا يقرون على الدفاع عن الامام الحسين عليهما السلام لعدم توفر المعنويات الكافية لذلك، فلو أنهم عزموا على التضحية الى حد الايثار لكان

بإمكانهم تغيير الوضع الى حد ما. هذه خلاصة رأينا في هذا الصدد وسنستعرض فيما يلي مجموعة من الشواهد التي تثبت ذلك:

لقد كان بإمكان اهل الشام ان يتحملوا يزيداً بكل سر وسهولة، لكن هذا الامر كان في منتهى الصعوبة بالنسبة لاهل الكوفة، لذا فعندما استخلف يزيد شرع اهل الكوفة برفع لواء المعارضة، ونظرأ لأن الكثير من اهل الكوفة لم يكن لديهم البديل المناسب ليزيد، فقد توجهوا صوب الحسين بن علي عليه السلام. وفي هذا السياق نلاحظ انه عندما وجهت الدعوة من قبل الشيعة فانها قد حظيت ليس فقط بدعم الناس العاديين ذوي القلوب الطيبة والتوايا الصافية -وهذا ما تتصف به الطبقة العامة من كل شعب- بل وحظيت كذلك بدعم رؤساء القبائل والجماعات الذين وجدوا مناصبهم مهددة بالخطر او الذين تأثروا بالاجواء الروحية والمعنوية التي سادت عامة الناس فاظهروا تعاطفهم مع الثورة ودعمهم لها. فكان نتيجة ذلك ان ساد الكوفة جو كاذب من الدعم والتأييد للامام، وقد ساعد على اشاعة هذا الجو وضعية والي الكوفة آنذاك النعيم بن بشير اذ كان رجلاً هادئاً يؤثر العافية واستمر هذا الجو في الانتشار بسرعة وعلى نطاق واسع الى حين تسلّم ابن زياد ولاية الكوفة.

لكننا لو امعنا النظر في خطبة الامام الحسين عليه السلام التي قال فيها:

«وما كانت كتبكم الي الا مكيدة لي وتقرباً الى ابن معاوية»⁽¹⁾ لظهر امامنا احتفال آخر ايضاً بشأن الدعوة التي وجهها اليه اشراف الكوفة، وهو أنهم أثاروا مثل هذه الجو عن قصد، لكي يجربوا الامام الى العراق حتى يقتل بتلك الصورة

(1) البلاذري، ج 2 ص 185، ابن الأعثم ج 5 ص 169.

المأساوية.

وعلى اي حال فقد كان القسم الاعظم من ذلك الجو ايجابياً، حتى ان مسلم حمل نفس الانطباع ايضاً بعد مشاهدته لأوضاع الكوفة وكتب الى الامام يستدعيه اليها على اساس ذلك الانطباع.

ضغط ابن زياد على اهل الكوفة

قلما تجد أنساً يجرأون على اعلان معارضتهم لأية سلطة او يبدون مقاومة لها فيما اذا كان على رأس تلك السلطة طاغوتاً متجرراً جائراً.

في عهد حكومة النعمان بن بشير الذي كان رجلاً متساهلاً ولا يتدخل كثيراً في امور الناس، كان اهل العراق يعبرون عن آرائهم ومعتقداتهم بحرية ومن جملة ذلك ميلهم نحو آل بيت النبي ﷺ، وعلى هذا الاساس اعلنوا مساندتهم لمسلم عند دخوله الكوفة. الا أن مجيء ابن زياد وجلوسه محل النعمان قد غير الاوضاع في الكوفة رأساً على عقب.

لقد ارعبت قسوة ابن زياد نسبة كبيرة من اهالي الكوفة، حيث رأى أولئك الملولون المتأرجحون الذين يتعجلون في قرارتهم ولا يثبتون على امر انفسهم، مهددين من قبل ابن زياد ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل انهم انهاروا تماماً في ظل الشائعات التي تشير الى قرب وصول جيش الشام.

وقد اتسع نطاق هذا التراجع والتخاذل عندما تأكّد اشراف الكوفة من ثبات واستقرار حكم بني أمية فانضموا الى ابن زياد ولم تكن عامة الناس يرون من مصلحتهم معارضته رؤساء قبائلهم كما حصل عند هجوم مسلم على دار ابن

زياد، اذ ان الاشراف هم الذين اوصلوا انصار مسلم الى اقل عدد ممكن عن طريق الترغيب والترهيب، واثبتو بذلك مدى قدرتهم على التأثير في الناس^(١).

بل لو ان احد رؤساء القبائل اعلن معارضته فان افراد قبيلته ما كانوا يجرؤون على مساندته في مقابل استبداد ابن زياد. واذا كان هذا وضع المساندة والحماية القبلية الذي كان يعتبر الاكثر اهمية وتأثيراً في المجتمع العربي آنذاك، فاذا سيكون عليه حال مساندة الامام الحسين عليهما دينياً. فان هاني بن عروة، رئيس قبيلة بني مراد، كما ينقل عنه المؤرخون كان اذا اراد الخروج للحرب سار معه اربعة آلاف فارس، وثمانية آلاف راجل. ولو اضفنا اليهم قسمان بني مراد من كندة لبلغ جيش هاني الثلاثين الفا. ورغم كل هذا فلما قبض عليه وسحبوه في سوق الكوفة -كما امر ابن زياد- ظل يستغيث ويندب قبيلته لكن احداً لم يغشه ولم يلبّ نداءه^(٢). ومن ثم قُتل بعد ذلك ولم يتجرأ احد على الاعتراض.

وعندما أجبر الامام الحسين عليهما على النزول في كربلاء خطب ابن زياد بالناس وكلمهم بلغة الترغيب والترهيب وحثّهم على المشاركة في قتل الامام قائلاً:

«فأيما رجلٍ وجدناه بعد يومنا هذا متخلّفاً برئت منه الذمة»^(٣).

وهذا يعني انه هدد المتخلفين بالقتل.

وفي هذا السياق امر ابن زياد القعّاع بن سويد بلاحقة المتخلفين وتقديهم

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٧٧.

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ٥٩.

(٣) البلاذري - المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٨ ، الدينوري - الاخبار الطول ص ٢٥٥.

اليه. فقبض هذا على رجل من قبيلة همدان كان قد جاء الى الكوفة في طلب ارث ابيه، وقدمه اليه على انه متخلّف فضرروا عنقه كما امر ابن زياد. ومنذ ذلك الحين، كما يذكر بعض المؤرخين، «لم يبق مُحتلّم بالكوفة الا خرج الى العسكر بالنخيلة»^(١).

وبدأت السيوف تتأهب لقتل الحسين عليه السلام بينما يمكن القول وبكل اطمئنان وثقة ان الخيار لو ترك للناس لما فعلوا هذه الفعلة، عندها يمكننا ان ندرك بشكل افضل معنى مقوله الفرزدق في وصفه لأهل الكوفة: «قلوهم معك وسيوفهم عليك»^(٢).

او كما ورد في رواية أخرى انه قال:

«أنت احب الى الناس، والقضاء في السماء، والسيوف مع بني أمية»^(٣).

ولم يكن بيسور الناس في ظل تلك الظروف عدم التوجه الى كربلاء لأن عدم الذهاب كان يعني القتل. ولم يكن امام الشيعة او غيرهم من لم يكونوا راغبين في الذهاب سوى طريقين لا ثالث لها: اما الانضمام الى الامام او الابتعاد عن دائرة الصراع.

ولا ريب ان ما ذكرناه لا يعني اعدار الناس من جهة التكليف الديني.

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٩٠، ابن الأعثم ج ٥ ص ١٢٤ - ١٤٠، الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٤٥.

(٣) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٧١، ترجمة الحسين من تاريخ دمشق ص ٢٠٦.

فرار الناس وانحيازهم الى معسكر الحسين

تفيد بعض الروايات القديمة جداً بأن اهل الكوفة كانوا يُرسلون بالتهديد والاكراه لمحاربة الامام الحسين عليه السلام ، وهذا السبب فقد فرَّ الكثير منهم في وسط الطريق والتحقوا بمعسكر الامام الحسين.

فإن الأرقام المنشورة عن عدد جيش ابن زياد في كربلاء هي عادة الأرقام المنشورة في اثناء تعبئة الجيش في التخلية، في حين ان الذين حضروا كربلاء من مجموع الجيش المرسل من الكوفة -وكما سيتضح فيما بعد- لا يتجاوز العشرة آلاف رجل بل ربما كان اقل من ذلك .

ولا يشكل هذا الرقم سوى عدد ضئيل من سكان الكوفة الذين ينقل بعض المؤرخين انه كان يحضر في مسجدها وحده اربعون ألفاً^(١).

والذي يظهر لنا من مجموع النقاط السابقة ان الكثير من الناس كانوا قد اخروا انفسهم في الكوفة، او هربوا من الجيش في منتصف الطريق.

كتب البلاذري بهذا الصدد: «وكان الرجل يبعث في الف فلا يصل الا في ثلاثة او اربعمائة واقل من ذلك كراهة منهم لهذا الوجه»^(٢).

وكتب الدينوري ايضاً: «ان ابن زياد كان اذا بعث قائداً وارسل معه عدداً كبيراً من الجنود الى كربلاء فانهم يصلون الى كربلاء ولم يبق منهم الا القليل كانوا يكرهون قتال الحسين فيرتدعون فيختلفون»^(٣).

(١) التشيع في مسار التاريخ ص ١٦٠ «النص باللغة الانجليزية».

(٢) البلاذري انسان الاشراف ج ٢ ص ١٧٩.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٤.

وكان ايضاً من اهل الكوفة من يحاول الانضمام الى الامام ، فرغم أنَ الامام لم يض على وصوله الى كربلاء حتى استشهاده اكثر من ثانية أيام وان الكثير من الناس لم يكن يتصور ان القضية جادة الى هذا الحد. فهذا الحرس بن يزيد مع منصبه العسكري لم يدرك وخامة الوضع حتى صباح العاشر من المحرم فانحاز الى الامام. ولهذا السبب فان اكثر الشيعة وان كانوا قد عقدوا العزم على مساندة الامام فانهم لم يتجلوا في الأمر، ولم يكن احد منهم يفكّر في الانضمام الى الامام سوى ثلة قليلة من الرجال من جملتهم نافع بن هلال المرادي، وعمر بن خالد الصيداوي، وسعد من موالي عمر بن خالد، وجمع بن عبدالله العائذى وهم من قبيلة مذحج وقد التحقوا بالامام^(١). ورغم كل ذلك فقد استطاع الانضمام اليه ايضاً قبيل حلول اليوم العاشر كل من مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر. وكما التحق به -استناداً الى رواية ابن سعد- ٢٠ رجلاً صبيحة عاشوراء^(٢). وذكر ابن قتيبة انهم كانوا ٣٠ رجلاً^(٣).

يقول ابن سعد وهو من اقدم رواة التاريخ: «جعل الرجل والرجلان والثلاثة يتسللون الى الحسين من الكوفة».

و عمليات الهروب هذه هي التي دفعت ابن زياد الى البحث عن حلّها. فامر عمرو بن حرث بحث الناس للجتماع في النخيلة وهو معسكر الكوفة الشهير، والسيطرة على الجسر الذي يمر من خلاله طريق الكوفة الى كربلاء، ومنع

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ٧٢.

(٢) ابن سعد، تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨.

(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسية ج ٢ ص ٧.

الأشخاص الذين يحاولون التوجه الى معسكر الحسين عليهما السلام^(١). كما امر الحسين بن غير بمراقبة المنطقة الممتدة من القادسية وحتى قطعهانة، فلا يسمح بالمرور الا من يتأكد انه متوجه الى مكة، وينع اوئل الذين يريدون الوصول الى الحسين عليهما السلام عن طريق الحجاز^(٢).

كما كتب الى واليه في البصرة ان ينصب الكائن ويراقب جميع الطرق ويعتقل من يريد الذهاب من هذه الطرق نحو الحسين عليهما السلام وامر كذلك بمراقبة جميع الطرق بين واقصه في طريق الشام وحتى طريق البصرة، ولا يدعون احدا يلتج ولا أحدا يخرج منها»^(٣).

لقد تمت مراقبة الطرق والسيطرة على مراكز المواصلات بشكل دقيق، حتى ان سبعين رجلاً من قبيلة بني اسد كانوا يقيمون على مقربة من كربلاء، وكانوا قد عزموا على الانضمام الى معسكر الحسين بتشجيع من حبيب بن مظاهر، فتم ابعادهم من تلك المنطقة على يد أرصاد ابن زياد^(٤). وكان لهذه السيطرة اثارها الفاعل في عدم مساندة اهل الكوفة للامام. وبالاضافة الى هذا العامل كانت هناك ايضاً عوامل اخرى منها:

١ - كانت عدّة شخصيات متقدمة من اهل الكوفة حبيسة سجون ابن زياد من ضمنهم المختار بن ابي عبيدة.

٢ - لقد مورس التهديد بوحشية وقسوة بالغة طالت حتى غير الموالين لأبي

(١) ابن سعد، تراثنا، العدد العاشر ص ١٧٨.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٣.

(٣) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٧٣ ، الطبرى ج ٤ ص ٢٩٥.

(٤) البلاذري - المصد السابق - ج ٢ ص ١٨٠ ، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٦٠.

الفرقين فشلهم القتل والتعذيب فما بالك بن يزيد الانضمام الى جانب الحسين عليهما السلام.

٣ - وكان الترغيب عاملاً آخر ذا أهمية بالغة ايضاً، فقد خطب ابن زياد يوماً بأهل الكوفة فقال: «إن يزيد بعث باربعة آلاف دينار ومائتي درهم لأقسامها بينكم ثم أوجهكم الى كربلاء لمقاتلة عدوه»^(١).

تعلق الناس بالعطاء

لما رأى الإمام تصميم أهل الكوفة على قتل سألهم في خطابٍ له:

«يا هؤلاء اسمعوا يرحمكم الله ما لنا ولكم، ما هذا بكم يا أهل الكوفة؟
قالوا: خفنا العطاء. قال: ما عند الله من العطاء خير لكم»^(٢).

لكن أحداً منهم لم يلتفت الى كلامه. فقد ظهر لنا من مجموع هذه الشواهد ان بعض الناس - ومنهم الاشراف والمرتبطون بهم - كانوا من الاجرام وسوء الخلق ما يمكن معه نعتهم باقبح الاوصاف والنعوت البذيئة. ورغم كل ذلك فقد كان في الكوفة - مع ما كان يسودها من اجواء الاستبداد والطغيان - اشخاص كثيرون يودون الالتحاق بالامام فلا يستطيعون.

ومن الملفت للنظر هنا ان البلاذري قال: «كان سعد بن عبيدة يقول: الكثير من شيوخنا من أهل الكوفة كانوا يرتفعون ايديهم فوق التلال بالدعاء ويقولون: اللهم انزل عليه نصرك. فقيل لهم: يا اعداء الله الا تنزلون

(١) ابن الأعجمي ج ٥ ص ١٥٧.

(٢) ابن سعد. تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨.

تقويم سفر الامام الحسين عليلة الى العراق

نحاول فيها يلي وبغض النظر عن بعد الغيبي لحادثة كربلاء وهو ما سنأتي على شرحه في فصل آخر وضع تقييم سياسي ملخص لسفر الامام الحسين عليلة الى العراق. فهل كان للامام طريق آخر سوى الذهاب الى العراق أم لا؟ وهل كان من المحتمل ايجاد مركز للمعارضة ضد حكومة آل أمية، وبلورة ثورة تطیح بعرش يزيد؟

فنحن نواجه في كتب التاريخ سلسلة من الاعتراضات التي طرحت من قبل شخصيات متعددة ترکز بأجمعها على نقطة واحدة، هي ان سفر الامام عليلة الى العراق لن يحقق اية فائدة ولا ينطوي على مصلحة. وفي اعقاب معارضة الامام لموضوع البيعة وتوجهه نحو مكة، كان احتلال السفر الى العراق مطروحاً. فهناك بعض الروايات تشير الى أن عبدالله بن مطیع حذر الامام من الذهاب الى الكوفة وهو لا زال في منتصف الطريق بين المدينة ومكة^(٢).

ولما دخل الامام مكة كان عدد المعارضين يتزايد بشكل ملحوظ. ونشير فيها يلي الى عدد من الشخصيات التي كانت تعارض ذهاب الامام الى الكوفة.

١ - عبدالله بن عباس؛ حيث اقترح على الامام صرف رأيه عن الذهاب الى العراق، والتوجه بدلاً من ذلك نحو جبال الين لأن هناك منطقة جبلية مناسبة للكر والفر هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن عدد شيعة ابيه كبير جداً هناك.

(١) البلاذري ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) ابن الاعثم - ج ٥ ص ٣٧، الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٨٨.

لذلك فان المكان الوحيد الذي يضمن سلامة الامام هو ذلك المكان ^(١).

٢ - محمد بن الحنفية ؛ وقد عرض نفس هذا الاقتراح حسب رواية ابن الاعثم ^(٢).

٣ - عمرو بن عبد الرحمن بن هشام حيث قال: «الناس عبيد الدينار والدرهم وهما اليوم بيد الحكام، فاياك أن تذهب الى العراق» ^(٣).

٤ - عبدالله بن عمر فقد كان يضع امام الحسين ^{عليه السلام} وينتهي الرعب والخوف موضوع اراقة الدماء بين الامة ^(٤).

٥ - عبدالله بن جعفر حيث كان يشير الى مقتل الامام في العراق ويقول: «إني اخاف ان يطفأ نور الله وانت روح المدى وامير المؤمنين، فلا تعجل الى العراق فاني اخذ لك الامان من يزيد» ^(٥).

٦ - ابو سعيد الخدري، إذ يحتمل انه قال له: «لا تخرج على امامك» ^(٦).

٧ - مسور بن مخرمة ؛ كتب للامام: لا تغتر باهل العراق ^(٧).

(١) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢٤. ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٣ ، الطبرى ج ٤ ص ٢٨٧.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ٣٢.

(٣) البلاذري - المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦١، ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٠ ، الطبرى ج ٤ ص ٢٨٧.

(٤) ر. ك. البلاذري ج ٢ ص ١٦٢، ابن الاعثم ج ٥ ص ٣٩، ابن سعد، تراثنا العدد العاشر ص ١٦٦.

(٥) ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٦ ، الطبرى ج ٤ ص ٢٩١.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) نفس المصدر السابق.

٨ - ابو واقد الليثي ، وقد قال للامام ما قاله مسّور بن مخرمة^(١) .

٩ - الفرزدق ، حيث قال للامام في منتصف الطريق بين مكّة والковفة: «قلوب الناس معك وسيوفهم عليك»^(٢) .

ويلاحظ في كتب التاريخ الكثير من هذه الاعتراضات او النصائح المشفقة ، ويحتمل ايضاً ان يكون الكثير من الرواية المغرضين هم الذين اتحلوا مثل هذه القائمة الطويلة لغرض تحطّة موقف الامام علي^(٣) .

الجواب على الاعتراضات

و قبل أن نذكر استدلال الامام نفسه بخصوص سفره الى العراق يجب اولاً استعراض مقدمة توضّح لنا الارضية التي يقوم عليها ذلك الاستدلال .

ان تاريخ السياسة في الماضي والحاضر يعكس لنا حقيقة واضحة هي إنّ كل شخص يسعى لتحقيق اهداف سياسية معينة لا يتحققها غالباً من غير ان يواجه اية موانع او عراقيل . فمن يسعَ لاستلام السلطة او اي هدف آخر سلبياً كان او ايجابياً يتعامل دوماً مع الاحتلالات . وفي عالم السياسة يتعرض حتى اكثرا الناس نجاحاً وشعبية الى مخاطر مثل الاغتيال و... لذلك يجب أن لا نفكّر تفكيراً مثاليّاً ونتصور انه يجوز لنا التحرك فقط في الظرف الذي نرى فيه الوصول الى الهدف بات قطعياً ولا يوجد هناك اي احتمال للخسارة او الفشل ، فان مثل هذا التصور لا تؤيده الحقائق التاريخية مطلقاً ، بل انها تعكس لنا سذاجة من يحمل مثل هذه

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٢) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٦٥ .

الرؤى السياسية.

ولا يختلف الامر هنا ايضاً فيجب أن لا نتصور ان الامام كان مطمئن بالالى شأن نجاحه في هذا السفر ولم يكن يتوقع ادنى احتمالاً للفشل. فلن لا يقبل سفر الامام اساساً لا ينبغي له ان يذكر شاهداً تاريخياً بأن احتمال الفشل كان قائماً، ومن يقبل بسفر الامام لا ينبغي له ان يتوهם بأن احتمال الفشل لم يكن قائماً مطلقاً. لان اهل الكوفة قد أختبروا قبل هذا ايضاً.

ومع اخذ هذا الامر بنظر الاعتبار، يجب اولاً ان ندرس وضع الامام في تلك الظروف ثم ندخل في حساباتنا الشواهد التاريخية والاجراءات التي اتخذها الامام ونقيم على اساسها مسألة هجرته الى العراق.

لقد كان الامام يأبى مصالحة يزيد والاقرار بمحكمته، وان أدى ذلك الى استشهاده. وكان يسعى في نفس الوقت -فيما لو امكن- الى اشعال فتيل الثورة ضد يزيد وانقاد حكومة المجتمع الاسلامي من مخالب بني أمية.

كانت هذه هي الحدود التي تحدد ملامح التفكير السياسي لدى الامام، وكان على الامام اختيار طريقه ضمن هذا الاطار، ليطرح على ضوء ذلك آرائه وردود فعله تجاه الاقتراحات والاعتراضات وحيث كان هذا الاطار لا يقبل التغيير ابداً. لذا فان اي اقتراح لا ينسجم معه بشكل من الاشكال يعتبر اقتراحًا مدانًاً ومرفوضاً من قبل الامام.

ومن جهة أخرى فان عالم السياسة آنذاك له اطاره الخاص ايضاً وتشكل الاحتمالات جزءاً منه، اذ كان يفترض على الامام ايضاً مطابقة نفسه معها، بحيث لا يتعرض اطاره الخاص الى الانحراف والتغيير اثناء العمل، ولا يسير في اتجاه

معاكس للحقائق الموجودة آنذاك.

ووفقاً للمتطلبات السياسية السائدة في ذلك العصر، لم يكن يزيد ليسمح لرجل كالامام الحسين عليه السلام بعدم مبايعته ويتركه على قيد الحياة، لأن الحسين عليه السلام يكن بالشخص الذي لا يبالي بأمر يزيد، ويحيا حياته العادلة كرجل غير مسؤول. لذا فان الخيار الوحيد امام يزيد هو قتل الامام في حالة عدم مبايعته. ومن ناحية أخرى فانه لم يكن لدى الشام بل ولا المدينة ومكة أو الحجاز واليمن و... المقومات والظروف الملائمة للمقاومة والدفاع امام يزيد، ومساندة ودعم الحسين عليه السلام والخليولة دون قتله. وليس غير الكوفة منطقة تتتوفر فيها امكانية الدفاع او المقاومة. ومع ان سوابق الكوفة وسلوك اهلها مع امير المؤمنين عليه السلام والامام الحسن عليه السلام في مواجهة الاعداء كان يضعف هذا الاحتلال، لكن تلهف اهل الكوفة لقدم الامام اليهم، والوعود التي قطعواها بالتصدي لبني امية، ومساندة الامام، والرسائل والكتب التي انهالت على الامام من سادة الكوفة واسرافها وعامة اهلها كان يقضي على هذا الضعف. وكلما كان اصرار الناس على دعم الامام يزداد كلما ازدادت معه نسبة احتلال نجاح الامام في مقابل العدو، لكن الاحتلال الخاطر والفشل لم يكن قد زال مائة بالمائة.

فلو لم يبادر الامام الى انتخاب هذا الطريق، ما الذي كان ينبغي له ان يفعله؟ هل كان يزيد بالشخص الذي يرضى ببقاء الامام حياً لو لم يبايع؟ وهل كان الامام بالشخص الذي يبايع يزيد ولا يبالي بالاوضاع اللاحادية والمعادية للإسلام التي تحتاج المجتمع والامة الاسلامية ووقف ازاءها موقف المترفج ويعيش شخص غير مسؤول لا يفكر سوى في حياته ومعيشته ومصالحه؟ ولو ان الامام لم يذهب الى الكوفة وبقي في مكة حتى قُتل فيها. ألم يكن

هؤلاء الاشخاص يقولون لماذا تجاهل الحسين كل هذه الكتب التي وردتة من الكوفة ولم يستجب لاصرارهم ولم يلبّ دعوتهم وينذهب الى هناك لكي يأمن المخاطر في ظل فرسان الكوفة، وليحقق اهدافه السياسية بنجاح باهر؟

واما اعتراض المعارضين فقد كان يدور غالباً على عدم خروج الامام عليه السلام وهو ما كان يعني قبول حكومة يزيد من قبله، وهو امر لا يستسيغه الامام قطعاً.

بل إن الامان الذي كان عبدالله بن جعفر يريد اخذه له من يزيد، كان يوحي بهذا المعنى أيضاً. لأن أمان يزيد كان سيكون مشروطاً طبعاً بعدم خروج الامام، في حين ان الامام ما كان ليخضع مطلقاً لبيعة يزيد.

لذا الآن كيف يعلل الامام نفسه هذه المسألة وكيف تثبت الشواهد التاريخية ذلك.

إنّ من جملة النقاط التي اشار اليها الامام مرات متعددة هي ان يزيد وعّاله لم يكونوا يسمحون للامام بمواصلة حياته في مكة، وأنه سيقتل على ايّة حال. ونشر فيما يلي الى عدّة موارد:

١ - قال الامام الحسين عليه السلام ردّاً على اعتراض ابن عباس: «لئن أقتل خارجاً منها بشبرين احبّ اليّ من أن أقتل خارجاً منها بشبر»^(١).

٢ - وقال ردّاً على اعتراض ابن عمر: «ان القوم لا يتركوني.. فلا يزالون حتى أبایع واني کاره فيقتلونني».

٣ - وقال ردّاً على اعتراض آخر ما يلي: «لو كنت في حجر هامة من هوا م

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٦٤، ابن الاعثم، ج ٥ ص ١١٣.

الارض لاستخرجوني وقتلوني»^(١).

٤ - وقال في موضع آخر لما سُئل عن سبب تعجيله: «لو لم أتعجل لأخذت»^(٢).

٥ - وقال في موضع آخر ايضاً: «ان بنى أمية اخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت»^(٣). هكذا كان الامام عليه السلام يدرك الامر، ولا يوجد شاهد واحد يدل على ان الامام ان لم يبايع يزيد بقي حياً.

واما الجانب الآخر من القضية وهو موضوع سفر الامام الى العراق، فانه حين قرر الخروج من مكة هل كان بامكانه اختيار غير الكوفة؟ وما هو المكان الذي كان عليه انتخابه من الدولة الاسلامية؟ لقد بلغت الامام رسائل كثيرة من اهل العراق خلال الفترة التي اقامها في مكة. وكانت تلك الرسائل من الكثرة والقاطعية بحيث اصبحت فيما بعد سبباً رئيساً بالنسبة للامام للذهاب الى العراق.

وكان الامام يقول عندما يُسأل في مواضع متعددة عن سبب ذهابه الى الكوفة : ان رسائل اهل العراق هي السبب^(٤)؛ فانه لدى اجابته على سؤال الحرة وعمر بن سعد^(٥) وبشير بن شداد^(٦)، وعبدالله بن عمر^(٧)، بل في خطابه امام جيش

(١) ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٦.

(٢) الطبرى - ج ٤ ص ٢٩٠.

(٣) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٢٤.

(٤) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٥) البلاذري - انساب العرب ج ٢ ص ١٧٧، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٣٨.

(٦) ابن سعد، مجلة تراثنا، العدد العاشر ص ١٧٣.

(٧) نفس المصدر السابق ص ١٨١.

الكوفة صبيحة العاشر من المحرم^(١) كان يعلل مجئه الى الكوفة بالكتب التي وردها من اهلها، وكان يقول دائمًا في ردّه على اسئلة السائلين عن سبب ذهابه الى العراق: «خلفي مملوءة بالكتب»^(٢).

وعقب استلامه لكتاب مسلم الذي يدعوه فيه الى الحركة الفورية صوب الكوفة، عجل الامام بالخروج من مكة وقطع المسافة الفاصلة بين مكة والكوفة باسرع ما يمكن. ولكن عندما بلغه خبر استشهاد مسلم^(٣) طرأ تغيير واضح على سرعة حركة القافلة، وكلما انقضى عليه زمن قلت سرعة القافلة اكثراً. ومع ذلك لم يثن ذلك الامام واصاره مطلقاً عن مواصلة المسير صوب الكوفة. فرغم ان خبر استشهاد مسلم وهاني كان يقلل بالتدريج من تفاؤل الامام وثقته باهل الكوفة، لكن احتفال الانتصار في الكوفة لم يكن قد زال مائة بمالائة. وبعبارة أخرى ان قافلة الامام وان ترزع املها بالنصر العسكري كلما اقتربت من الكوفة، لكن تقييم الامام للاواعض ومشاوراته مع اصحابه بشأن الكوفة ومواصلة الحركة نحوها كان يشير الى امكانية بلوغ النصر.

اذ كانوا يقولون له: «ما انت بمسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع». وكانوا يقصدون من هذا الكلام ان عدم شهرة مسلم و... رجاء هي السبب في عدم استقطابه للناس كما ينبغي، الا ان شخصيتك لها جاذبية أخرى، وهذا الكلام لم يكن مستبعداً طبعاً بالنسبة لمنزلة الامام. واذا ما اخذنا بالحسبان كتب ودعوات اهل الكوفة له خلال عشر سنوات. ولهذا السبب واصل

(١) ابن عساكر المصدر السابق ص ١٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٠٩.

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٠.

الامام طريقه من خلال تقييم واحد. كما يستفاد ايضاً من رواية الفتوح بان كتاب الامام الى اهل الكوفة الذي ارسله مع قيس بن مسهر الصيداوي حول وجوب الالتزام بعهودهم اغا كان بعد وصول خبر استشهاد مسلم بن عقيل.

ومع ان ارضية الشك بشأن الكوفة بدأت تتسع بصورة تدريجية في نظر جيش الامام الا ان اثراها في قرار العودة لم يتضح الا بعد اللقاء الامام بجيش المحر. فقدوم المحر على رأس جيش لمواجهة الامام وبلغ نسباً تحشد اربعة آلاف رجل من جيش العدو في القادسية، اضافة الى المعلومات السابقة الوائلة عن الكوفة، ومنها وصول آخر رسالة شفوية من مسلم بواسطة عمر بن سعد تؤكد على ضرورة انصراف الامام وعدم دخول الكوفة، كل هذه العوامل جعلت الامام يتيقن انه لم يعد هناك اي امل في الكوفة، ولن يجني من ذهابه اليها الا الهزيمة العسكرية والاستشهاد.

وفي هذه الحالة اخذ الامام قراره بالعودة^(١). لكن المحر اعلن له انه مكلف من قبل والي الكوفة باخذ الامام وجيشه الى هناك ومنعه من العودة، ومنذ ذلك الحين اخذ الامام يكرر دالماً في لقاءاته بقادة جيش العدو^(٢) ومبوعيهم وحتى في خطابه الذي القاه على جيش الكوفة^(٣) قراره بالعودة فيقول:

«يا أيها الناس اذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم الى مأمن من

(١) البلاذري، انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٧٠، ابن الاعثم، ج ٥ ص ١٢٥، الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٥٠.

(٢) ر. ك. الطبرى ج ٤ ص ٣١١، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٥٥.

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٣.

الارض»^(١).

وقد ذكر عدد من المؤرخين ان الامام وبعد ان اصبح محاصراً من قبل جيش الكوفة. طلب من عمر بن سعد القبول باحدى النقاط الثلاث التالية: «دعوني ارجع الى الحجاز، او اذهب الى الشام واضع يدي بيد يزيد او ان اذهب الى ثغور الدولة».

لكن هذه المعلومات عارية عن الصحة وانما اراد المؤرخون من خلاها سحق شخصية الامام الحسين عليه السلام المتميزة والانتهاص منه خدمة لاسيادهم واولئك نعمهم من الامويين والادلة على زيف هذه الرواية تتلخص فيما يلي:

١ - الرواية المذكورة اعلاه وكذلك التصريحات الاخرى تؤكد ان الامام لم يطرح موضوع السفر الى الشام، بل انه طرح فقط موضوع العودة الى الحجاز (مكة والمدينة).

٢ - ينقل البلاذري رواية تؤكد بصرامة: انه عرض على عمر بن سعد موضوع العودة الى المدينة فقط^(٢).

٣ - كما نقل بشكل موثق عن عقبة بن سمعان انه قال: رافقت الامام الحسين عليه السلام في جميع المراحل، ولم افارق له لحظة واحدة، فلم اشاهد منه ولا في اشارة واحدة انه طرح ما هو شائع بين الناس «دعوني اذهب الى الشام واضع يدي بيد يزيد» بل انه قال فقط:

«دعوني ارجع الى المكان الذي اقبلت منه، او دعوني اذهب في هذه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٣.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٢.

الارض العريضة حتى ننظر ما يصير اليه امر الناس»^(١).

٤ - لو ان الامام كان مستعداً للهبايعة فان مشكلة يزيد التي اثيرت بسببها كل هذه الضجة ستتحل وسيصبح بقدور الحسين عَلَيْهِ الْمَسْكَنُ مواصلة حياته كشخص عادي.

عنصر الغيب في حادثة كربلاء

إنّ من جملة الامور التي كان لها نصيب لا يستهان به في بعد التاريخي لواقعة كربلاء هو عنصر الغيب، الامر الذي ادى الى بروز اختلافات في تحليل ودراسة هذه الواقعة، وجعلها تُطرح على شكل مقابلة بين امر عقائدي وقضية تاريخية.

والواقع هو أنّ علماءنا قد بحثوا هذا الموضوع بشكل كافٍ مع الاخذ بنظر الاعتبار شمولية علم الامام. اما شرح وتبیان هذه القضية من الوجهة التاريخية فهو لا يحتاج الى طرح هذه الادللة العقائدية لأنّ مثل هذا العمل لا يخرج المسألة من اطارها التاريخي فحسب، بل وسيهيء الارضية للاتهام بادخال الآراء والعقائد في كتابة التاريخ.

ونحن فيما يلي نبحث القضية خارج اطارها التاريخي، ونعتبره خاتمة لبحثنا هذا زيادة في الاطلاع، ونستعرض خلاله الروايات الدالة بصرامة على وعي الامام المسبق بهذه الحادثة قبل وقوعها. فقد نقل عن رسول الله ﷺ بعض الروايات يتفق عليها الكثير من الرواة والمحدّثين من اهل السنة والشيعة.

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٥٤.

فقد ضم كتاب «سيرتنا وستتنا» الذي ألفه العلامة الاميني رحمه الله بين طياته الكثير من امثال هذه الروايات التي تبين وصف رسول الله هذه الحادثة، واستشهاد سبطه الحسين هناك وذلك قبل سنوات من وقوعها والتاثير الشديد لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه عند ذكره لها وبكائه وحزنه عليها. وقد نقل العلامة الاميني هذه الروايات غالباً من كتب التاريخ والحديث لاهل السنة.

والايك فيما يلي عدداً من هذه الروايات:

١ - جاء في رواية ان الحسين رأى في المنام انه شاهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وجماعة من الملائكة، فاحتضنه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وقال له:

«يا حسين كأني عن قريب اراك مقتولاً مذبوحاً بأرض كربلاء من عصابة من أمري، وانت في ذلك عطشان لا تُسقى، يا حسين ان اباك وأمك قد قدموا عليّ وهم اليك مشتاقون وان لك في الجنة درجات لن تناهها الا بالشهادة»^(١).

٢ - قال الحسين عليه السلام في مكة: «اني رأيت جدي في منامي وقد امرني بامر وانا ماضٍ لأمره»^(٢).

٣ - لما وصل عليه السلام الى كربلاء وسأل عن اسم المنطقة وقيل له اسمها «كرباء» قال: «لقد مر ابي بهذا المكان عند مسيرة الى صفين وأنا معه، فوقف وسأل عنه فأخبر باسمه، فقال: ها هنا محطة ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم، فُسئل عن ذلك فقال: ثقل لآل بيت محمد ينزلون هاهنا»^(٣).

(١) ابن الاعثم ج ٥ ص ٨.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٥١.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٣.

٤ - وفي صبيحة عاشوراء قال لاخته زينب: «يا اختاه اني رأيت جدي في المنام وابي علياً وفاطمة أمي واخي الحسن فقالوا انك رأيحة علينا عن قريب، وقد والله يا اختاه دنا الامر ما في ذلك لاشك»^(١).

كانت هذه نماذج من الروايات الدالة على علم الامام بواقعة كربلاء قبل استشهاده ومن الطبيعي ان الامام الحسين عليه السلام ليس هو الشخص الوحيد الذي لا يلجأ الى الغيب، بل ان النبي عليه السلام لم يكن يلجأ اليه ايضاً في حياته السياسية العادلة سوى في حالات اثبات النبوة. وانهم كانوا في بقية المواقف يمارسون حياة عادلة وفقاً لما تقتضيه الاحكام والاخلاق الاسلامية. وان اعتبار النبي عليه السلام والائمة عليهما السلام أسوة انا يقوم على الوضع الموجود والتقييم الظاهري لا على اساس الغيب. لأن الاستناد الى الغيب ليس بالشيء الذي يقدر عليه الآخرون.

دور واقعة كربلاء في تكوين الشيعة

من المسلم به ان واقعة كربلاء هي من الحوادث المصيرية واهم عامل في تكوين الشيعة على مدى التاريخ. وقد سبقت منا الاشارة الى أن الاسس الفكرية للتشيع وخاصة اهم مسألة فيه (الامامة)، يمكن ملاحظتها في القرآن والسنة بشكل واضح. لكن انصاف تاریخ الشيعة عن بقية الفرق الاسلامية اتخذ طابعاً تدريجياً، وحصل بمرور الزمن، فحاكمية امير المؤمنين وسنته واسلوب تعامله مع القضايا والافكار الالهية والمعارف التي خلفها قد اوجدت انسجاماً فكرياً بين الشيعة الى حد ما. وكان لدعم الامويين للنظام الفكري واسلوب الفهم عند الفرق الاسلامية الاخرى اثره في تعميق الفاصل الموجود بين الشيعة وبقية الفرق

(١) ابن الاعثم - ج ٥ ص ١٧٥.

الاسلامية.

فحيل معاوية واساليبه الشيطانية لم تتح لل المسلمين الفرصة لكي يفهموا ان بني امية يخونون تحت ستار الاسلام نفس تلك الشخصيات الجاهلية المعادية للانسانية، وانهم كانوا مولعين بالحياة الجاهلية والدفاع عن ثقافتها، ومع ذلك فان المفكّرين والعلماء في ذلك الوقت كانوا يدركون هذه القضية، لكن ابنه يزيد لم يكن يتلّك نفس تلك المهارة، فهو كان يطرح ويشكل صريح، في اشعاره واحاديثه اليومية، من هو وماذا يريد؟ وهذا نراه ومنذ بداية مجئه الى السلطة وتسليمها للخلافة تسبّب في حدوث واقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي عليه السلام مع مجموعة من اهل بيته وانصاره. وصار انفصال تاريخ الشيعة عن سائر الفرق الاسلامية التي انضوت تحت غطاء الاسلام الاموي امراً قطعياً، ومنذ ذلك الحين اعلن المذهب الشيعي عن وجوده باعتباره فئة تتبع سنة وسيرة علي عليه السلام والائمة من بعده.

الآباء السجاد

عليهم السلام

يقول شمس الدين الذهبي: «وكان علي بن الحسين جلاة عجيبة وحق له والله ذلك فقد كان اهلاً للامامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتألهه وكمال عقله»^(١).

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بالسجاد هو رابع ائمة الشيعة، وكانت ولادته عام ٣٨ للهجرة على اشهر الاقوال، واستشهد عام ٩٤ بعدما دس له الوليد بن عبد الملك السم^(٢).

وبما ان ولادة الامام كانت سنة ٣٨ للهجرة فمن الواضح انه قد ادرك قسماً من عهد الامام المجتبى وكذلك عهد ابيه، وهذا يعني انه شهد بأم عينه السياسة التي اتبعها معاوية في قم الشيعة في العراق والمناطق الاخرى.

(١) سيرة اعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩٨.

(٢) الشبراوي، الاتحاف بحب الاشراف ص ١٤٣.

الآن بعض الكتاب يعتقد ان ولادته حصلت في غير التاريخ المذكور وذلك استناداً الى روایات منقولة عن واقعة الطف، يظهر منها انه ولد عام ٤٨ للهجرة.

تشير هذه الروایات الى ان عدداً من جنود جيش الكوفة هجموا على الامام السجاد -بعد انتهاء معركته عاشوراء الدامية، وسيطرة الجيش على خيام الحسين والبقية المتبقية من اهل بيته- ليقتلهم -وكان وقتها طريح فراش المرض- الا ان البعض الآخر منهم منعهم من قتلهم، لأنه لا زال صغيراً ولم يبلغ الحلم.

واستناداً الى رواية الطبرى، فقد وصف حميد بن مسلم -الذى حضر في كربلاء شخصياً- هذه الحادثة المؤسفة بالصورة التالية:

« جاء شمر بن ذي الجوشن في رجال معه، وارادوا قتل علي بن الحسين، فمنعته منهم وقلت لهم انه لا زال صبياً، حتى دفعتهم عنه».

وروى كذلك:

« ان عبيداً الله بن زياد لما نظر الى علي بن الحسين قال لشرطى: انظر هل ادرك هذا ما يدرك الرجال؟ فكشف عنه فقال نعم. قال: انطلقا به فاضربوا عنقه. فقال له علي: ان كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجالاً يحافظ عليهم، فقال له ابن زياد: تعال انت فبعثه معهن.

واستناداً الى رواية أخرى، فان زينب عليها السلام هي التي منعت من قتل علي بن الحسين، اذ قالت لعبيداً الله بن زياد: «ان قتلتة فاقتلتني معه»^(١).

وأشار الجاحظ ايضاً الى هذه القضية ضمن اشارته الى ممارسات الامويين

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣١.

الاجرامية فقال: «إنهم انتهكوا حرمته لما أرادوا تفحّص علائم البلوغ لديه»^(١).

فإن صحت هذه الاخبار^(٢). فلا بد أن يكون عمر الامام اصغر من المشهور المتعارف لأن نهاية حد البلوغ هو ١٥ سنة بال تمام، وبناءً على هذه الاخبار فلا بد أن الظروف كانت بالشكل الذي يقتضي سنًا بهذه الحدود.

ورغم كون هذه الروايات مذكورة في مصادر متعددة الاّ ان هناك ادلة تطعن في مصداقيتها. والادلة هي كما يلي:

١ - المشهور عند المؤرخين وكتاب السيرة ان ولادته كانت في سنة ٣٨ للهجرة ومعنى هذا ان عمره في كربلاء كان ٢٣ عاماً. وقد نقل الطبرى نفس هذا السن في كتابه (ذيل المذيل). كما ان تصريح بعض المؤرخين بأنه عاش ٥٨ عاماً يثبت نفس هذه النقطة^(٣). وأما الرواية التي تشير الى انه ولد عام ٣٣^(٤) - وخلافاً للمشهور اي عام ٣٨ - فهي دليل آخر على ولادة الامام في حياة امير المؤمنين علیه السلام.

٢ - ان مثل هذه الروايات لم تكن بعيدة عن انتظار المؤرخين، بل انهم ادركوا وجودها منذ بداية عصر تدوين التاريخ الاسلامي وتعارفوا على نقل المشهور منها، كما انهم عرّضوها للنقد والتحقيق ايضاً من اجل ازالة التضاد والتناقض الموجود فيها بينها. فمحمد بن عمر الواقدي وهو من ابرز رواة التاريخ لدى اهل السنة، ينقل حديثاً عن الامام الصادق علیه السلام يشير الى ان الامام

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٣١.

(٢) ر. ك. شهیدی علی بن الحسین ص ٣٢.

(٣) المنتخب من ذيل المذيل. ص ٦٣٠.

(٤) ابن حبان - الثقات، ج ٥ ص ١٦٠.

السجاد عليه السلام فارق الحياة وله من العمر ٥٨ عاماً. ثم يستنتج منه ما يلي:

«يدل هذا الحديث على ان علي بن الحسين عليه السلام كان حاضراً مع ابيه في كربلاء وكان يبلغ من العمر ٢٣ او ٢٤ عاماً، وهذا فان الذين ذكروا انه كان صغيراً وغير بالغ اثناء واقعة كربلاء قد جانبوا الحقيقة. وكان سبب عدم مشاركته في المعركة هو المرض الذي انتابه في تلك الأيام، وليس صغر سنّه وعدم قدرته على الحرب. فكيف يمكن القبول بعدم بلوغه في كربلاء بينما ابنه محمد بن علي المعروف بالباقر عليه السلام كان قد ولد في تلك الاثناء. و بما ان ابا جعفر الباقر عليه السلام قد ادرك جابر بن عبد الله الانصاري الذي توفي عام ٧٨ للهجرة ^(١) فمعنى هذا ان ابا جعفر حين التقى جابراً كان في سن يؤهله لسماع حديث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه منه ونقله عنه فيما بعد» ^(٢).

ويقول ابن عنبة ايضاً:

«كان علي بن الحسين مريضاً في كربلاء ولهذا لم يشترك في المعركة وليس صحيحاً ما تصوره البعض من انه كان صغيراً».

وقال الزبير بن بكار ايضاً: «كان عمر علي بن الحسين في كربلاء ٢٣ عاماً» ^(٣).

٣ - يتضح من خلال كلام الامام السجاد مع عبيد الله بن زياد وحتى يزيد

(١) الفسوی - المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ٣١٠، تاريخ دمشق ج ٥ ص ٢٥١ ب مخطوطه نقاً عن هامش المعرفة والتاريخ.

(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٢٢، الاربلي كشف الغمة ج ٢ ص ١٩١ ط تبريز.

(٣) ابن عنبة، عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب ص ١٩٢.

بن معاوية ان عمره لابد وان يكون فوق أن يشك في بلوغه. وليس ذلك مما يتخلص منه نتيجة القول بإمامته، إذ لا توجد عندنا مشكلة بهذا الصدد. وأنا المشكلة هي في ان الظروف والوضع التي دفعت يزيد للسماح له بالتحدث من على المنبر تنم بذاتها عن سن معقول لمثل هذا السماح. لأن من يشك في بلوغه لا يمكن ان تناح له مثل هذه الوضعية التي اناحها له يزيد.

٤ - لقد وردت في التاريخ روايات كثيرة عن ولادة الامام الباقر ع عليه السلام، يستشف منها جيئاً بأنه حضر كربلاء وكان عمره آنذاك ٤ سنوات ولم يشك احد في صحة تلك الروايات ولا ريب ان قبول هذه الروايات يستدعي قبول الرأي المشهور في ولادة الامام السجاد بفارق لا يتجاوز السنين او الثلاث سنوات.

أم الامام السجاد ع عليه السلام

إنّ من جملة المسائل المختلف عليها والتي لا يخلو البحث فيها من فائدة هي الاسم والنسب الدقيق لام الامام السجاد، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها بعض الكتاب في هذا المجال، إلا أنه وللاسف لم يطرح لحد الآن رأي دقيق ومقبول بهذا الشأن. أما القصة التي تشير الى ان أمه هي بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك ايران من سلسلة الساسانيين، فقد تعرضت في الآونة الاخيرة للكثير من النقد والتحقيق، والاسباب الكامنة وراء ذلك متعددة منها الخشية من ان يعول عليها اعداء الشيعة ويختلقون دوافع عاطفية وراء انتشار التشيع في ايران و يجعلون ذلك ناشئاً من العلاقة السببية بين ائمة الشيعة والعائلة المالكة في ايران آنذاك.

وقد جمع احد المحققين جميع - او معظم - الروايات الواردة في هذا الصدد وتناولها بالدراسة والتحميس. هذا وقد اورد في موضوعه روايات معدودة تشير

الى أن امّه ام ولد. ورغم الاختلافات الموجودة في مفاد هذه الروايات وعدم انسجام بعضها مع روايات الفتوحات وغيرها، الا أن هناك امراً مسلماً به هو ان هذا الموضوع شهرته الواسعة وتداوله في أقدم نصوص الشيعة من امثال (واقعة صفين، ص ١٣) و(تاريخ اليعقوبي) و(بصائر الدرجات) التي آلفت باجمعها في القرن الثالث. وقد بحثنا في مقالة مستقلة -رغم اعترافنا بوجود الشكوك و الغموض في اصل الموضوع- علاقة هذا الموضوع بانتشار التشيع في ايران. ونقدنا التوهم القائل بوجود علاقة بينهما وبشكل مناسب ومقنع.

امامة السجاد عليه السلام

استناداً الى النصوص التي رواها كبار محدثي الشيعة في جوامع حديثهم فان الامام السجاد عليه السلام هو وصي ابيه الامام الحسين عليه السلام وخلفته من بعده، وقد نقل هذه النصوص الكليني وغيره من اساطين الشيعة والروايات المنقوله عن رسول الله صلوات الله وآله وسلامه علية بخصوص اسماء الائمة الاثني عشر للشيعة تثبت هذا الموضوع.

وبغضّ النظر عن ذلك، فانَّ قبول المجتمع الشيعي للامام السجاد كامام رابع ووصي للحسين بن علي عليه السلام، وقبوله العلمية من قبل الشيعة على مر التاريخ، يُعتبر بذاته دليلاً ناصعاً على صدق هذه الوصاية، وليس من شبهة في امامته سوى ما اعترى في ذلك المقطع الزمني بعض محبي اهل البيت من الشيعة نتيجة لتسمية محمد بن الحنفية بالامامة وهو ما ادى الى حصول انحراف بين اوساط الشيعة فيما بعد. وسنشير الى هذا الموضوع باختصار في الفصول اللاحقة. وبما ان نصوص الشيعة تشير الى لزوم وجود بعض الاشياء لدى الائمة مثل سيف ودرع رسول الله صلوات الله وآله وسلامه علية فان وجودها لدى الامام السجاد عليه السلام قد ذكر بصراحة، حتى في مصادر

أهل الستة ايضاً^(١).

الشخصية العلمية والأخلاقية للامام السجاد ع

اصبحت القيم الدينية في عهد الامام السجاد ع عرضة للتغيير والتحريف على يد الامويين. فقد بلغ تطاول بني امية على اصول الحقوق الاجتماعية حدّاً الزم فيه سكان مركز من مراكز الاسلام الاولى والمهمة هو المدينة -المدينة التي ترعرعت في احضانها رسالة النبي، وازدهرت وainت في ظلّها الوارفة... المدينة التي دافع اهلها عن رسول الله ﷺ دفاعاً بطولياً وناصروه ضد طاغوت الكفر والعصيان - عباد يزيد وقائد جيشه مسلم بن عقبة على انهم عبيد له، واضحت احكام الاسلام العوبة بيد اشخاص مثل ابن زياد والحجاج وعبدالملك بن مروان. فقد خالف الحجاج -الذى كان يعتبر مقام عبدالملك افضل وارفع من مقام رسول الله ﷺ - ابسط قواعد الحقوق الاجتماعية في الاسلام وفرض الجزية على المسلمين وكان يسلم الناس بجلاديته على ادنى سوء ظن.

فعندما يكون وضع الحكومة على هذه الشاكلة، يصبح من الواضح الى اي مدى سيتدنى مستوى التربية الدينية للناس وتبينت القيم الجاهلية من جديد، فقد رفعت الجاهلية رأسها شامخة بعد أن قبرت بذلة لتسود الساحة وتقضي على الثقافة الاسلامية الوليدة.

وفي ظل هكذا ظروف اجتماعية مريرة، شرع الامام السجاد ع بأهم عمل يهتمي الارضية لارتباط الناس بالله بواسطة الدعاء، فلا بعمله هذا فراغ الشخصية

(١) ابن سعد - الطبقات الكبرى. ج ١ ص ٤٨٦.

لدى الناس، ووضع بلسم الشفاء على الجراح العميقه التي احدثها آل أمية وجلاوزتهم في كرامتهم وشخصيتهم، ووضع في متناول أيدي الناس خطأً ومنهاجاً يسرون عليه باتجاه القيم المعنوية، استطاعوا في ظله العثور على دافع قوية للحياة والبقاء وابعاد كابوس اليأس والكآبة القاتل الذي يستولي على الناس عادة عند ازیاد الضغط والارهاب الاجتماعي واستعادة ذلك الشوق والحماس المفقود الذي يشكل العامل الاساس للحركة في الحياة. وبهذا الشكل بات الناس متأثرين بالمعنويات الرفيعة السامية للامام السجاد عليهما السلام وازداد تعلقهم باسلوبه ومنهاجه وانخرط الكثير من طلبة العلم في سلك رواة حديثه فارتوا من زلال علمه المنbic عن علوم رسول الله ﷺ وامير المؤمنين ع.

يقول محمد بن سعد وهو من كبار المؤرخين في وصف الامام:

«كان علي بن الحسين ثقة مأموناً كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً»^(١).

وكتب الشافعي رسالة بشأن حجية الخبر الواحد قال فيها:

«ووجدت علي بن الحسين وهو افقه اهل المدينة يعوّل على الخبر

الواحد»^(٢).

فابن شهاب الزهري على الرغم من ارتباطه بالامويين والحداد الذي اوجد شرخاً عميقاً بين الامويين والشيعة، كان من جملة العلماء المعاصرين الذين تلقوا العلم بولع شديد وكان يثنى على الامام دائمأً بعبارات التجليل والاحترام. وقد

(١) ابن ابي الحديد ج ١٥ ص ٢٧٤.

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٢.

كتب له الامام في احدى المرات رسالة نصحه فيها بضرورة اعادة النظر في ^(١) وضعه الحالي كآلة بيد السلطة الاموية. وحتى ان الامام وبخه لاستخفافه في احد المرات بشخصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب ^(٢).

إلا انه مع ذلك كان رواياً لعلوم الامام السجاد، كما يشاهد من نقله عنه في الكتب المختلفة ^(٣) ولقد كان شديد الاعجاب بأخلاق الامام السجاد وكثرة عبادته اذ نقل انه: «كان الزهري اذا ذكر علي بن الحسين يبكي ويقول: زين العابدين» ^(٤).

كما حكى عنه أيضاً انه كان يقول: «لم أدرك احداً من اهل هذا البيت افضل من علي بن الحسين» ^(٥).

«علي بن الحسين اعظم الناس مئة علي» ^(٦).

«ما رأيت احداً أفقه من علي بن الحسين» ^(٧).

كما روي عن يحيى بن سعيد قوله: «علي بن الحسين افضل هاشمي رأيته بالمدية» ^(٨).

(١) تحف العقول ص ٢٠٠.

(٢) ابن ابي الحديج ج ٤ ص ١٠٢.

(٣) ر.ك. ابن سعد ج ٨ ص ١٧٢، ابو نعيم، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٤١، كشف الغمة ج ٢ ص ٨٦.

(٤) ابو نعيم، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٣٥.

(٥) ابن الصبّاغ المالكي، الفصول المهمة ص ٢٠٣، الاربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ٨٦.

(٦) ابن سعد - ج ٥ ص ٢١٤.

(٧) سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٨٩، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٢ ص ١٩ ب، سيد الاهل زين العابدين، ص ٤٣.

(٨) الرازى، الجرح والتعديل ج ٦ ص ٢٧٨، البخاري التاریخ الكبير ج ٦ ص ٢٦٦.

ومن المحدثين، كان ابو حازم يقول: «ما رأيت هاشمياً افضل من علي بن الحسين ولا افقه منه»^(١).

وكفى بقول ابن ابي شيبة في فضل و منزلة الامام السجاد عليه السلام عند اهل السنة بأن افضل سند هو «الزهري عن علي بن الحسين عن ابيه عن علي عليه السلام»^(٢)، وان كان الزهري موضع كلام.

ونقل عن الجاحظ انه كان يقول: «الشيعي والمعتزمي والخارجي والعامة والخاصة ينظرون الى شخصية علي بن الحسين نظرة واحدة ولا يشك احد في منزلته وفضله على الآخرين»^(٣).

وسيأتي منا فيما بعد أن اهم سبب في شهرة الامام وحب الناس الشديد له هي عباراته وجمله الجذابة التي صاغها بقالب الدعاء الذي ينير القلوب ويعيد اليها النشاط والحيوية ويعمرها بالقيم المعنوية يقول سعيد بن المسيب وهو من مشاهير المحدثين، في وصف شخصية الامام:

«ما رأيت افرعاً من علي بن الحسين»^(٤).

واشتهر الامام في عصره باللقب: علي الخير، علي الاغر، علي العابد، و...

ويقول مالك بن انس: «لم يكن في اهل بيت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه مثل علي بن

(١) سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص ص ١٨٦، الاربلي ج ٢ ص ٨٠، العجلي تاريخ الثقات ص ٣٤٥.

(٢) الذهبي، سير اعلام النبلاء - ج ٤ ص ٣٩١، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٠٥.

(٣) ابن عنبة، عمدة الطالب ص ١٩٣.

(٤) ابو نعيم، حلية الاولىء ج ٣ ص ١٤١، الاربلي، ج ٢ ص ٨٠، ابن حجر، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٠٥، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٩١، في هامشة عن تاريخ دمشق ج ٢ ص ١٩١.

الحسين»^(١).

ويصفه ابن أبي الحميد بقوله: «كان علي بن الحسين غاية في العبادة»^(٢).
وكان يكثُر من الخضوع والخشوع بين يدي الله، ويرُغ جهته في التراب،
ويطيل في سجوده، فكانت آثار السجود ظاهرة على جهته، وبسبها كان
يُسمى بـ«ذِي الثفَنَات»^(٣).

واورد ابن حبان بشأنه «وكان من افضل بنى هاشم من فقهاء المدينة
وعبادهم، يقال علي بن الحسين سيد العبادين في ذلك الزمان»^(٤).

وكتب أبو زهرة قائلاً: « فعلٰى زين العابدين كان أمّاً للمدينة نبلاً
وعلماً»^(٥).

وكان القاصي والداني يتحدث عن زهده وعبادته فقد روي: «أنه اذا اراد
الوضوء اصفر لونه، ولما سُئل عن ذلك قال: أتدرون بين يدي من أريد ان
اقوم»^(٦).

يقول مالك: «احرم علي بن الحسين، ولما لبى اغمي عليه وسقط من
فوق الجمل».

(١) ابن أبي الحميد - ج ١٥ ص ٢٧٣.

(٢) ابن أبي الحميد ج ١ ص ٢٧.

(٣) ر. ك. معجم الادباء، ج ١١ ص ١٠٣.

(٤) ابن حبان - الثقة ج ٥ ص ١٦٠.

(٥) الامام الصادق، ص ٢٢.

(٦) ابن الجوزي، صفة الصفة، ج ٢ ص ٥٥، الشبلنجي، نور الابصار ص ١٢٧، ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦.

ويقول أيضاً: «بلغني انه كان يصلی حتى وفاته في اليوم والليلة الف رکعة، وسمی زین العابدين لکثرة عبادته»^(١).

ولما طلب الى خادمته وصفه قالت: «لم اجلب له طعاماً في نهار قط ولم ابسط له فراشاً في ليل قط»^(٢).

وبینما هو يصلی في احد الايام اذ ظهرت له افعى ، فواصل الامام صلاته من غير ان يلتفت لها. ومررت من بين رجاليه ولم يتحرك من مكانه^(٣).

ولم يكن اسوة في العبادة فقط، بل وفي التفكّر الذي تعدل ساعة منه عبادة سبعين سنة من عبادة الجن والانس.

نقل الرمخشري ان علي بن الحسين هم بالوضوء فوضع يده في الماء ثم رفع رأسه فنظر الى السماء والقمر والکواكب ثم جعل يفكّر في خلقها حتى اصبح واذن المؤذن ويده في الاناء»^(٤).

واصبح كذلك مثلاً يحتذى به في التصدق والاهتمام بالمساكين، وبعد شهادته عُرف ان مائة عائلة كانت تعيش من صدقاته ونفقاته^(٥). وكانت آثار حمل الطعام الى الفقراء واضحة على ظهره اثناء تغسيله^(٦).

(١) الذهبي، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٢، ابن عساكر ٢١/١٢.

(٢) محمد علي دخيل، اثنتا عصراً ج ١ ص ٢٦٥ عن المناقب ج ٢ ص ٢٥٥.

(٣) ابن ابي الحديد ج ١٠ ص ١٥٩.

(٤) ربيع الباراج ١ ص ١٢٨.

(٥) ابو نعيم، حلية الاولى، ج ٣ ص ١٣٦، الاربلي، كشف الغمة، ج ٢ ص ٧٨، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٩٣.

(٦) ربيع الباراج ٣ ص ١٦٠ وص ١٦٣.

وكان الناس ايضاً يكتون له وافر الود والمحبة فقد روي ان قراء المدينة كانوا لا ينطلقون نحو مكة لاداء مناسك الحج ما لم يغادر الامام المدينة اولاً، وكان عندما يتحرك ينطلق وراءه الف راكب^(١). وفي السفر كان يخفي نسبة عمن يرافقه ويقول : «اكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مثله»^(٢).

وكما روى جويرية بن اسماء قال : «ما أكل علي بن الحسين من قرابته من رسول الله درهماً»^(٣) كانت هذه نبذة من فضائل الامام السجاد الامتناهية.

الامام السجاد عليه السلام والشيعة

بعد واقعة كربلاء مرت التشيع باسوء ظروفه من ناحية الکم والكيف في بعده السياسي والعقائدي، وتحولت الكوفة من مركز مهم للميول الشيعية الى مركز خطير لقمع الشيعة. وقد استشهد في كربلاء كبار الشيعة المخلصين الذين جاءوا مع الامام الحسين عليه السلام من المدينة ومكة او الذين التحقوا به من الكوفة.

ورغم ان عدداً كبيراً من الشيعة كان لا يزال في الكوفة، الا انهم لم يتجرأوا على الاعلان عن وجودهم في ظل الظروف القاسية التي اوجدها ابن زياد هناك. وتعتبر حادثة كربلاء من الناحية النفسية هزيمة كبيرة واحباطاً نفسياً مريضاً وساد المجتمع تصور بأن الشيعة قد ابيدوا، ولن يتاح لهم الظهور على الساحة السياسية كقوة مؤثرة. فقد استشهد في كربلاء عدد من اهل البيت وعلى رأسهم الامام

(١) الطوسي، اختيار معرفة الرجال. ص ١١٧. طبعة مشهد.

(٢) الرمذاني - ربيع الانوار - ج ٣ ص ٦٩.

(٣) الذهبي - سير اعلام النبلاء - ج ٤ ص ٣٩١.

الحسين عليهما السلام، ولم يبق من ابناء الحسين عليهما السلام إلا واحد، ولم يكن له في تلك الظروف منزلة اجتماعية مهمة لا سيما وان الابن الاكبر للامام الحسين عليهما اي علي الاكبر قد استشهد مع ابيه.

وبعد تخلصه من قيود الاسر في المدينة وابتعاده عن العراق سلبت من حياة علي بن الحسين فرصة الاعلان عن وجوده، ويقول الاستاذ السيد جعفر مرتضى العاملی:

«تصور بنو امية من وجهة نظرهم السياسية بأنهم قد وضعوا نقطة الخاتمة للحياة السياسية والاجتماعية لاهل بيت رسول الله حملة الاسلام الاصليل: فرغم انهم كانوا يتعاملون مع الامور بدقة سياسية وشيطنة خاصة مستغلين الضعف الروحي والعقائدي للناس وكانوا غالباً ما يخرجون منها منتصرين، الا انهم غفلوا عن نقطة مهمة وحساسة هي وجود الامام السجاد. فهو وان كان يبدو شاباً يافعاً من ناحية السن وكان من السابق لأوانه لشاب مثله أن يخوض في النشاط السياسي ولم يكن له من الشهرة والفوذ الاجتماعي ما يخوّن منه، ولكنه من الناحية الروحية والشخصية كان ذا ابعاد سامية ورفيعة. فهو خلافاً لتوقعات المجتمع آنذاك شرع بنشاطه السياسي - الثقافي في المدينة. وكان عليه طبعاً الشروع من نقطة الصفر بسبب وضع الشيعة في تلك البرهة الزمنية واستقطاب الناس نحو اهل البيت، ذلك اليقظة الصافي الذي تبثق عنه المعرفة الاسلامية، وقد نجح في مسعاه هذا ايا نجاح»^(۱).

ولقد اثبتت التاريخ مدى النجاح الذي حققه الامام السجاد فهو قد اضى

(۱) دراسات وبحوث في التاريخ والاسلام - ج ۱ ص ۶۰ الطبعة الاولى.

على الشيعة حياة جديدة، وهي مستلزمات النشاطات اللاحقة للامة من بعده كالامام الباقي عليه السلام والامام الصادق عليه السلام. ويشهد التاريخ على ان الامام استطاع -ومن خلال حركته ونشاطه المتواصل لمدة ٣٤ عاماً- ان يجتاز بالشيعة واحدة من احلك الفترات التي مروا بها، وهي الفترة التي امتازت بالقمع المتواصل للشيعة على يد الامويين والزيريين، وكان من اوضح معالم هذه الفترة هي ولاية الحجاج على العراق لمدة ٢٠ عاماً وسلط عبد الملك بن مروان على جميع العالم الاسلامي والتي لا تميزها عن غيرها سوى قمع الشيعة، او قمع معارضي الامويين في اماكن أخرى كالخوارج او حركة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث. فقد كان سباع كلمة كافر اهون على الحجاج من سباع كلمة شيعي.

العلاقة بين الامام والتوابين

في تلك الأيام قامت في العراق حركتان شيعيتان وانتهت كلتاها إلى الفشل، وبقيت الشيعة لسنوات طويلة عرضة لتهديد الامويين بالقتل والحبس والتعذيب. كانت احدهما حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي وعدد آخر من وجوه الشيعة في الكوفة. وقد ادعى ان زعيم التوابين اعترف بامامة علي بن الحسين عليهما السلام^(١)، ولكن لم يعثر على دليل هذا الادعاء في المصادر الاولية. والمهم في هذا الامر هو أن التوابين كانوا عازمين على تسلیم قيادة المجتمع الى اهل البيت فيما لو نجحوا في مساعهم طبعاً - ولم يكن احد من نسل فاطمة أليق بهذا الأمر من علي بن الحسين عليهما السلام.

فنجملة القضايا التي دعا التوابون الناس اليها هي قضية الدعوة العامة

(١) جعفری، تشیع در مسیر تاریخ ص ٢٨٦. دفتر نشر فرهنگ اسلامی.

لاهل البيت. وبعبارة اخرى انهم جعلوا الدعوة الى اهل البيت على رأس براجهم واهتماماتهم.

فكان عبيدة الله بن عبد الله يحيى الناس على الثورة فيقول لهم: «أنا ادعوكم الى كتاب الله وسنته نبيه والطلب بدماء اهل بيته والى جهاد المحتلين والمارقين فان قتلنا فما عند الله خير للابرار وان ظهرنا رددنا هذا الامر الى اهل بيت نبيتنا»^(١).

ولما اصطفوا لمقاتلة جيش الشام. اوضحوا اسباب ثورتهم بما يلي: «اننا لو انتصرنا فسنفرد الامر الى اهل بيت نبيتنا الذين آتانا الله من قبلهم بالنعمه والكرامة»^(٢).

بدأت حركة التوابين تتشط بشكل سري بعد حادثة كربلاء الأليمة، ووصلت اوجها خلال السنتين ٦٤ و ٦٥ للهجرة، واضحت تشكل تهديداً خطيراً لابن زياد واعوانه في واقعة كربلاء.

وقيادة هذه الحركة، وكما اشرنا سابقاً، كانت ييد احد صحابة رسول الله الذي اصبح فيما بعد من صحابة امير المؤمنين عليهما السلام المقربين ايضاً، وهو سليمان بن صرد الخزاعي فقد اتفق هو وجماعة من اصحاب امير المؤمنين عليهما السلام من وجهاء الشيعة وزعيمائها على دعوة الشيعة في الكوفة الى الثورة على ابن زياد وقتلته الحسين عليهما السلام من اجل التكفير عن موقفهم المتخاذل في مناصرة الامام الحسين عليهما السلام.

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٣. وراجع كتاب ابن مسکویه، تجارب الامم ج ٢ ص ٩٧.

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٦٤، البلاذري ج ٥ ص ٢١٠، ابن الاعثم ج ٦ ص ٨٢، ابن مسکویه تجارب الامم، ج ٢ ص ١٠٩.

وعدم مساندته والذود عنه في ثورته على الامويين.

وقد كانت الكوفة آنذاك قد سقطت بيد الزييريين الذين يكتون في باطنهم عداءً خفياً لاهل بيت الرسول ﷺ وخاصة الامام علي عليهما السلام، ولكنهم كانوا ينظرون الى الموضوع من جانب آخر اذ كانوا يعتقدون ان كلاً من التوابين وابن زياد عدو لدود لهم، وان الصراع العسكري فيما بينها سيؤدي الى اضعاف كلا المجانين وانهاك قواهما ولذلك لم يخلقوا أية عقبة تحول دون ثورة التوابين، بل دفعوهم ايضاً نحو الاصطدام مع ابن زياد. وكان الدافع الاصلي لحركة التوابين منبثقاً من شعور عاطفي شديد منشئ واقعة كربلاء الفجيعة، وما تثيره لديهم من تأنيب الضمير والشعور بالذلة والعار الناتج عن التقصير في مناصرة الامام الحسين عليهما السلام وكانوا يعتقدون ان ذلك العار لا يزول الا بمحاربة قتلة سبط النبي ﷺ.

فقرروا ان يضخوا بأنفسهم في هذا السبيل ليتمكنوا من خلال سحقهم للحياة الدنيا من سلوك الطريق المؤدية الى الحياة الابدية بنفس مطمئنة ورأس مرفوع وساحة مبرأة من العيوب ومتّزة عن الذنوب، وهذا كانوا ينادون عند تركهم الكوفة: «إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خروجنا»^(١).

وكان عددهم اربعة آلاف رجل. وان كان الذين بايعوا سليمان ضعيف او ثلاثة اضعاف هذا العدد الا أن عدم مشاركتهم يعود الى الموقف السلبي للمختار ابن ابي عبيدة تجاه سليمان اذ كان المختار يرى انه لا يمتلك الكفاءة والتجربة العسكرية الكافية وانه قد وضع اتباعه على حافة الفناء.

(١) الطبرى - ج ٢ ص ٤٥٥.

ولهذا تختلف الكثير من الشيعة الذين بايعوا سليمان وعاهدوه على المقاتلة طلباً لنأر الامام الحسين، وامتنعوا عن المشاركة في جيشه.

وكيفما كان فقد واجهوا العدو وثبتت بين الجانبين حرب طاحنة ادت الى هزيمة جيش سليمان، فقتل الغالبية العظمى من جيشه، وكان من بين القتلى سليمان وعدد من قادة جيشه، ولم يرجع الى الكوفة الا عدد ضئيل منهم.

وكان من المقرر في بداية هذه الثورة ان يشارك فيها ايضاً شيعة البصرة والمدائن الى جانب سليمان، الا انهم لم يتمكنوا -وفقاً للروايات الصحيحة- من المشاركة فيها.

ويبدو ان سليمان واتباعه لم يكونوا يدركون الجوانب السياسية لهذه القضية كما كان يدركها المختار الثقفي او انهم كانوا تحت تأثير المشاعر العاطفية الجياشة التي لم تسمح لهم بالالتفات الى هذه الجوانب. ولهذا فانهم قاتلوا بكل شجاعة واحلاص من اجل الوصول الى هدفهم في سحق عدوهم، لكن ذلك ادى بهم الى الهزيمة.

وهذا يشبه الى حد بعيد ما واجهه المختار الثقفي في الكوفة بعد ذلك بفترة يسيرة، لكن امره انتهى به الى الفشل لأسباب اخرى من اهمها الضغط الخارجي.

وبصورة عامة فان ثورة التوابين قامت على اداء كفارة الذنب الذي ظل يعذّبهم بشدة وكان هذا الشعور مستولياً عليهم الى درجة كبيرة بحيث ترك تأثيره حتى على الجوانب السياسية للقضية وهذا الوضع النفسي لم يكن ليسمح لهم بالحصول على تقييم صحيح ودقيق للجانب السياسي للثورة.

وي يكن ادراك هذه الحالة من خلال الاراجيز التي كان يرددتها جيش سليمان

اثناء القتال. فقد كان احدهم يردد في ميدان الحرب:

اليك ربی تبی عن ذنوبی وقد علاني في الورى مشببی^(١)

وآخر كان يقول:

ارحم الـهـی عـبـدـک التـوـابـا ولا تـؤـاخـذـه وـقـد أـنـابـا^(٢)

علاقة الامام بالمختار

تضمنت ثورة المختار وعلاقته بالامام السجاد بعض المشاكل لا على الصعيد السياسي فقط، بل على الصعيد العقائدي ايضاً. فقد نقل عن المختار وبعد ان احرز بعض النجاح في استقطاب بعض الشيعة في الكوفة، انه استعان بالامام علي بن الحسين عليه السلام لمساعدته في مواصلة نشاطه، لكن هذه الاستعانة لم تلق ترحيباً واستقبلاً من الامام^(٣). وكان موقف الامام يتناسب الى حد بعيد مع تجارب الامام منذ زمن امير المؤمنين عليه السلام الى زمن ابيه والى حركة التوابين في الكوفة، اذ كان من غير المنطق في نظره، وفي ظل تلك الظروف الاستثنائية التي افقدته أية ثقة بالكوفة ان يعمد الى القيام بعملٍ يؤدي الى فناء الشيعة الكامل هذه المرة. اضف الى ذلك ان ماهية حركة الامام في فترة امامته تعكس بوضوح ان مهمته الاساسية لا ترتبط بالسياسة بل كان في الكثير من المواقف يضع نفسه خارج اطار السياسة حتى انه كان يتحاشى ويعتاط كاملاً من اي عمل قد

(١) ابن الاعثم ج ٦ ص ٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٦.

يتذَرَّعون به ضده، لكي يتمكن وارت سلالة الاسلام المحمدية من اداء رسالته في سياق الزمن.

واما الاشكال على الصعيد العقائدي في القضية فقد نشأ عندما طلب المختار الاستناد والتأييد من محمد بن الحنفية. وقد لبى ابن الحنفية طلب المختار ولو بصورة غير رسمية - وابشيع منذ ذلك الوقت بان اماماً محمد بن الحنفية مقبولة بين شيعة العراق. ورغم ان هذه القضية غير يقينية، الا ان فرقه اشتهرت فيما بعد اسماً او رسمياً بالكيسانية وقد ابتدأت قضيتها في زمن المختار.

وكان مرد رسوخ بعض الاسس الفكرية للغلاة لدى جماعة من شيعة الكوفة هو المختار نفسه، اذ اشيع انه كان له الدور الفاعل في ظهور الغلاة فيما بعد، وهناك اسباب أخرى متعددة لا يسع المجال لذكرها تعرضاً لها في موضع آخر ومع ان حول جميع هذه القضايا ومن بينها وجود فرقه باسم الكيسانية تعتقد بامامة او مهدوية محمد بن الحنفية يكتنفها الشك وتحيط بها حالة من الغموض والابهام، الا أن هناك ادلة تشير الى أن الامام السجاد قد اتخذ موقفاً من الغلاة، وهذا ينم عن وجود انحراف لدى شيعة العراق كان يمنع الامام من مساندتهم او اقامة اية علاقه مباشرة معهم.

فقد قال الامام السجاد في احدى المرات مخاطباً جماعة من اهل العراق:
«أحبونا حب الاسلام ولا ترفعونا فوق حدنا»^(١).

ويقول ابو خالد الكابلي ايضاً سمعنا الامام السجاد يقول: «ان قوماً من

(١) ابو نعيم حلية الاولى، ج ٣ ص ١٣٦، ورابع كتاب، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٠، ابن سعد ج ٥ ص ٣١٤.

شيَعْنَا سِيَحْبُّونَا حَتَّى يَقُولُوا فِينَا مَا قَالَتِ الْيَهُودُ فِي عُزِّيْرٍ وَمَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مُرْيَمَ فَلَا هُمْ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ»^(١).

وتفيد مصادر الشيعة انَّ محمد بن الحنفية لم يكن منحرفاً عن الاصول الاعتقادية للشيعة وانه كان يؤمن بعلي بن الحسين عليه السلام كامام وحجّة بينه وبين الله. اذا اعتقدنا بهذا اصبح من العسير جداً اثبات انَّ محمد بن الحنفية قد ادعى لنفسه امامية شيعة الكوفة. ولو فرض ثبوت ادعائه ذلك فانه لابد من افتراض عدد من الافتراضات تقوم على انه اخذ من نفسه وقاً وغطاءً للامام السجاد عليه السلام لصيانته من الاخطار المحتملة من قبل بني امية. مع ان مثل هذا الافتراض لا يستند الى اي دليل سوى اعتقاده الجازم باهل البيت.

اما بالنسبة للمختار فقد نسبت اليه الكثير من التهم الباطلة الكاذبة، ولا يمكن التصديق بسهولة ان الامام السجاد اتهمه بالكذب اذ ينقل عنه انه قال: «المختار يكذب على الله ورسوله»^(٢)، بل ان الثابت لنا عكس ذلك، فعندما ارسل له المختار رأس عبيد الله بن زياد المجرم الاصلي والسبب الاساس لمذبحة كربلاء الفجيعة، دعا له الامام وقال: «جزى الله المختار خيراً»^(٣).

وورد في ذلك انه: «لم يبق من بني هاشم احد الا قام بخطبة في الثناء على المختار وجميل القول فيه»^(٤).

وروي ايضاً عن الامام الباقر عليه السلام انه قال: «لا تسبوا المختار فانه قتل

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال.

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢١٣.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٧.

(٤) ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٥.

قتلتنا، وطلب ثارنا، وزوج اراملنا، وقسم فينا المال على العُسرة»^(١).

ولما سأله ابنه عن موقفه ازاء المختار اظهر له ايجابية الموقف^(٢).

وعلى آية حال لم تدم ثورة المختار طويلاً اذ سرعان ما أخذت عام ٦٧ للهجرة على يد الزبيريين.

اما الحصيلة النهائية التي يمكن ان تستخلص من مجموع الدراسة التي تمت حول شخصية المختار واتجاهه السياسي فيمكن القول:

رغم أن المختار كان من وجهة النظر الاعتقادية والمشاعر المذهبية شخصية مذهبية وبريئة من التهم التي نسبت اليها والاکاذيب التي لفقت ضدها، الا أنه كان يميل الى التعامل السياسي في سلوكه الاجتماعي. فقد كان يتصور انه لو تمكن من اقناع احدى شخصيات اهل البيت لتزعم حركة الثورة، فإنه سيكون في مأمن من المؤامرات التي كان من المحتمل ان يدبرها ضده اعداؤه خاصة الزبيريين، ورغم ذلك فقد تسبب استناده واعتداده على شخصية محمد بن الحنفية في حصول مشاكل كثيرة له و يمكن القول ان سلوكه السياسي قد تغلب على الجانب الديني من سلوكه.

ومع ان المختار احرز انتصارات سياسية باهزة لكن اعداءه خارج الكوفة وداخلها من قعهم، اوجدوا في طريقه العديد من المعوقات التي ادت اخيراً الى اسقاط ثورته التي صنعتها وقادها بنفسه.

ومن ابرز خصائص حركته السياسية هو اعتقاده المفرط على الموالي في

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٥

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٦.

الكوفة، والذين يشكل الایرانيون الغالبية العظمى منهم، بحيث ان التقل الاكبر في تحرك المختار ضد مجرمي كربلاء وقع على اكتافهم، وكان من الواضح انه سيواجه مصاعب جمة من جراء اتباعه لهذا النظام، ونتيجة لوجود التعصب الشديد بين العرب المنافق من الایحاءات الشيطانية التي كان يقوم بها الامويون وبعض الحكام والخلفاء الذين جعلوا رؤية المسلمين العرب وفهمهم وتقديرهم وسلوكهم تصب جميعاً في قالب توجهاتهم الفكرية الخاصة. وان الاتكاء على الموالي قد اتاح لهم الفرصة ايضاً لادانة من وجهة نظر الطبقة العربية في المجتمع الاسلامي والتي كانت تشكل آنذاك اقوى فئة في المجتمع الاسلامي. ورغم كلّ هذه الظروف فقد استطاع وبالاعتزاز على هؤلاء الاشخاص الاستمرار لمدة اكثـر من عام (٦٦-٦٧).

الامام السجـاد عليه السلام واصحـابه

ان الانحراف الذي اشرنا اليه، وكذلك شبهة الامامة التي ظهرت وashiـعـت بين اهل الكوفة حول محمد بن الحنـفـية خلافاً لرغـبـته، قد جـعـلـ البعضـ منـهمـ حـائـراً في مـعـرـفـةـ الوـصـيـ الذيـ عـيـنـهـ الحـسـينـ بنـ عـلـيـ عليه السلام. فقد اقرَّ القاسمـ بنـ عـوفـ وـهوـ اـحـدـ اـصـحـابـ السـجـادـ عليه السلامـ بـانـهـ كانـ مـتـرـدـداًـ فيـ بـداـيـةـ الـامـرـ بـيـنـ عـلـيـ عليه السلامـ وـمـحـمـدـ بنـ الحـنـفـيـةـ ^(١).

وـمـنـهـمـ كـمـاـ يـقـولـ الـكـشـيـ: ابوـ حـمـزةـ الثـمـالـيـ وـفـرـاتـ بنـ الـاحـنـفـ ^(٢).

وهـنـاكـ اختـلـافـ حولـ سـعـيـدـ بنـ الـمـسـيـبـ، فـقـدـ اـعـتـبـرـهـ الـبـعـضـ مـنـ اـصـحـابـ الـامـامـ السـجـادـ عليه السلامـ وـلـكـنـهـ ظـاهـراًـ كـانـ يـحـكـمـ وـفـقاًـ لـفـتاـوىـ الـعـامـةـ. وـوـرـدـ فيـ كـتـابـ

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٤ ط. مشهد.

(٢) نفس المصدر السابق.

رجال الكشي ان موقف ابن المسيب اغا كان بهدف التخلص من مخالب الجور والقتل الاموي.

وعلى كل حال فانه كان يكن للامام احتراماً لا ينكر. وكان ينهل منه العلم والاخلاق، الا انه لم يشارك في تشيع جنازة الامام، واعترض عليه الناس بشدة^(١).

واما ما عدا هؤلاء فقد كانوا يعتبرون -وطبقاً لمصادر الشيعة- من اخلص الناس واكثراهم استقامة. فقد ورد في رواية ان اشخاصاً معدودين وقفوا الى جانب علي بن الحسين في الايام الاولى لامامته هم: سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومحمد بن جبير بن مطعم ويحيى بن ام طويل وابو خالد الكابلي^(٢).

وكما ذكرنا سابقاً، فقد تعرض المجتمع الشيعي بعد واقعة كربلاء الدامية الى ضعف وتشتت شديد، ولم يكن احتلال سقوطه وانقراضه التاريخي بعيداً لا سبياً وان البقية المتبقية من المجتمع الشيعي آنذاك تعرضت للانشقاق والفرقة واصيبت نتيجة ذلك بالانحراف والضياع. وفي مثل هذه الظروف العصبية المضطربة بدأ الامام السجاد ممارسة مهمته. فشرع اولاً بالاستناد الى احاديث رسول الله المروية عنه عليه السلام بواسطة امير المؤمنين والحسينين عليهم السلام والتي تألفت منها ومن الاحاديث الاخرى المنقولة عن سائر ائمة الشيعة، سنة النبي الموثقة المعتمدة من وجة النظر الشيعية، بتجديده المنهاج الفقهي لدى الشيعة، وبلوره أنسسه ونشر واسعة نط التفكير الشيعي لصيانتها من التزق والانحراف ورفدها بحياة جديدة.

(١) نفس المصدر السابق ص ١١٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٥.

ورغم جهود الامام المتواصلة التي ادت طبعاً الى بقاء الشيعة الا أنّ المدينة وبسبب الانحرافات الفكرية التي سادتها منذ صدر الاسلام، وما نتج عنها من اجواء متشائمة من الخط الفكري الشيعي، لم تكن مناخاً مناسباً لتنامي الشيعة كما قال السجاد عليهما السلام: «ما بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ عَشْرُونَ رَجُلًا يَحْتَنَا»^(١).

موقف الامام من الامويين

كان اول موقف للامام مع ولادةبني امية بعد واقعة كربلاء هو موقفه من عبيد الله بن زياد في دار الامارة بالكوفة، اذ سأله ابن زياد في هذا اللقاء عن اسمه فاجابه الامام ان اسمه علي. فقال له ابن زياد: ألم يقتل الله علي بن الحسين في كربلاء؟ فأجابه عليهما السلام: كان لي اخ يدعى علياً قتله الناس. فقال ابن زياد: بل قتله الله. فقال الامام: «الله يتوفى الانفس حين موتها»^(٢) كناية عن ان الله هو الذي يقبض ارواح الناس عند انتهاء آجالهم، لكن اهل الكوفة هم الذين قتلواه.

واراد ابن زياد قتله، لكن زينب ابنة امير المؤمنين تدخلت في الموضوع وحالت بينه وبين قتله^(٣).

وتحدّث معه يزيد ايضاً في الشام ووجه له اللوم والتقرير^(٤). ثم أتيحت للامام فرصة مؤاتية لارتقاء المنبر فاورد خطبة غراء عرّف بها الناس بنفسه ونسبه، وكان الامويون قد ضلّلوا اهل الشام بدعایاتهم ولم يتبيّحوا لهم معرفة اهل

(١) ابن ابي الحديد ج ٤ ص ١٠٤ ، وراجع كتاب البحارج ٤ ، الغارات ص ٥٧٣.

(٢) الزمر / ٤٢.

(٣) الطبرى - ج ٥ ص ٢٣١ ط غز الدين ، المنتخب من ذيل المذيل ص ٦٣٠.

(٤) ابن عبد ربّه - العقد الفريد ج ٥ ص ١٣١.

بيت النبي كما ينبغي، فاطلعوا من خلال خطبة الامام على بعض الحقائق وهذا السبب منعه يزيد من مواصلة الخطبة وانزله من على المنبر. ثم سعى يزيد الى حفظ ماء وجهه فالقى بالذنب في قتل سيد الشهداء على ابن زياد، وارسل على بن الحسين وبقية اسرى كربلاء الى المدينة بكل احترام.

وبعد واقعة كربلاء ثار اهل المدينة ضد الامويين ومهدوا الامور لواقعه الحرة وكانت تلك الثورة بقيادة عبدالله بن حنظلة المعروف بغضيل الملائكة، وكان الدافع من ورائها هو حياة اللعب والفسق والفحور التي كان يحياها يزيد وكانت تلك الثورة ذات طابعٍ معاِدٍ للامويين.

وقد اتخذ الامام في هذا الامر موقفاً محايداً وخرج من المدينة بصحبة عدد من افراد عائلته ولم يشارك في تلك الثورة بصفته زعيماً للشيعة، لأن اي تعاون له مع القائمين بالثورة كان سيجلب على الشيعة اشد الوييلات والمخاطر، لأن تلك الحركة كانت غير محسوبة النتائج ولم يكن لها موقف سياسي متين وواضح.

وعلاوة على هذا، فعندما طرد الناس الامويين من المدينة في بداية اندلاع الثورة، تقدم مروان بن الحكم الى الامام وطلب منه ايواء زوجته فاستجاب الامام لطلبه بمقتضى رجولته وعطفه الذي لا يدخل به حتى على الدّاعي ادائه فآوى زوجة مروان وجعلها في مأمن من اذى الثوار.

وقد فسر الطبرى فعل الامام هذا بوجود صداقة قديمة تربطه بمروان^(١). بينما يشير الاختلاف الفاحش في السن بينهما وكذا السلوكية العدوانية للامويين ازاء اب الامام وجده وكل بني هاشم، الى ان رأى الطبرى هذا ليس سوى تهمة لا

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٥.

اساس لها من الصحة.

ولما قع مسلم بن عقبة المعروف بالمسرف ثورة اهل المدينة وارتكب اكثراً الجرائم وحشية ودموية في العصر الاموي، عامل علي بن الحسين عليهما السلام خاصة تسم بالاحترام واللين وذلك بسبب عدم مشاركته في ثورة المدينة لكن المسرف كان يعزو احترامه وسلوكه هذا لتوصية شخصية من يزيد بشأن الامام فهو عندما طلب من اهل المدينة البيعة ليزيد على انهم عبيد له، اكتفى من الامام السجاد بتلك البيعة المتعارفة^(١).

وبيني للتعرف الدقيق على الموقف السياسي والاجتماعي لكل واحد من الائمة من الاخذ بنظر الاعتبار الظروف الخاصة بكل عصر وواجب كل امام في تلك الفترة علاوة على الوضع السياسي العام السائد في المجتمع المعاصر لذلك الامام ومدى امكان المواجهة العسكرية والفرصة لاعداد الصوف المقاتلة. وفوق ذلك في الامامية ضرورة المحافظة على الاسلام الاصيل في مختلف الظروف وملحظة عنصر الغيب، لأن مثل هذه الظروف وهي التي تحدد الخطوط الاساسية لسياسة ونمط حركة كل امام في مجتمعه.

ومن الطبيعي ان كل ظرف يقتضي عملاً خاصاً، وكل عاقل يدرك عدم امكانية اتباع سياق عمل واحد في الظروف المختلفة.

وفيها يخص الامام السجاد عليهما السلام - كما اشرنا سابقاً - وجد نفسه في اجواء سياسية واجتماعية أملت عليه صياغة كل اهتمامه على صياغة شكل جديد للمذهب الشيعي الذي لم يكن في ذلك الوقت على هيئة فئة معينة في المجتمع، ونشره

(١) ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٢٥٩، ابن سعد ج ٥، الاربلي كشف الغمة ج ٢ ص ١٠٧.

والمحافظة عليه.

وفي ذلك الوقت كان الامام موضع سوء ظن من قبل الامويين، وكانت ادنى حركة منه ستجلب له اسوء العواقب. وفي ظل هذه الظروف يكون طبيعياً من الامام ان يعتبر اية حركة لا تساوي تحمل مثل هذه العواقب الوخيمة.

وكان من أهم المبادئ الدينية التي ساعدت الامام على المحافظة على نفسه وشيعته واتباعه من الاجراءات القمعية لاعدائه هو مبدأ التقية. فالتقية كانت بمثابة الدرع الذي صان وجود واستمرارية حياة الشيعة على مر التاريخ، وقد كان ائمّة الشيعة يؤكّدون على اتباعهم دوماً بضرورة رعايتها والالتزام بها بدقة. كما كان طبيعياً أن تذكر بعض الجماعات -التي لم ت تعرض لاي ضغط سياسي، فكانت تعمل بحرية مطلقة بل كانت تحظى بدعم السلطات الحاكمة ايضاً فلم تكن بحاجة الى النشاط الخفي (التقية) - مبدأ التقية بهدف اضعاف الشيعة، رغم الوجود الصريح لهذا المبدأ في القرآن والشّرعة.

فقد ورد في رواية عن الامام السجاد عليه السلام انه قال: «من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كمن ترك القرآن وجفاه الا من كان في تقية. فقيل له: وما التقية؟ قال: يخاف جباراً عنيداً يخاف ان يفرط عليه او يطغى»^(١).

ومبدأ التقية هذا وان كانت جذوره موجودة في القرآن. الا انّ ائمّة اهل البيت كانوا كثيراً ما يؤكّدون على ضرورة مراعاته من الناحية الفقهية، وكانوا اكثر الناس تقيداً به. وكان الامام السجاد يعيش حقيقة في ظروف مضطربة تفرض عليه انتهاج سبيل التقية، اذ لم يكن امامه سوى اختيار ذلك الطريق.

(١) ابن سعد- ج ٥ ص ٢١٤، ابو نعيم نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٠.

ورد في رواية ان رجلاً دخل على الامام السجاد وسأله: «يا ابن رسول الله كيف أنتم؟ فقال له: أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الامة مثلبني اسرائيل كان يذبح ابناوهم و تستحيها نساوهم، لا وان هؤلاء يذبحون ابناءنا ويستحيون نساعنا. زعمت العرب ان لهم فضلاً على العجم. فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم صدقتم، وزعمت قريش الفضل على غيرها من العرب وقالت كان محمد منا. فان كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأننا ذرية محمد واهل بيته وخاصته وعترته لا يشاركتنا في ذلك غيرنا. الا أنهم ظلمونا ولم يعطونا حقنا، فان كنت لا تعلم فهكذا نحن».

يقول الراوي كان الامام يتحدث وكأنه يريد أن يُسمع من حوله^(١).

وفي العبارة اعلاه شبه وضع اهل البيت في آل أمية بوضع بني اسرائيل في آل فرعون. وهذا خير توضيح للأوضاع المزرية التي تعرض لها هو واهل بيته وانصاره. والذي يسترعي الانتباه هنا هو ان الامام وفي مثل هذه الظروف العصيبة اتخذ نفس غط الاستدلال الذي اتبعه امير المؤمنين عليه السلام في مواجهة قريش حيث يشير هناك الى ان قريش غلت خصومها بالاستدلال بقربتها من رسول الله واخذت الخلافة لنفسها، وبناء على هذا الاستدلال فينبغي ان يكون امير المؤمنين على عليه السلام احق الناس باستلام زمام امور الدولة الاسلامية الواسعة. وهكذا كان الامام يسعى الى اثبات احقية اهل البيت بقامة الخلافة وانه لا يغض النظر عن هذا الحق في احلك الظروف.

(١) ابن سعد - ج ٥ ص ٢١٨، الطبرى - المنتخب من ذيل المذيل ص ٦٣١، وقد نسبت الرواية اعلاه في امامي الشیخ الطوسي ص ٩٤ البخارى ج ٤٦ ص ٢٦٠ الى الامام البارى عليه السلام.

ولما حذرت واقعة الحرة وقتل فيها عدد كبير من صحابة رسول الله وأبنائهم، وهو حجت الكعبة وأضرمت فيها النار على يد مسلم بن عقبة وخليفته من بعده الحسين بن نمير، ولم يكن خلاها من يجرؤ على الاعتراض على هذه الاعمال المعادية للإسلام. وفيما أصبح سبًّ أمير المؤمنين عليه السلام من فوق المنابر ستة جارية، اذا تركها الخطيب رفع الناس اصواتهم بالاعتراض... في ظل تلك الوضاع لم يكن لدى الامام سوى عدد محدود من الصحابة المقربين، كما لم يكن بامكانه القيام بعمل فاعل ورائع، ولذا فانه راي انَّ الوضع يحتم عليه تجميع الشيعة من جديد بعد تعرّضهم للتشرّذم وتربية جماعة من الصحابة على الإسلام الأصيل وتزويدهم بالعلوم والمعارف الإسلامية الأصيلة والحقيقة، وتجديد بناء المجتمع الشيعي في الفرصة المناسبة لكي ينقد بعمله هذا الإسلام الأصيل من النسيان في خضم الأحداث التاريخية، وهذا فقد كان ينصح الانصار الذين يأتون إليه من اقاصي البلاد بالصبر، ويوصيهم بالتحمل، وينههم عن اشهار السلاح الذي لم يكن يشر شيئاً سوى الموت^(١).

استفادته من سلاح الدعاء

عندما أصيب المجتمع الإسلامي بالانحراف وغلب عليه حب الرفاه والميل إلى الدنيا وطفت عليه مظاهر الفساد السياسي والأخلاقي والاجتماعي، واستولت عليه حالة من الكبت وسرت في أوصاله سريان السرطان فلم يبق للمجتمع منفذًا للتنفس، استفاد الإمام السجادي عليه السلام من الدعاء لطرح بعض المعتقدات والمباني الثقافية الإسلامية فأوجد لدى الناس مرة أخرى اندفاعاً وحركة نحو

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦ بـ

العبادة والتوجه الى الله. ومع ان الهدف الرئيس من تلك الادعية هو العبادة، الا أن التعم في العبارات الواردة بين طياتها يمكن ان تدلنا على المفاهيم السياسية التي يقصدها الامام.

فالصحيفة السجادية التي تشمل على اكثر من خمسين دعاءً، لا تشكل في الحقيقة الا بعضاً من ادعية الامام السجاد عليهما السلام. فهناك مجاميع أخرى من الادعية اعدت بصورة كتب بلغ تعدادها مع الصحيفة المشهورة ستة كتب يحتوي بعضها على اكثر من ١٨٠ دعاء^(١).

وهذه الادعية غير موجودة لدى الشيعة فقط بل هي متداولة ايضاً على ألسنة اهل السنة^(٢). وهذا ما يشير الى ان ادعية الامام السجاد عليهما السلام قد نفذت حينذاك الى اعماق ذلك المجتمع وقد استفاد منها كلا الفريقين باعتبارها طريقاً يؤدي الى الله وحلقة وصل بين المخلوق والخالق.

وهناك تعبير غالباً ما يتكرر وجوده بين تلك الادعية وقلما تجد دعاءً يخلو منه هو «الصلوة على محمد وآل محمد» وقد استخدمت هذه العبارة في وقت اصبحت تسمية الاشخاص باسم علي امراً مستهجنأً من قبل حكام بني أمية، وجرية يُعاقب عليها. وتعرض الناس تحت هذه الذريعة للتهديد واللاحقة، وكأن الامر ما كان ليستقيم لسلطتين آل أمية الاً بسب علي امير المؤمنين عليهما السلام^(٣)، وهنا تتضح قيمة هذه العبارة واهداف من تكرارها. وهناك تعبير مثل: محمد وآله الطيبين الطاهرين الاخيار الانجبيين، وهي من الامثلة التي تكررت مرات

(١) آقا بربزك طهراني - الذريعة ج ١٥ ص ٢٠.

(٢) ابن ابي الحديد ج ١١ ص ١٦٢ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٥ ص ١١٣.

(٣) ابن ابي الحديد ج ١٣ ص ٢٢٠، البلاذري - انساب الاشراف ج ١ ص ١٨٤.

متعددة في تلك الادعية.

ان تأكيد الامام على قضية محمد وآلـه امر فرضه الله في الصلاة عليهم، ويحظى باهمية بالغة في تبيان عقائد الشيعة. وقبل التطرق الى نقل مضامين من ادعية الامام الواردة في الصحيفة السجادية، نرى من المناسب هنا ايراد حديث عنه في تحكيم آصرة محمد وآلـه، فقد ورد عنه انه قال: «ان الله فرض على العالم الصلاة على رسول الله وقرننا به، فمن صلّى على رسول الله ولم يصلّى علينا لقي الله تعالى وقد بتر الصلاة عليه وترك اوامره»^(١).

ومن جملة المضامين السياسية - الدينية التي وردت في الصحيفة هي مسألة الامامة التي طرحت على شكل مفهوم اسلامي يشتمل بالإضافة الى احقيـة واولـوية اهلـالـبيـت في تولـيـ قيـادـةـ المـجـتمـعـ اـلـاسـلـامـيـ علىـ جـوـانـبـ اـهـلـيـةـ منـ قـبـيلـ العـصـمـةـ وـالـاسـتـفـادـةـ منـ عـلـوـمـ الـاـنـبـيـاءـ وـخـاصـةـ النـبـيـ الـاعـظـمـ. وـنـوـرـدـ فـيـاـ يـلـيـ مـقـاطـعـ منها:

«ربـ صـلـىـ عـلـىـ اـطـائـبـ اـهـلـ بـيـتـهـ الـذـيـنـ اـخـتـرـتـهـمـ لـأـمـرـكـ وـجـعـلـتـهـمـ خـزـنـةـ عـلـمـكـ وـحـفـظـةـ دـيـنـكـ، وـخـلـفـاءـكـ فـيـ اـرـضـكـ وـحـجـجـكـ عـلـىـ عـبـادـكـ وـطـهـرـتـهـمـ منـ الرـجـسـ وـالـدـنـسـ تـطـهـيرـاـ بـارـادـتـكـ وـجـعـلـتـهـمـ الـوـسـيـلـةـ يـكـ وـالـمـسـلـكـ إـلـىـ جـنـّـتـكـ»^(٢).

وورد في ادعية أخرى. «اللـهـمـ انـ هـذـاـ المـقـامـ لـخـلـفـائـكـ وـاـصـفـيـائـكـ، وـمـوـاـضـعـ اـمـنـائـكـ فـيـ الـدـرـجـةـ الرـفـيـعـةـ التـيـ اـخـتـصـتـهـمـ بـهـاـ قـدـ اـبـتـرـوـهـاـ حـتـىـ عـادـ

(١) تاريخ جرجان ص ١٨٨.

(٢) نفس المصدر الدعاء ٤٧ الفقرة ٥٦.

صفوتوك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مُبْتَزِين. اللهم عن اعدائهم من الأولين
وآخرين، ومن رضي بفعالهم وأشياعهم واتباعهم»^(١).

«وصل اللهم على خيرتك من خلقك محمد وعترته الصفوة من بريتك
الظاهرين واجعلنا لهم سامعين ومطيعين كما امرت»^(٢).

«اللهم انك أيدت دينك في كل أوانِ بامامِ اقمته علماً لعبادك ومناراً في
بلادك بعد أن اوصلت حبله بحبك وجعلته الذريعة الى رضوانك وافتراضت
طاعته وحضرت معصيته وامررت بامثال اوامره والانتهاء عند نهيه ولا يتقدمه
متقدم ولا يتاخر عنه متأخر فهو عصمة اللائدين وكهف المؤمنين وعروة
المتمسّكين وبهاء العالمين واقم به كتابك وحدودك وشراييك وسنن رسولك
صلوات الله عليه وآله واحي به ما اماته الظالمون من معالم دينك واجل به
صداء الجور عن طريقتك وابن به الضّراء من سبيلك وازل به الناكبين عن
صراطك وامحق به بُغاة قصتك عوجا واجعلنا له سامعين مطيعين وفي رضاه
سامعين»^(٣).

يتضح جلياً من خلال العبارات السالفة ان الامام كان يبذل جهوداً حثيثة
لنشر مبدأ الاعتقاد بالامامة بمفهومه الشيعي على اعتباره اهم مسألة في المسائل
الاعتقادية الاسلامية ونظير هذا الثناء على اهل البيت يلاحظ بكثرة في نهج
البلاغة ايضاً.

(١) نفس المصدر السابق - الدعاء ٤٨ الفقرة ٩.

(٢) الصحيفة السجادية ، الدعاء ٢٤ الفقرة ٥.

(٣) الصحيفة السجادية - الدعاء ٤٧.

وهنا ينبغي الاشارة الى ان احدى الوظائف العظيمة الاهمية بالنسبة للائمة الاطهار هي تقديم انفسهم للناس بصفتهم ائمة منصبين من قبل الله . وهي الوظيفة التي ادّاها امير المؤمنين عليه السلام ويتنا في رحبة مسجد الكوفة من خلال طرحة لحديث الغدير وفي قالب كلمة اهل البيت عليهم السلام وغمّرهم بين الناس كان يقتضي تقديم اهل بيته عليهم السلام الحقيقين الى الناس ، حتى لا يتكرر ما حصل في الشام وفي المناطق الالخرى من العالم الاسلامي حينما قال اهل الشام للسفّاح انهم لا يعلمون اهل بيته عليهم السلام سوى بني امية . فعندما اخذ الامام السجاد عليه السلام الى الشام ، يبيّن للناس ما ينبغي لهم معرفته في هذا الصدد سواء في الخطبة - كما هو معروف - او من خلال احاديثه المباشرة مع الناس .

فها هو ابن الاعثم راوي هذا الحديث ينقله لنا كما يلي :^(١) «أدخلوا حرم رسول الله الى دمشق من الباب المسمى بـ«التوماء» ووضعوهم في المكان الذي يوضع فيه الاسرى قريباً من باب المسجد وعندها اقترب منهم شيخ وقال: الحمد لله الذي قتلكم وأراح الناس منكم وسلط امير المؤمنين عليكم .

فقال له الامام السجاد: يا شيخ هل قرأت القرآن؟

قال: نعم قرأتها .

قال: هل قرأت هذه الآية: **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُؤْدَةُ فِي الْقُرْبَى»**؟

قال: نعم قرأتها .

(١) ابن الاعثم - ج ٥ ص ٢٤٢ .

قال: يا شيخ نحن القربى. يا شيخ وهل قرأت آية **«وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ»** في سورة بني اسرائيل؟

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن ذوى القربى. وهل قرأت: **«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غُنْمَتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ»**؟

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن ذوى القربى، وهل قرأت هذه الآية: **«إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرُّجْسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا»**.

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن اهل البيت الذين خصمهم الله بآية التطهير.

فسكت الشيخ ساعة وظلّ نادماً وقال: اللهم اني اعوذ بك مما قلت وما سبق مثني من بغضهم، اللهم اني ابرأ اليك من اعداء محمد وآل محمد».

وبالاضافة الى ما طرحته الامام في هذه الادعية من مواضيع سياسية، فانه قد حاول فيها ايضاً تبيان العقائد الاسلامية الصحيحة في قالب هذه الادعية مثل باب التوحيد وما شابه ذلك. فحيينا تناهى الى سمعه ان جماعة يشتبهون الله بالمخلوقات، جاء الى قبر النبي صلوات الله وآله وسلامه غاضباً وقرأ دعاء بين في المفهوم الاصيل للتوحيد وردّ عقيدة التشبيه^(١).

في المجتمع الذي عمل بنو امية على انحطاطه، وجعلوا من الاسلام العزيز

(١) الاربلي- كشف الغمة- ج ٢ ص ٨٩ ط تبريز.

العقبة في أيديهم ووسيلة لتحقيق أغراضهم الخبيثة وتمشية اهوائهم الدينية، اضحت ترثّم الامام السجاد بتلك الادعية وبكاؤه المتواصل درساً تربوياً وهّزة عنيفة للناس المخدوعة والمستغفلة في ذلك العصر. وكما كان الامام كثير الحزن والبكاء على واقعة كربلاء وما تثيره ذكرها لديه من لوعة وشجون وكان يقول:

«لقد بكى يعقوب على يوسف وهو لا يعلم أحّي هو ام ميت حتى ابيضت عيناه، فكيف لا ابكي وقد رأيت اجساد ١٦ من خيرة آل بيت الرسول تقطع او صالهم»^(١).

الامام السجاد عليه السلام واستقطاب الموالى

من جملة المساعي ذات الطابع الديني - السياسي التي بذلها السجاد في تلك الايام هي الالتفات الى طبقة تعرضت ومنذ عهد الخليفة الثاني فصاعداً الى اقسى الضغوط الاجتماعية وخاصة في العصر الاموي، اذ كانت من اشد الطبقات التي عانت الحرمان في القرون الاولى من انشقاق المجتمع الاسلامي فقد كان العبيد بما في ذلك الرجال والنساء الایرانيون منهم والروميون والمصريون والسودانيون يتحملون اشد صنوف العمل قسوة ويتلقون من اسيادهم اقبح انواع الاهانة والاحتقار^(٢).

فكان الامام السجاد كجده امير المؤمنين - الذي استقطب بسلوكه الاسلامي بعضاً من موالى العراق - يسعى لرفع المنزلة الاجتماعية لهذه الطبقة المحسوقة وعندما اعتق الامام احد إمائه وعقد عليها عابه عبد الملك بن مروان على ذلك

(١) ر. كـ- الطبرى - ج ٥ ص ٢١٢ ط عز الدين بيروت.

(٢) ذكرنا هذا الموضوع في كتاب «التاريخ السياسي للإسلام الى سنة اربعين للهجرة».

وقال له : ما الذي دفعك لمثل هذا العمل؟ فاجابه الامام السجاد محتاجاً بالآية الشرفية : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»^(١) وهو يشير بذلك الى زواج النبي ﷺ من صفية وينبه الى ما فعله النبي ﷺ حيث عقد لابنته عمتة زينب على زيد بن حارثة الذي كان عبداً^(٢) وبهذا يكون الامام قد احيا من جديد السيرة الحسنة التي كانت على عهد رسول الله واندرست في العهد الاموي نتيجة للاحتقار الذي لحق بالعبيد.

كتب سيد الاهل يقول :

«كان الامام السجاد يشتري العبيد من غير حاجة له فيهم وانما كان يشتريهم ليعتقدون وقد قيل انه اعتق ما يقارب المائة الف عبد. وكان العبيد الذين يعلمون ذلك يجعلون انفسهم دائماً امام ناظريه ليشتريهم ويعتقدون. وكان الامام السجاد عليه السلام يعتقدون في اليوم والشهر من السنة. وسرعان ما امتلأت المدينة بجماعات كبيرة من الموالي المعتوقين من الرجال والنساء وكانوا باجمعهم من موالي»^(٣).

وكتب العلامة السيد محسن الأمين :

«كان الامام السجاد يعتقد في نهاية كل شهر رمضان عشرين منهم، ولم يحتفظ بايٍ منهم على حالة الرق اكثر من عام، وكان يضع الاموال في ايديهم بعد عتقهم حتى لا يحتاجوا الى الناس»^(٤).

(١) سورة الاحزاب : ٢١ .

(٢) ابن سعد - ج ٥ ص ٢٤ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٧ ص ١٤٠ .

(٣) سيد الاهل . زين العابدين ص ٤٧ .

(٤) اعيان الشيعة - ج ٤ ص ٤٦٨ .

وخلال فترة السنة التي يقضيها هؤلاء كخدم في داره يطّلعون عن كتب على شخصيته العلمية والأخلاقية ويتعرّفون على تقواه. وكان من الطبيعي ان تتعلق قلوب الكثير منهم بشخصيته ونمط تفكيره وسلوكه.

وفي احد الايام كان الامام السجاد عليه السلام خارجاً من المسجد فسبّه رجل، فهجم عليه الموالي لتأديبه، فنעם الامام عن ذلك وقال: «ما خفي عليه من سرنا فوق ما يقول». فاستحب الرجل وصار فيما بعد من شمله عطف الامام^(١).

وروى الطبرى عن عبدالله بن محمد بن عمر: «كان هشام بن اسماعيل (والى المدينة) يسيء جوارنا، ولقي منه علي بن الحسين عليه السلام اذىً شديداً. فلما عزل امر به الوليد ان يوقف للناس، فقال ما اخاف الاً من علي بن الحسين. فرّ به علي بن الحسين وقد اوقف عند دار مروان فسلم عليه. وكان علي بن الحسين قد تقدم الى خاصته ان لا يعرض له احد بكلمة. فلما مرّ ناداه هشام: الله اعلم حيث يجعل رسالته».

ان سلوكية الامام السجاد هذه هي التي غرست عظمته وجلاله في قلوب الناس وجعلتهم يحترمونه الى حد الخضوع حتى امام الخلفاء الذين اوجدوا لهم أئمة كاذبة بين الناس.

فقد روى ان هشام بن عبد الملك عندما حج اجتهد ان يستلم الحجر فلم يقدر فجاء علي بن الحسين فوقف له الناس وتنحوا حتى استلمه فقال اهل الشام هشام: من هذا؟ فقال: لا اعرفه، فقال الفرزدق: ولكنني اعرفه؟ هذا علي بن الحسين، وارتجل قصيدة في مدحه قال فيها:

(١) الشبراوى، الاتحاف ص ١٣٧، الاربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ١٠٢.

عندي بيان اذا طلابه قدموا
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
صلى عليه إلهي ما جرى قلم
لخر يلثم منه ما وطا القدم
امست بنور هداء تهدي الام
مقتول حمزة ليث حبه قسم
وابن الوصي الذي في سيفه نقم
الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
العرب تعرف من انكرت والجم
عن نيلها عرب الاسلام والجم
فلا يكلم الا حين يبتسم
كالشمس تنجاب عن اشراقها الظلم
لولا التشهد كانت «لاءه» نعم
طابت عناصره والخيم والشيم
حلو الشمائل تحلو عنده نعم
بجده انبياء الله قد حتموا
جري بذلك له في لوجه القلم
وفضل أمنته دانت له الام
عنها العمایة والاملاق والظلم
يستوکفان ولا يعروهما عدم

يا سائلی این حل الجود والكرم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خیر عباد الله کلهم
هذا الذي احمد المختار والده
لو يعلم الرکن من قد جاء يلثمه
هذا على رسول الله والده
هذا الذي عمه الطیار جعفر والـ
هذا ابن سیدة النسوان فاطمة
اذا رأته قریش قال قائلها
يكاد يمسكه عرفان راحته
وليس قولك من هذا بضائره
ينما الى ذروة العز التي قصرت
يُغضي حیاءً ویُغضي من مهابته
يشق ثوب الدجى عن نور غرته
ما قال «لا» قط الا في تشهد
مشتقة من رسول الله نبعثه
حمل اثقال اقوام اذا فدحوا
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
الله فضله قدماً وشرفه
من جده دان فضل الانبياء له
عم البرية بالاحسان فانقشعـت
كلتا يديه غیاث عم نفعهما

يزيده الخصلتان الحلم والكرم
رحب الغناء أريب حين يعترم
كفر وقربهم منجى ومعتصم
ويستزاد به الاحسان والنعم
في كل فرض ومحظوم به الكلم
او قيل من خير اهل الارض؟ قيل هم
ولا يداينهم قوم وان كرموا
والأسد اسد الشرى والباس محتمد
خيم كريم وايد بالندى هضم
سيان ذلك ان اثروا وان عدموا
لأولية هذا او له نعم
فالدين من بيت هذا نالت الامم
في النائبات وعند الحكم اذ حكموا
محمد وعلى بعده علم
والخندقان ويوم الفتح قد علموا
وفي قريطة يوم صيلم قتم
على الصحابة لم اكتم كما كتموا

سهل الخليقة لا تخشى بوادره
لا يخلف الوعد ميموناً نقيبته
من عشر حبّهم دين وبغضهم
يُستدفع السوء والبلوى بحبّهم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
ان عَدَّ اهل التقى كانوا ائمته
لا يستطيع جواد بعد غايتها
هم الغيوث اذا ما ازمة ازتم
بابى لهم ان يحل الدَّم ساحتهم
لا يقبض العسر بسطاً من اكفه
اي القبائل ليست في رقابهم
من يعرف الله يعرف اولية ذا
بيوتهم في قريش يُستضاء بها
فجده في قريش في ارومته
بدر له شاهدُ والشعبُ من أحدٍ
وخبير وحنيف يشهدان له
مواطن قد علت في كل نائبة

احماد الباقر

عليه السلام

محمد بن المنكدر: «ما رأيت أحداً يفضل على
علي بن الحسين حتى رأيت ابنه محمدأً اردت
يوماً ان اعظه فو عظني»^(١).

الامام الخامس للشيعة هو محمد بن علي بن الحسين عليه السلام المعروف بالباقر.
ولد سنة ٥٨ للهجرة^(٢). فقد روى عنه اليعقوبي انه قال: «قتل جدي الحسين ولي
اربع سنين واني لاذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت»^(٣).

ذكر اليعقوبي سنة شهادته انها كانت في عام ١١٧ للهجرة الا ان اكثراً
الروايات تشير الى انها كانت عام ١١٤^(٤). سمه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك

(١) تهذيب التهذيب، ج ٩ ص ٢٥٢.

(٢) كشف الغمة ج ٢ ص ١١٨ طبعة تبريز وراجع كتاب بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢١٧.

(٣) اليعقوبي - ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤) الفسوبي، المعرفة والتاريخ ج ٣ ص ٣٤٦، تاريخ ابي زرعة الدمشقي ج ١ ص ٢٩٥.

فاستشهد ودُفن في البقع^(١) في المدينة المنورة.

ذكرت الادلة على امامته مفصلاً في كتب الشيعة^(٢). وكان نقش خاقه الذي يعبر عادة عن شعار الائمة في مواجهتهم لمشاكل عصرهم: «العزّة لله جمِيعاً»^(٣).

اشتر خامس ائمّة الشيعة بلقب «الباقر» وقد فسره جابر بن يزيد الجعفي بقوله: «لأنه بقر العلم بقرأ أي شقه واظهره اظهاراً».

ويقول اليعقوبي: «كان سُمي الباقي لأنَّه بقر العلم»^(٤).

ويقول محمد بن مكرّم أيضًا في معنى كلمة الباقر ما يلي: «التبقر التوسع في العلم والمال وكان يقال محمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر رضوان الله عليهم لأنّه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه»^(٥).

روى جابر بن عبد الله الانصاري رواية في فضل الامام الباقي عليه السلام، يقول عنها ابن شهر آشوب ان جميع فقهاء المدينة وال العراق نقلوها^(١). يقول جابر في هذه الرواية:

«قال لي رسول الله ﷺ: إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي اسمه على اسمي إذا رأيته لم يخل عليك فاقرأه مني السلام».

٢٢١) الفصول المهمة، ص

(٢) اثبات الهدأة، ج ٥ ص ٢٦٣، اثبات الوصية ص ١٤٢، بحث الانوار ج ٤٦، الكافي ج ١ ص ٣٥

^{٣٣} الكافي ج ٢ ص ٤٧٣، حلية الاولىء ج ٣ ص ١٨٦، تاريخ جرجان ص ١٩٤ «القوة الله حمماً».

٤) علل الشرائع ج ١ ص ٢٣٣

٥) لسان العرب، آخر كلمة ياقم .

٦) ر.ك-بحار الانوار ج٦، ص٢٩٤.

وفي تاريخ اليعقوبي جاءت بقية هذه الرواية كما يلي:

«فَلَمَّا كَبَرَ سَنْ جَابِرُ وَخَافَ الْمَوْتَ جَعَلَ يَقُولُ: يَا بَاقِرَ يَا بَاقِرَ أَنْتَ حَتَّىٰ رَأَاهُ فَوْقَ عَلَيْهِ يَقْبِلُ يَدِيهِ وَرِجْلِيهِ وَيَقُولُ: بَابِي وَأُمِّي شَبِيهُ أَبِيهِ رَسُولُ اللهِ َاللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاكَ يَقْرُؤُكَ السَّلَامَ»^(١).

وَتُقْلِتْ هَذِهِ الرَّوْاِيَةُ أَيْضًا عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى أَنَّ كَلْمَةَ الْبَاقِرِ فَضْلَيْةً اخْتَصَتْ بِأَبِيهِ^(٢).

وَقَدْ أَدَى نَقْلُ هَذِهِ الرَّوْاِيَةِ عَنِ رَسُولِ اللهِ َاللهُ يَعْلَمُ إِلَى شَهْرَةِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْلَّقْبِ ثُمَّ كَشَفَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةُ عَنْ وَجْهِهَا الْعَمَلِيِّ حِينَأَضْحَى مَجْلِسُ الْإِمَامِ مَوْطَنًا لِاجْتِمَاعٍ وَاسْتِفَادَةٍ عَدْدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالرَّوَّاَةِ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ.

وَلَمَّا كَانَ زَيْدُ بْنُ عَلَيْهِ زَيْدٌ عَنْدَ هَشَامٍ وَصَفَ هَشَامَ الْبَاقِرَ «بِالْبَقَرَةِ» اسْتِهْزَاءً وَتَتَكَبِّلًا بِزَيْدٍ، فَرَدَ عَلَيْهِ زَيْدٌ قَائِلًا: «سَمَاهُ رَسُولُ اللهِ َاللهُ يَعْلَمُ الْبَاقِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَاقِرُ الْعِلْمِ وَأَنْتَ تَسْمَيهِ الْبَقَرَةَ لَقَدْ اخْتَلَفْتَمَا اذْنَ»^(٣).

المكانة العلمية للإمام الباصر عَلَيْهِ السَّلَامُ

لَا شَكَّ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ عَلَمَاءِ السَّنَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَاقِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حَازَ عَلَى شَهْرَةِ عَالْمِيَّةِ فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ مَجْلِسُهُ يَغْصُّ دُومًا بِالْوَافِدِينَ مِنْ مُخْتَلِفِ اِرْجَاءِ وَاصْقَاعِ الْأَرْضِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَكَانَتْ مَكَانَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ بِصَفَتِهِ رَجُلًا عَالَمًا وَفَقِيَّاً

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٠، ور.ك. الطبرى، المختوب من ذيل المذيل ص ٤٢.

(٢) الاختصاص ص ٦٢.

(٣) ابن قتيبة، عيون الاخبار ج ٢ ص ٢١٢.

و خاصة باعتباره حاملاً لعلوم اهل البيت، تستهوي الكثيرين للاستفادة من مجلسه والاستعانت به لحل المعضلات العلمية والفقهية التي تواجههم. وقد فتن بشخصيته في ذلك الوقت اهل العراق الذين كان يشكل الشيعة نسبة كبيرة منهم^(١).

وكان الوافدون عليه يبدون خضوعاً واجلاً كيراً لشخصيته العلمية بحيث كان عبدالله بن عطاء المكي يقول: «ما رأيت العلماء عند أحدٍ قط أصغر منهم عند أبي جعفر ولقد رأيت الحكم بن غيينة مع جلالته في القوم بين يديه كأنه صبيٌّ بين يدي معلمه»^(٢).

ومن المؤكد ان شهرة الامام العلمية على حد وصف ابن عنبه له بقوله: «كان واسع العلم ووافر الحلم» هي اكبر من أن يتحدث عنها احد^(٣).

ولم تكن تلك الشهرة مقتصرة في زمانه على الحجاز كما يعبر عنها ابن أبي الحميد: «كان سيد فقهاء الحجاز»^(٤)، بل انها امتدت وانتشرت على نطاق واسع في العراق وخراسان ايضاً، كما يقول الراوي: «رأيت ابا جعفر^{عليه السلام} وحوله اهل خراسان يسألونه عن مناسك الحج»^(٥).

ويقول الذهبي عن الامام الباقر^{عليه السلام}: «كان أحد من جمع بين العلم والعمل

(١) الشيخ المفید الارشاد ص ٢٨٢، بحار الانوار ج ٤٦، کشف الغمة، ج ٢ ص ١٢٦.

(٢) المفید، الارشاد ص ٢٨٠، حلية الاولیاء ج ٣ ص ١٨٠، کشف الغمة ج ٢ ص ١١٧.

(٣) ابن عنبه عمدة الطالب ص ١٩٥.

(٤) ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج ١٥ ص ٧٧.

(٥) الكليني الكافي، ج ٦ ص ٢٦٦، بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٥٧.

والسؤدد والشرف والثقة والرزانة وكان أهلاً للخلافة»^(١).

وكتب الاستاذ ابو زهرة عن المرجعية العامة للامام ما يلي: «كان محمد الباقر عليهما السلام وريثة الامام السجاد في امامية اهله ونيل الهدایة ولذا كان مقصد العلماء من كل البلاد الاسلامية وما زار احدى المدينتين الا عرج على بيت محمد الباقر يأخذ منه».

وكتب ايضاً: «كان يقصده من ائمة الفقه والحديث كثيرون»^(٢).

وُقل ايضاً عن عيون الاخبار: «قد أخذ عنه اهل الفقه ظاهر الحلال والحرام»^(٣).

كان شأنه ايضاً شأن ابيه السجاد عليهما السلام الذي كان يتمتع بشهرة علمية عظيمة بين الناس ويحظى باحترام الخاص والعام. يقول محمد بن المنكدر وهو من اعلام حديث اهل السنة عن عظمة الامام الباقر عليهما السلام: «ما رأيت احداً يفضل علي بن الحسين حتى رأيت ابنه محمدأ»^(٤).

انفي عليه الكثير من علماء الاسلام الكبار، وامتدحوا مقامه العلمي ومكانته الفقهية بكلمات وعبارات جميلة، وقد جمعها الاستاذ اسد حيدر في كتابه^(٥).

(١) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٤٠٢.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق ص ٢٢ دار الفكر العربي - بيروت.

(٣) حياة الامام الباقر عليهما السلام - ج ١ ص ١٣٩.

(٤) الشبراوي، الاتحاف ص ١٤٥.

(٥) اسد حيدر، الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ٢ ص ٤٣٥.

وقد أدىت كثرة روایاته في الفقه والعقائد والعلوم الإسلامية الأخرى إلى أن يروي عنه عدا رواة الشيعة الكثير من محدثي أهل السنة، من أشهرهم أبو حنيفة الذي لم يكن يقبل أكثر الأحاديث الواردة عن طريق أهل السنة، لذلك فقد روى الكثير من الروايات المنسوبة عن أهل البيت وخاصة عن الإمام الباقر^(١).

وكما ذكر الذهبي فقد نقل عنه الأحاديث سوى أبي حنيفة، عمر بن دينار والاعمش والوزاعي وأبي جرير وقرة بن خالد^(٢).

ولما رأه أبو سحاق ورأى مكانته الرفيعة قال واصفًا إياه: «لم أر مثله قط»^(٣).

وقال عنه أبو زرعة كذلك: «إن أبا جعفر أكابر العلماء»^(٤).

ويكفي القول بكل جرأة أن سند اغلب روایات الشيعة ينتهي بعد أمير المؤمنين عليه السلام بالامامين الباقر والصادق عليهما السلام. وسبب ذلك يعود إلى الظرف السياسي الخاص للمجتمع آنذاك والذي أتاح لهذين الإمامين أكثر من غيرهما فرصة نشر علوم آل محمد عليه السلام.

ولذلك فان محافل احاديث الشيعة تنقل أكثر روایاتها عن هذين الإمامين.

ولذلك قيل: «لم يظهر من ولد الحسن والحسين من العلوم ما ظهر منه

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١٢٧. راجع كتاب جامع مسانيد الإمام الاعظم أبو حنيفة.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٤.

(٣) اسد حيدر الإمام الصادق والمذاهب الاربعة ج ٢ ص ٤٥ اعيان الشيعة ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠.

(٤) ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٧.

في التفسير والكلام والاحكام والحلال والحرام»^(١).

وهذا هو السبب في شهرتهم الواسعة في مجتمع ذلك العصر والعصور اللاحقة بصفتهم علماء فقه ورواة حديث رسول الله ﷺ. وكان ابو زهرة من جملة الشخصيات الكثيرة التي كانت تتردد على مجلسه وتأخذ عنه العلوم والمعارف، وقد ذكر ان سفيان الثوري وسفيان بن عيينة (محدث مكّة) وابا حنيفة كانوا يحضرون مجلسه ايضاً^(٢).

سأل الابرش الكلبي هشام بن عبد الملك: «من هذا الذي احتوشه اهل العراق يسألونه؟ قال: هذا نبي الكوفة وهو يزعم انه ابن رسول الله وباقر العلم ومفسر القرآن»^(٣).

وجاء في موضع آخر ان هشاماً وصفه بـ«المفتون به اهل العراق»^(٤). ومع كل هذا الثناء والتجيد الذي قاله العلماء بحقه كم يكون غير منصف من يقول: «ليس يروي عن الباقي من يُحتاج به»^(٥).

ان الدافع من وراء كل هذه التصريحات الباطلة بشأن الائمة الاطهار، هو انقباض الكثير من المحدثين غير الشيعة اذ يعتبرون كل من يبدي اي اهتمام بأهل البيت وعلومهم قد فقدَ صلاحية العلمية في رأيهم وان لم يكن شيعياً. ولا ندري كيف يعتبر ابن سعد كل اولئك المحدثين من اهل السنة الذين رووا في كتبهم

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٢٧ بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٤.

(٢) ابو زهرة الامام الصادق ص ٢٢.

(٣) الكافي ج ٨ ص ١٢٠، بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٥٥.

(٤) الشيلنجي، نور الابصار ص ١٤٣، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٠٥.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٢٤.

الروايات والاحاديث عن الامام الباير، من الذين لا يُحتاجُ بهم. فكان عليه أن يستثنى منهم على أقل تقدير الاوزاعي^(١) أو الآخرين الذين ذكرهم ابن حجر في كتاب (تهذيب التهذيب).

الامام والاختلافات الفقهية بين الفرق الاسلامية

كانت الفترة الممتدة بين عام (٩٤ - ١١٤) هي الفترة التي بدأت واتسعت فيها المشارب الفقهية، وبلغت فيها رواية الحديث المتعلقة بالتفصير ذروتها. فنشط في هذه الفترة من علماء اهل السنة مثلاً الزهري ومكحول وقتادة وهشام بن عروة في مجال نقل الاحاديث وتقديم الفتاوى. وكان ارتباط بعض العلماء من امثال: الزهري وابراهيم النخعي وابي الزناد ورجاء بن حياة بالسلطات الاموية الحاكمة، يستدعي احياء السنة الحقيقة لرسول الله ﷺ بعيداً عن شوائب التحرير العدي للخلفاء والعلماء المرتبطين بهم. فقد كتب الامام الباير^{عليه السلام} كتاباً الى سعد الخير يشكو له فيه من علماء السوء وجاء فيه: «فاعرف اشباه الاخبار والرهبان الذين ساروا بكتمان الكتاب وتحريفه فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين»^(٢).

ولو امعنا النظر في كثرة الاحاديث المنشورة في هذه الفترة، واشتهر علم الفقه بين المحدثين في ذلك العصر، لأمكننا القول بأن علم الفقه لدى اهل السنة قد دخل اساساً في مرحلة التدوين منذ هذه المرحلة فصاعداً فقد انكشفت التحولات السياسية بعد واقعة كربلاء، وانكسار شوكة ابن الزبير والقضاء عليه، وبعد استباب الامور لحكم بني امية، مما حدا بالكثير من العلماء الى هجر الساحة

(١) راجع كتاب ابن حبان الثقات. نهاية اسم محمد بن علي الباير^{عليه السلام}.

(٢) الكليني، الروضة ص ٧٧ طبعة الاسلامي.

السياسية والانحراف في حلقات الدرس والحديث، واجب حل للاختلاف الموجود بين الروايات وتقديم الفتاوي الفقهية للناس. في عام ١٠٠ للهجرة أصدر عمر بن عبد العزيز لأول مرةً أمرًا إلى أبي بكر بن حزم يوصيه فيه بتدوين الأحاديث^(١).

وهذا خير شاهد على أن الحركة الثقافية عند أهل السنة قد بدأت في القرن الثاني بينما بدأت عند الشيعة على عهد الإمام الباقر عليهما السلام. وذلك ما كان يتطلب اتخاذ المواقف الحازمة لغرض نشر الآراء الفقهية لأهل البيت في مقابل الانحرافات التي انفرست ولأسباب مختلفة في أحاديث أهل السنة. ومع ان ملاعع الفقه الشيعي كانت إلى ذلك العهد قد توضحت في نطاق محدود وضمن إطار الاذان والتقبية وصلة الميت، إلا أنه قد تقدم خطوات مهمة في ظل وجود الإمام الباقر، ونشطت بين الشيعة حركة ثقافية تلفت الانتباه، وفي تلك المرحلة بالذات بدأ الشيعة بتدوين ثقافتهم بما فيها الفقه والتفسير والأخلاق.

لم يكن الفقه والحديث قبل ذلك يلقى اية رعاية او اهتمام في المجتمع الإسلامي. فالصراعات السياسية ونمط التفكير المادي الجامع الذي استحوذ على جهاز الحكم افضى إلى اغفال اساس الدين بين الناس وخاصة الفقه. وقد كان المتع من تدوين الحديث بأمر الخليفتين الأول والثاني من العوامل الأساسية في انزواء الفقه الذي كان يستند ٨٠٪ منه على اقل تقدير على الأحاديث المروية عن النبي ﷺ. ينقل الذهبي عن أبي بكر انه قال:

«فلا تحدّثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً فن سألكم فقولوا: بیننا وبينكم

(١) عبد الرزاق، المصنف ج ٩ ص ٣٣٧، الدارمي، السنن ج ١ ص ١٢٦، البغدادي، تقييد العلم، ص ١٠٥

كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه»^(١).

وقال عمر ايضاً في هذا الصدد: «اقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وانا شريككم»^(٢).

وحكى عن معاوية ايضاً قوله:

«عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر فأنه كان قد اخاف الناس في الحديث عن رسول الله ﷺ»^(٣).

وقد بلغ جهل الناس ذروته عند بدء الفتوحات الاسلامية فانشغل الولاة والناس وانهالاكمهم في قضايا الفتوحات والمسائل العسكرية والشؤون المالية. كان قد منعهم من الاهتمام بالنشاطات العلمية والتربيية الدينية. فعندما قال ابن عباس في اخر شهر رمضان بالبصرة التي كانت احد المراكز الاصلية للفتوحات، وهو يخطب على المنبر: «اخرجوا صدقة صومكم» لم يفهم الناس معنى كلامه. لذا قال ابن عباس: «من كان من اهل المدينة حاضراً فليقم ويوضح لهم معنى صدقة الصوم فاذاً لهم لا يعلمون من زكاة الفطرة الواجبة شيئاً»^(٤).

وفي زمن بني امية ازداد ذلك الجهل شدة، كما ذكر الدكتور علي حسن:

«في اثناء عصر بني امية الذين كانوا لا يهتمون كثيراً بامور الدين كان الشعب في الواقع قليل الفهم والمعرفة للفقه ومسائل الدين ولم يكن يعرف من هذه

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٧.

(٣) الذهبي تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٧.

(٤) ابن حزم، الاحكام في اصول الاحكام، ج ٢ ص ١٣١.

الشؤون الاَّ اهل المدينة وحدهم»^(١).

وورد في مصادر اخرى ايضاً ان الناس لم يكونوا يعرفون كيفية الصلاة والحج طوال فترة النصف الثاني من القرن الهجري الاول^(٢).

وكان انس بن مالك يتأمل في زمانه ويقول: «ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله؟ قيل الصلاة. قال:ليس صنعتم ما صنعتم فيها؟»^(٣).

وكل هذا يدل على نسيان الفقه بين عامة الناس، وهو من اهم الاسباب التي دفعت الإمامين الباقي والصادق عليهما السلام الى الاهتمام بالفقه، بهدف احيائه بين الناس، وصيانته من التحريف الذي كان يحصل بالتأكيد في تدوينه واعادة كتابته.

وكان الامام الباقي عليهما السلام هو الممثل عن مذهب اهل البيت ومن اوائل الواضعين لاسس الفقه والتفسير من وجهة نظر المذهب الشيعي. اذ يعتبر هذا المذهب ان السبيل الوحيد لنيل العلوم الاسلامية الأصيلة يتم فقط عن طريق اهل البيت الذين هم باب علم رسول الله، ولذا قال حضرته لسلامة بن كهيل، والحكم بن عيينة: «شَرَّقاً وَغَربَاً فَلَا تَجِدَانَ عِلْمًا صَحِيحًا إِلَّا شَيْئًا خَرَجَ مِنْ عَنْدِنَا»^(٤).

وكان يقول ايضاً: «فَلِيذَهَبِ الْحَسَنِ - يَعْنِي الْبَصْرِيِّ - يَمِينًا وَشَمَالًا، فَوَاللَّهِ مَا يَوْجِدُ الْعِلْمَ إِلَّا هِيَهُنَا»^(٥).

(١) نظرية عامة في تاريخ الفقه الاسلامي، ص ١١٠.

(٢) كشف النقاع في حجية الاجماع، ص ٥٦.

(٣) ضُحى الاسلام، ج ١ ص ٣٨٦، تقلأً عن البخاري والترمذى.

(٤) الكشي ص ٢١٠ / الكافي، ج ١ ص ٣٩٩ / الصفار، بصائر الدرجات ص ٩.

(٥) الكافي، ج ١ ص ٥١، وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٢.

وكان يقول كذلك: «فليذهب الناس حيث شاؤوا فواشة ليس الامر الا
هيئنا - وأشار الى بيته -^(١).

وبصفته مهلاً عن اهل البيت فأنه كان يسعى خلال مناقشاته الى نشر الآراء الفقهية لأهل البيت وتحديد مواضع الانحراف عند اهل السنّة وكشفها للناس. وكان الامام معروفاً بأنه الميزان لتحديد الصحيح من السقيم حتى بين اكابر علماء عصره، وهذا نجدهم كثيراً ما كانوا يعرضون عليه معتقداتهم ليتأكدوا من صحتها او سقمها. فها هو ابو زهرة ينقل احدى المناقشات بين ابي حنيفة والامام، ويكتب بعدها : «ومن هذا الخبر تتبين امامية الباقي للعلماء يحضرنون اليه ويحاسبهم على ما يبلغه عنهم او يبدر منهم وكأنه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادة وهم يقبلون طائعين تلك الرياسة»^(٢).

وفي احد المرات جاء عبدالله بن عمر (عمير) الليبي الى الامام الباقي طالباً وسأله: «أصحيح ما يقال عنك ائذن تقول بحلية المتعة؟ فقال له الامام: «أحلها الله في كتابه وسنّها رسول الله وعمل بها اصحابه».

فقال له عبد الله: لكن عمر نهى عنها. فأجابه الامام: فأنت على قول صاحبك وانا على قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وكما لاحظنا فالامام يستدل وفقاً لكتاب الله وسنّة نبيه وينبرى لمواجهة من يستدلون بغيرهما. والرواية الآتية تعكس لنا هذا المسار الذي سار عليه

(١) الكافي ج ١ ص ٣٩٩ / الصفار، بصائر الدرجات ص ١٢.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

(٣) كشف الغمة، ج ٢ ص ٣٦٢ / بحار الانوار، ج ٤٦ ص ٣٥٦ / راجع كتاب الميزان ج ٣ ص ٣٨٩.

الامام:

يروي محجول بن ابراهيم عن قيس بن الريبع قال: «سألت ابا اسحاق عن المسح على الخفين قال: كنت ارى الناس يمسحون على الخفين حتى رأيت رجلاً من بني هاشم وكان محمد بن علي بن الحسين وسألته عن المسح على الخفين فقال: «لم يكن امير المؤمنين عليه السلام يمسح عليهما (وكان يقول): سبق الكتاب المسح على الخفين^(١). ثم يواصل ابو اسحاق كلامه: منذ ان نهاني الامام لم امسح بعدها على الخفين».

يقول قيس بن الريبع: «وانا ايضاً منذ سمعت هذه المسألة من ابي اسحاق، لم امسح بعدها على الخفين».

إن قوّة استدلال الامام بالكتاب والسنّة لم تقنع ابا اسحاق وحده بل واقنعت معه ايضاً قيس بن الريبع.

وعندما حرف نافع مولى عمر حدثاً ورواه بشكل خاطئ لغرض الاستدلال على حكم ما، كشف الامام عن ذلك التحرير وروى الحديث بشكله الصحيح^(٢).

كما وقف اصحاب الامام الباقي عليه السلام ايضاً في مقابل الاستدلالات الواهية لأبي حنيفة فيها يختص القضايا الفقهية وأدانوه من الناحية الفقهية^(٣).

(١) اسد حيدر، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ٢ ص ٤٥٢.

(٢) دعائم الاسلام، ج ٢ ص ٢٦٠ / مستدرک الوسائل، ج ١٥ ص ٢٨٦.

(٣) دعائم الاسلام، ج ١ ص ٩٥ / مستدرک الوسائل، ج ١٥ ص ٢٨٧.

وعارض الامام الباهر عليه السلام بشدة استدلال اصحاب القياس^(١)، وتصدى لهم بشدة من بعده ولده الامام الصادق عليه السلام. واتخذ الباهر عليه السلام موقف حازمة ضد سائر الفرق الاسلامية المنحرفة، وكان يسعى خلال هذه المواجهة الى تحديد وعزل المعتقدات الصحيحة لاهل البيت في المجالات المختلفة عن بقية الفرق. وكان موقف الامام ازاء فرقة المرجئة حساساً وحازماً. إذ كانت هذه الفرقة تعتقد ان الایمان اعتقاد باطني ليس الا ولا يؤثر فيه العمل خيراً كان او شرّاً، وكانوا يزيلون بالتدريج قيمة العمل الصالح من اذهان الناس. وقد قال الامام عنهم مرة: «اللهم عن المرجئة فانهم اعداؤنا في الدنيا والآخرة»^(٢).

وكان للامام موقفه من الخوارج الذين كانت لهم تلك الأيام صولات، حيث وصفهم بالمتنسكين الجهمة واصحاب الديانة القشرية والمعصبين في معتقداتهم وقال عنهم: «ان الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم ان الدين اوسع من ذلك»^(٣).

تصديه للافكار اليهودية

ان من جملة الجماعات الخطيرة التي تغلغلت في المجتمع الاسلامي آنذاك، وكانت تخلف آثاراً عميقة في ثقافته هم اليهود. فبعض اخبار اليهود من اعتنقاوا الاسلام ظاهراً وغيرهم من بقوا على دينهم كانوا منتشرين في ارجاء مختلفة من الوطن الاسلامي، وكان ترجع اليهم وتأخذ من علومهم جماعة من السذج

(١) المفید، المجالس، ص ٣٩. طبعة النجف / وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٦.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٨ ص ٢٧٦ / بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩١.

(٣) الطوسي، التهذيب، ج ١ ص ٢٤١ / من لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٨٣.

والمعفّلين. وقد ظهرت تأثيرات هؤلاء على الثقافة الإسلامية بصورة أحاديث موضوعة تسمى بالاسرائيليات ، يختصّ القسم الأعظم منها بالتفسير وسرد تاريخ الانبياء السابقين. وكان من جملة العلماء المسلمين الذين ادخلوا هذه الأحاديث الموضوعة في مؤلفاتهم هو الطبرى المفسر المعروف الذي حصل على أكثر رواياته بشأن تفسير القرآن عن هذا الطريق.

وقد تركت المساعي العلمية اليهودية في داخل المجتمع الإسلامي تأثيرات مقلقة في المسائل الفقهية والكلامية أيضاً ، وهذه القضية على درجة من الوضوح في التاريخ بحيث لا يبق معها ابهام او تردّيد^(١).

وكانت قضية مواجهة اليهود والسموم التي ينفثونها في الثقافة الإسلامية، قضية تستأثر بقسم مهم من برنامج عمل الأئمة الأطهار عليهم السلام. وتفنيد الأحاديث الموقعة والملفقة من قبل اليهود الخونه بشأن الانبياء الرباتيين والمواضيع التي تخدش الصورة الملائكية لانبياء الله، هو من جملة الاهتمامات التي تلاحظ بوضوح في سلوك الأئمة الأطهار، نشير فيما يأتي إلى مثالين منها:

١ - جاء رجلان إلى النبي داود عليه السلام يختصمان في قضية وطلبا منه الفصل فيها اشارت إليه الآياتان ٢٣ و ٢٤ من سورة (ص)، حيث تشير الآياتان المذكورةتان إلى أن أحد الرجلين كانت له ٩٩ نعجة وللآخر نعجة واحدة. فاشتكى ذو النعجة الواحدة من ذي التسعة وتسعين نعجة بأنه كان ينوي غصب نعجه. فحكم بينهما داود عليه السلام بدون الاستئاع إلى أقوال الشخص الآخر اذ قال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه».

(١) السيد الروحاني، بحوث مع أهل السنة والسلفية، ص ٥٠.

وفي هذا الصدد وضع اليهود احاديث ونشروها بين المسلمين تشير الى ان هذه القصة كنایة عن زواج داود بزوجة «اوريا». اذ يستفاد من تلك الاحاديث الموضوعة ان النبي داود كان على سطح الدار يتبع حمامه، فأطل من هناك على دار «اوريا» ورأى زوجته فتعلق بها قلبه. ولكي يتحقق النبي داود غرضه فقد جَعَلَ «اوريا» في خط المواجهة من المعركة قُتُلَ وتزوج داود امرأته، وان الله تعالى قد اشار من خلال هذه الآيات الى تلك القصة بصورة رمزية.

فكم تسيء هذه الروايات الموضوعة الى النبي داود بصفته نبياً من انباء الله. ان هذه الاحاديث التي نشرت في العصر الاسلامي الاول على يد اشخاص امثال: (كعب الاخبار) و (عبد الله بن سلام) قد جوبيت من قبل الامام علي بن ابي طالب عليه السلام اذ قال:

«لا أُوْتَى بِرَجُلٍ يَزْعُمُ أَنَّ دَاؤِدَ تَزَوَّجَ اِمْرَأَةَ أُورِيَا إِلَّا جَلَدَتْهُ حَدِينٌ حَدِينٌ
لِلنَّبُوَةِ وَحْدَةً لِلْإِسْلَامِ»^(١).

واجه الامام الرضا عليه السلام ايضاً الاحاديث المسمة بالاسرائيليات وشكل عليهما^(٢):

٢ - كان اليهود الذين عاشوا في المجتمع الاسلامي - سواء منهم من اسلموا في الظاهر ومن بقوا على دينهم - يسعون الى اقناع المسلمين بأفضلية بيت المقدس - الذي كان قبلة لليهود - على الكعبة. فوضعوا في هذا الصدد احاديث ونشروها بين المسلمين على نطاق واسع. ومن جملة ذلك ما نقله زارة فيا يلي:

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٧٢.

(٢) تفسير الصافي، ج ٤، ص ٢٩٥.

«كنت قاعداً الى جنب ابي جعفر^{عليه السلام} وهو مستقبل الكعبة. فقال: اما ان النظر اليها عبادة. فجاءه رجل من بُجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال له: ان كعب الاخبار يقول ان الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة. فقال له ابو جعفر^{عليه السلام}: فما تقول فيما قال كعب؟ قال الرجل: صدقَ كعب. فقال له الباقر^{عليه السلام}: كذبت وكذبَ كعب الاخبار معك ثم قال وهو غاضب:

«ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض احب اليه منها»^(١).

وسار أئمة الشيعة الآخرون على نفس المنوال ايضاً فيما بعد واطلقوا بعض العبارات مثل: «لا تتشبهوا باليهود»^(٢) من اجل قطع تلك الصلة الثقافية التي ظهرت الى الوجود بين المسلمين واليهود والتي كادت ان تؤدي الى حرف الثقافة الاسلامية الأصيلة والغنية، هذا في الوقت الذي كان فيه رواة الفرق الاسلامية الاخرى يستقبلون تلك الأحاديث بكل سذاجة ويصنفونها في الابواب المختلفة لكتبهم ويلوّثون بها ثقافتهم. لكن التابعين لاهل البيت تسکوا بتوصياتهم، وكانوا على حذر من تلك الأفكار الضالة فابتعدوا عنها وبقاء في مأمنٍ منها.

التراث الثقافي للامام الباقر

ان نظرة عابرة على اسانيد الفقه والتفسير لدى الشيعة تجعلنا ندرك ان جزءاً كبيراً من الروايات في مجال الفقه والاخلاق والتفسير عند الشيعة قد نقلت عن الامام الباقر^{عليه السلام}. فكتاب وسائل الشيعة وكتب التفسير مثل البرهان للعلامة البحرياني، والصافي للمحقق فيض الكاشاني تشتمل على كثير من الروايات المبينة

(١) الكليني، الكافي، ج ٤ ص ٢٣٩ / بحار الانوار، ج ٤٦، ص ٣٥٤.

(٢) وسائل الشيعة - ج ٣ ص ٥٧١.

للمسائل الفقهية والموضحة للآيات القرآنية واسباب نزولها قد نقلت عنه عليه السلام بكثرة.

وبالاضافة الى ما ذكر سابقاً فهناك الكثير من الأخبار التاريخية بشأن امير المؤمنين عليه السلام وحرب صفين نقلت عنه ايضاً^(١) . ورويت عنه كذلك احاديث وحكم باهرة وذات معانٍ عميقة في مجال الاخلاق. وله ايضاً جمل قصار في منتهي الجمال والروعة منبتقة عن روح العصمة والكمال الباطني للامام عليه السلام . وعن هذه الابعاد كتب ابو زهرة ما يلي: «وكان رضي الله عنه مفسراً للقرآن ومفسراً للفقه الاسلامي مدركاً حكمة الأوامر والنواهي فاهماً كل الفهم لمراميها»^(٢) .

وكتب عن الأفكار والجمل الأخلاقية للامام عليه السلام ما يلي: «ولكمال نفسه ونور قلبه وقوه مداركه انطقه الله تعالى بالحكم الرائعة ورويت عنه عبارات في الاخلاق الشخصية والاجتماعية ما لو نظم في سلوك لتكون منه مذهب خلق سام»^(٣) .

ومن الامثلة على الدروس الاخلاقية العملية للامام هي معارضته للتنسك والتحجر، فهو كان يعارض بالمارسة العملية رأي تلك الفتاة التي تتصور ان الورع في الاسلام يتمثل بترك جميع النعم الدنيوية. يقول الحكم بن عيئنة:

«دخلت على ابي جعفر وهو في بيت منجد وعليه قيس رطب وملحفة مصبوغة قد أثر الصبغ على عاتقه فجعلت انظر الى البيت وأنظر في هيئته. فقال

(١) راجع كتاب ابن ابي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج ٢ ص ٢١٢-٢٢٩-٢٣٤-٢٨٦ وج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

(٣) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

لي : يا حكم ما تقول في هذا؟ فقلت : ما عسيت ان اقول وانا أراه عليك فأمّا عندنا فأنّا يفعله الشباب المراهق». .

فقال لي : «يا حكم **«من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطبيبات من الرزق»** وهذا مما اخرج الله لعباده. فأمّا هذا البيت الذي ترى فهو بيت المرأة وانا قريب العهد بالعرس وبيتي البيت الذي تعرف»^(١) .

وكان البعض يتصور ان السعي من اجل المعيشة والذى يتجسد في النشاط من اجل حياة افضل امر غير صحيح . فان محمد بن المنكدر وهو احد حفاظ القرآن الكريم في عصر الإمام الباهر عليه السلام كان يُثني على الامام فيقول :

«اردت ان اعظه فوعظني . سأله : وكيف؟ قال : خرجت يوماً من المدينة الى الصحراء في ساعة حارة فلقيني ابو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكمي على غلامين اسودين او موليين فقلت في نفسي : سبحان الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا أما لاعظته فدنوت منه فسلمت عليه فرداً على السلام بنهر وهو يتسبّب عرقاً . فقلت له : اصلاحك الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أرأيت لو جاء اجلك وأنت على هذه الحالة ما كنت تصنع؟ فقال : لو جاءني الموت وانا على هذه الحالة جاءني وانا في طاعة الله عزوجل اكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وانما كنت اخاف لو جاءني الموت وانا على معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت يرحمك الله اردت أن اعظك فوعظتني».

(١) الكافي، ج ٦ ص ٤٤٦ / بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٢ .

واما في مجال التفسير خاصة فلامام الباقر عليهما السلام شهرة واسعة بين اهل السنة ايضاً لما نقلوه عنه من روایات كثيرة في هذا الشأن، ولهذا السبب قالوا عن شخصيته العلمية :

«لم يظهر على احدٍ من ولد الحسن والحسين من العلوم ما ظهر منه في التفسير والكلام والفتيا والاحكام والحلال والحرام»^(١).

ومدح مالك بن أعين الجعفري الامام الباقر عليهما السلام بالآيات الشعرية الآتية :

اذا طلب الناس علم القرآن كانت قريش عليه عيالا
وان فاه فيه ابن بنت النبي تلقت يداه فروعاً طوالا^(٢)

اما فيما يخص المسائل الكلامية فقد نقل الامام الباقر عليهما السلام ايضاً الكثير من خطب امير المؤمنين عليهما السلام في توحيد الله وصفاته^(٣). وكان له دور كذلك في تبيان الكثير من المسائل الكلامية الدقيقة التي يختلف بشأنها الشيعة واهل السنة وتلاحظ مثل هذه الروایات في كتاب اصول الكافي بكثرة.

ونسب ابن النديم في (الفهرست) الى الامام الباقر عليهما السلام كتاباً في التفسير وقال هذا الكتاب نقله ابو الجارود زياد بن منذر عن الامام^(٤).

(١) ابن شهرآشوب ج ٣٢٧ ص ٣٢٧ / بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٤ .

(٢) الاتحاف بحب الاشراف، ص ١٤٤ / كشف الغمة، ج ٢ ص ١٢٣ / ابن عبة عمدة الطالب، ص ١٩٥ الفصول المهمة ص ٢١ / سير اعلام النبلاء، ج ٤٠ / الشبلنجي، نور الابصار ص ١٤٣ .

(٣) راجع كتاب : القرشي، الامام الباقر ج ١ ص ١٩٠ .

(٤) راجع كتاب : تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ص ٣٢٧ / ورد تفسير ابي الجارود في تفسير القمي، وطبعاً كانت طرق تفسير ابي الجارود موضع اشكال بالنسبة للمحققين / راجع كتاب الذريعة في آخر اسم تفسير ابي الجارود .

وقد ادت الجهود الحثيثة التي بذلها الامام الباقر عليه السلام ومن بعده الامام الصادق عليه السلام الى ان يدخل الفقه الشيعي القائم على احاديث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه والاهام الغيبي الملقي على قلوب الائمة الاطهار عليهم السلام الى مرحلة التدوين قبل اهل السنة، وهذا ما حدا بمصطفى عبدالرازق الى القول:

«ومن المعقول ان يكون الشروع الى تدوين الفقه كان اسرع الى الشيعة لأن اعتقادهم العصمة في ائتهم او ما يشبه العصمة كان حریاً الى تدوين اقضیتهم وفتاویهم»^(١).

فهذا هو التراث الفقهي للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قد وصلنا عن طريق اهل بيت العصمة بشكل مستقل. واهل السنة عندما ينقلون الاحاديث عن الامام الباقر عليه السلام يوصلون سندها عادة الى أبيه الى آبائه الى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه. لكن الشيعة وبسبب اعتقادهم بعصمة هذا الامام والائمة الآخرين فهم لا يحتاجون في مثل هذه الحالة الى ذكر سند الحديث. سئل الامام الباقر عليه السلام عن الاحاديث التي ينقلها عن النبي بلا سند قال:

«اذا حدثت بالحديث ولم أسنده فسندي فيه الى زين العابدين عن ابيه الحسين الشهيد عن ابيه علي بن ابي طالب عن رسول الله عن جبرائيل عن الله تعالى»^(٢).

وقد بذل الامام الباقر عليه السلام ايضاً - شأنه في ذلك شأن بقية ائمة الشيعة - جهوداً كبيرة لبيان اهمية ومكانة اهل البيت من الوجهة الدينية، وقد ورد في

(١) تمهيد تاريخ الفقه الاسلامي ص ٢٠٣.

(٢) الشیخ المفید، الامالی، ص ٤٢ / الطبرسی اعلام الوری ص ٢٦٤.

رواية نقلت عنه في هذا الجانب انه قال: «آل محمد أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنة والقادة إليها»^(١).

وروي عنه ايضاً انه قال: «كل شيء لم يخرج من هذا البيت فهو وبال»^(٢).

وفي الحقيقة انه كان يروي علوم النبي ﷺ التي وردت عن طريق علي عليهما السلام الى الناس وذلك في زمن كان فيه اشخاص مثل مكحول^(٣) يعتل رعباً عندما يروي حديثاً عن امير المؤمنين عليهما السلام ولا يتجرأ على ذكر اسمه بل يكنيه بأبي زينب. وهذا فالشيعة هم الوارث الوحيد لاحاديث رسول الله ﷺ والدليل على ذلك هو ان هذا الارث يستند باجمعه الى القرآن وهذا هو ما اشار اليه الامام الباقر عليهما السلام بقوله: «اذا حذثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله»^(٤).

فتراث الامام الباقر عليهما السلام هو الذي ادى الى حفظ وصيانة الشيعة من التحريفات التي استهدف منها حرف الدين والقضاء عليه بسبب عدم تدوين الحديث وغيره من الدوافع الاخرى، فالامام الباقر هو الذي استدل بحديث «علي اقضاكم» والذي نُقل عن النبي بطرق متعددة لاقناع احد علماء اهل السنة بقبول احكام قضاء الامام علي عليهما السلام وابطال عقيدة ذلك العالم القائمة على جواز العمل بالاحكام القضائية للآخرين^(٥). وكذلك اعلن حضرته في بعض المواقف عن بطلان

(١) تفسير العياشي ج ١ ص ٨٦ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٩.

(٢) الاختصاص ص ٣١.

(٣) عده ابن ابي الحميد من مبغضي امير المؤمنين عليهما السلام في حاشية ص ١٢٨ من الاختصاص.

(٤) الميزان، ج ٣ ص ١٧٦ ، تقلأ عن الكافي.

(٥) الطوسي، التهذيب، ج ٦ ص ٢٢٠ / الكليني، فروع الكافي ج ٧ ص ٤٠٨ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٩-٨.

العلوم التي نقلت عن طريق بعض الصحابة، بحيث قال في أحدى المرات بعد تقسيمه الأحكام إلى أحكام إسلامية وأخرى جاهلية:

«أشهدكم على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بـأحكام الجاهلية»^(١).

أوضاع ومكانة الشيعة وفقاً لرأي الإمام

تزامن عهد الإمام الباقر عليه السلام مع الضغوط المتواصلة لخلفاء بني أمية وولاتهم على الشيعة في العراق حيث كان المركز الأصلي للشيعة ولذلك قيل عن الإمام الباقر عليه السلام: المفتون به أهل العراق^(٢) وأمام أهل العراق^(٣) أو من هذا الذي احتوشه أهل العراق يسألونه^(٤).

وكان الشيعة يتصلون بالامام في كلّ عام اثناء موسم الحج. وكانت تلك الاتصالات تتم عادة في مكة او عند عودة الحجاج من بيت الله الحرام ومرورهم بالمدينة. وعن هذا يقول الإمام الرضا عليه السلام^(٥):

«مع ما فيه (الحج) من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام»^(٥).

وهناك مسألة واجهت الإمام وشيعته في تلك الأيام هي مشكلة الغلة الذين كان عددهم يتزايد يوماً بعد يوم. فقد كان هؤلاء يستغلون روایات الإمام وينسبون إليه أحاديث أخرى موضوعة وغرضهم من ذلك هو اكتساب الصبغة

(١) الكليني، ج ٧ ص ٤٠٧ / التهذيب ج ٦ ص ٢١٧.

(٢) الارشاد، ص ٢٨٢.

(٣) اعيان الشيعة ج ٤ قسم ٢ ص ٤٣.

(٤) الكافي ج ٨ ص ١٢٠.

(٥) وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٨.

والهوية الشيعية وجر الشيعة وراءهم بهدف تحقيق غايياتهم. وقد ازداد نشاط هؤلاء الانتهازيين عندما كان الامام في المدينة على وجه المخصوص، ولما طردهم الامام وابعدهم عن محبيه بادر اصحاب الامام الى طردهم ايضاً. وكفروا كلا من المغيرة بن سعيد وبيان بن سمعان اللذين كانوا من مشاهير الغلاة وقادتهم. وقد نظم ابو هريرة العجلي شعراً بهذا الصدد يقول فيه:

أبا جعفر انت الامام **تُحبه** ونرضي الذي ترضى به ونتابع
 أتنا رجال يحملون عليكم **أحاديث قد ضاقت بهن الاضالع**
أحاديث أفشها المغيرة عنكم وشر الامور المحدثات البدائع^(١)

هذه الاشعار تعكس جهود الغلاة في نشر الاحاديث الملقة باسم الائمة لغرض استقطاب شيعة العراق. فهؤلاء كانوا يعتقدون ان التسك بطاعة الامام يغفهم من اداء واجباتهم الاسلامية، وان معرفة الامام تكفي وحدها لبلوغ الفلاح وتحقيق المقاصد الاسلامية المقدسة وفي المقابل كان الامام الباقي عليهما يؤكّد مراراً وتكراراً على وجوب الاتكاء على العمل الصالح.

وكانت احاديث الامام التي سنوردها فيما يلي بثبات الاجراء المضاد لموافق الغلاة ومعتقداتهم التافهة، وربما يكون الدافع وراء طرح مثل هذه الاحاديث هو ابطال مفعول افكار الغلاة بين الشيعة: «ان شيعتنا من اطاع الله»^(٢).

«شيعتنا اهل الورع والاجتهاد واهل الوفاء والامانة واهل الزهد والعبادة واصحاب الاحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة القائمون بالليل

(١) وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٨.

(٢) الفصول المهمة ص ٢١٣.

والصائمون بالنهار يزكّون اموالهم ويحجّون البيت ويجتنبون كل محرّم»^(١).

وتشير الروايات الاخرى الواردة في هذا الصدد الى تامر بعض الغلاة بما اخطر الامام الباقر هنا الى التصدى لهم بشدة. يقول علي بن محمد التوفى :

« جاء المغيرة بن سعد الى الامام الباقر عليه السلام وقال له: اخبر الناس اني اعلم الغيب وانا اطعنك العراق. فزجره ابو جعفر زجراً شديداً واسمعه ما كره فانصرف عنه. فاتى ابا هاشم بن محمد بن الحنفية رحمة الله فقال له مثل ذلك: فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً اشرف به على الموت»^(٢).

المشكلة الاخرى التي بقىت ملازمة لاهل العراق هي عدم امكانية ونونق الامام بعتقدهم ومدى اخلاصهم. فرغم جميع ما كانوا يُيدونه من حبّ وموالاة وما كان يبدو عليهم من رغبة عميقه في استقبال احاديث اهل البيت ونشرها، الا ان اعلان الوفاء بذلك لم يكن من اليسير الاطمئنان اليه لأسباب متعددة يتعلق بعضها بالسوابق التاريخية لاهل الكوفة وال العراق. فقد قُتل عن بريء العجي انه قال للامام: «يُقال إن لاصحابنا بالكوفة جماعة كثيرة فلو امرتهم لاطاعوك واتّبعوك.

فقال له الامام: يجيء احدكم إلى كيس أخيه فيأخذ منه حاجته؟

قلت. لا.

قال الامام: بدمائهم ابخل»^(٣).

(١) صفات الشيعة ص ١٦٣.

(٢) ابن ابي الحديد، ج ٨ ص ١٢١.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢ ص ٤٢٥.

ومن جهة أخرى كانت المصلحة تفرض على الامام التزام التقية رغم الضغط الشديد والكبت القاتل الذي كان يفرض على الشيعة في العراق وما كانوا يتظارونه من قدوم الامام الى العراق واعلان الثورة وهذا السبب اعتبرهم بعض الشك في امامته، كما ان عدم حصولهم على المعلومات الكافية عن امامته، جعلهم في حالة شك بينه وبين اخيه زيد، وهذا ما افضى الى حصول انشقاقات بين الشيعة. ومع ان الامام توفي قبل سبع سنوات من ثورة اخيه زيد في الكوفة الا أن جذور الميل الى زيد كانت قد نمت في ذلك العهد بين عدد من الشيعة. وعلى الرغم من جميع هذه المصاعب، الا أن الاختلافات الداخلية نادراً ما كانت تهددهم وكان السر في ذلك هو توجهاتهم ومسارهم المعاكس لصالح بني امية.

وقد كان تخفيف الضغط السياسي الموجه ضدهم يتناسب طردياً مع اتساع نشاط الغلاة بحيث تجذرت في زمن الامام الصادق ع تجذرت حتى عادت هي القضية الرئيسة لدى الشيعة، ولم تخفّ وطأة الضغوط التي كانت تمارس ضد الشيعة طوال فترة الخلافة الاموية الا في عهد حكومة عمر بن عبدالعزيز التي استمرت لمدة عامين .

والحديث التالي: «من بلي من شيعتنا ببلاء فصبر كتب الله له اجر الف شهيد». يعكس مدى الضغوط التي كانت تمارس ضد الشيعة، ومدى الجهود التي كان الامام يبذلها لاقناعهم بالتحمل والتزام الصبر. وقد نقلت عن الامام الباقر ع رواية يحلل فيها الاوضاع السياسية للشيعة وانواع الضغوط التي كان الخلفاء يمارسونها ضدهم من بداية الخلافة الى عهده. نورد فيما يلي نص تلك الرواية على امل ان تكون لدينا فكرة عن رأي الامام بهذا الصدد:

«ما لقينا من ظلم قريش ايانا وتظاهرهم علينا وما لقي شيعتنا

ومحبونا من الناس، ان رسول الله ﷺ قُبض وقد اخبر أبا اولى الناس بالناس فتمالأت قريش حتى اخرجت الامر عن معده واحتاجت على الانصار بحقنا وحاجتنا ثم تداولتها قريش واحداً بعد واحداً حتى رجعت اليها فنكت بيعتنا ونصبت الحرب لنا ولم يزل صاحب الامر في صعود وكثود حتى قُتل فبويع الحسن عليه السلام ابناه وعوهده ثم غُدر به.. ثم بايع الحسين من اهل العراق عشرون الفاً ثم غدروا به، ثم لم نزل اهل البيت نستذل ونستضام ونقصى ونُمتهن ونُحرم ونُقتل ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء اوليائنا ووجد الكاذبون الجاحدون لکذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به الى اوليائهم وقضاء السوء وعمال السوء في كل بلدة فحدثوهم بالاحاديث الم موضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله ولم نفعله ليبغضونا الى الناس وكان عظم ذلك وكبر في زمن معاوية بعد موت الحسن فقتلت شيعتنا في كل بلدة وقطعت الايدي والارجل على الظلة وكان من يذكر بحبنا والانقطاع اليها سجن ونهر ما له او هدمت داره ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد الى زمان عبيدة الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة واخذهم بكل ظلة وتهمة حتى ان الرجل ليقال له زنديق او كافر احب اليه ان يقال له شيعة علي حتى صار الرجل يذكر بالخير ولعله يكون ورعاً صدوقاً يُحدث باحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب انها حق لكثره من رواها من لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع»^(١).

تظهر الرواية السالفة اسلوب تحليل ائمه الشيعة للاوضاع السياسية في تلك

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١ ص ٤٤ / ابو زهرة الامام الصادق، ص ١١١.

الحقبة الزمنية وتتضمن ايضاً اشارة الى تشدد الخلفاء الامويين ضد الشيعة الذين كانوا يكثرون في العراق بالخصوص. بديهي أن الشيعة كان لهم وجود في مكة والمدينة أيضاً الا انهم كانوا اقل بكثير من شيعة العراق. وكان من جملتهم ابن ميمون الذي سأله الامام يوماً: كم انت بعكة؟

قال: نحن اربعة. فقال له: انكم نور في ظلمات الارض^(١). (يحتمل ان هذا العدد كان يمثل الشيعة المخلصين).

ولم يكن الكثير من الشيعة قد بلغ درجات عالية في التشيع بل كان عدد منهم يرغب في الاستفادة من علوم اهل البيت الى جانب احاديث اهل السنة. ولذا اعتبروا في كتب الرجال جزءاً من اصحاب الامام الباقي عليهما السلام. وأماماً ما ورد في رجال الطوسي بشأن اصحاب الامام وان عددهم كان ٤٦٧ رجلاً، فلم يكن ذلك يمثل الا الاشخاص الذين كانت علاقتهم به اقوى، والا فقد ورد في كتب السنة اشخاص كثيرون جداً نقلوا الاحاديث عن الامام الباقي عليهما السلام لكنهم لا يُعدون من اصحابه. وكان عدد الشيعة السياسيين -وهم الذين كانوا يوالون ويناصرن اهل البيت لا بسبب ايمانهم بامامة ائمة الشيعة، بل بسبب افضلية الشخصية الانسانية والسياسية لاهل البيت- كثيراً جداً في العراق، الا ان احداً لم يكن يعتمد عليهم او يثق بهم في مجال تفجير حركة سياسية او ثورة مع ادفن احتفال في النصر. وما كلام بُريد العجي مع الامام، والذي مر ذكره في الصفحات السابقة الا تعبيراً عن هذه الحقيقة.

وقد اشتهر من بين اصحاب الامام عدد يسير منهم ونقلت عن طريقهم اكثر

(١) رجال الكشي، ص ٣٤٦.

من نصف احاديثه الموجودة حالياً في جوامع احاديث الشيعة.

فرارة بن اعين، ومحرر بن خربوذ، وبريد بن معاوية العجلي وابي بصير الاسدي وفضيل بن يسار و محمد بن مسلم، كانوا من جملة من حظي بصحبة الامام الصادق عليه السلام وهم موثوقون من قبل علماء الشيعة^(١).

اما زراره، فقد قال بحثه الامام الصادق عليه السلام: «رحم الله زراره بن اعين، ولو لا زراره لاندرست اثار النبوة واحاديث ابي»^(٢).

وحصل اشخاص مثل محمد بن مسلم على معرفة عميقة بالامام، فلم يأخذ علمه الا عن الامام الバاقر عليه السلام ثم عن الامام الصادق عليه السلام، فكان يقول عن نفسه: «ما شجر في قلبي شيء قط الا سألت عنه ابا جعفر عليه السلام حتى سألته عن ثلاثة الف حديث، وسألت ابا عبدالله عليه السلام ستة عشر الف حديث»^(٣).

حتى ان بعض الشيعة اعتبره (اي محمد بن مسلم) افه الشيعة^(٤).

وكان جابر بن يزيد الجعفي احد الشيعة المعروفين ايضاً، وكان عندما يروي حديثاً عن الامام الباير عليه السلام يقول:

«حدثني وصي الاوصياء ووارث علم الانبياء محمد بن علي بن الحسين»^(٥).

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٣٨ رجال الكشي.

(٢) رجال الكشي ص ٩٠ / المفيد، الاختصاص ص ٦٦.

(٣) الاختصاص ص ٢٠١ / رجال الكشي ص ١٠٩.

(٤) الاختصاص ص ٢٠٣.

(٥) الارشاد ص ٢٨ / حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٣.

وهذه الكلمات نفسها كان يرددتها مالك الاشر التخعي على مسامع الناس حينما كان يتحدث عن امير المؤمنين عليه السلام ، فكان يقول : «ايها الناس هذا وصيّ الاوصياء ووراث علم الانبياء»^(١).

وقد اعتبره ابو حنيفة شخصية فريدة فقال عنه : «ليس عندي في الكوفة في بابه اكبر منه»^(٢).

وكان حمران بن اعين وعبدالله بن شريك من اصحاب الامام الذين يقل نظيرهم^(٣).

وقال الصادق عليه السلام بشأن اصحاب ابيه من جملة حديثه : «ما اجد احداً احيا ذكرنا واحاديث ابي عليه السلام الا زارة وابو بصير المرادي ومحمد بن مسلم وبيريد ابن معایة ولو لا هؤلاء ما كان احد يستنبط هدئ، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء ابي عليه السلام على حاله وحرامه وهم السابقون علينا في الدنيا والآخرة»^(٤).

الامام والقضايا السياسية

اعتبر الشيعة الزيدية قيام الامام بالسيف احد اصول مذهبهم في الامامة ، فالشخص العلوي في نظر الزيدية اما يُعتبر اماماً اذا قام بالسيف والا لم يكن كذلك . ولو التفتنا الى نتيجة هذه العقيدة لدى الزيدية لم نجد سوى عدد محدود من الثورات المسلحة التي باءت بالفشل وقام بها كل من محمد ذو النفس الزكية

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٩. طبعة دار صادر.

(٢) المناقب للمسكري ، ج ٢ ص ١٨ نقلأً عن ابي زهرة ، الامام ابو حنيفة ص ٧٢.

(٣) بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٤٣.

(٤) المفيد ، الاختصاص ص ٦٦.

واخوه ابراهيم والحسين بن علي المعروف بشهيد فتح وغيرها من الثورات التي قامت في احياء مختلفة من العالم الاسلامي. ولم تحرز اي من هذه الثورات نجاحاً ملحوظاً سوى ثورة طبرستان التي يُشكّ في انتهاء قادتها الى الزيدية او الى الامامية (والاحتلال الاقوى انهم كانوا زيدية) فكانت نتيجة ذلك هي:

اولاً: انهم لم يتبعوا الاوصياء الذين اصطفاهم الله اي الائمة الاطهار عليهم السلام بل اتبعوا كل علوي حمل السيف.

ثانياً: انهم من الناحية الثقافية في الفقه والتفسير والكلام لم يكن لهم ما للشيعة من ثقافة متسعة ومتراقبة ومنظمة. في باي التفسير والفقه كانوا يأخذون برأي ابي حنيفة غالباً وقلدوا في علم الكلام المعتزلة. وقد اعتبروا بنحو عام من فرق وشعب اهل السنة.

وقد ادت الاعمال والنشاطات التي قام بها ائمة الشيعة وخاصة الامامين الباقي والصادق عليهم السلام الى ايجاد ثقافة خاصة وغنية للمذهب الشيعي الذي عرف فيما بعد بالمذهب الجعفري وان كانت شهرته بالمذهب الباقي لم تكن بعيدة عن الصواب ايضاً.

هذا المذهب الفكري الذي يعرض علوم اهل البيت بشكل منظم وفي جميع المجالات كان ثمرة الجهود المتواصلة التي استمرت ٥٥ عاماً (من عام ٤٨-٩٤) لهذين الامامين.

ان اختيار مثل هذا الموقف في ظل الوضاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك والتي تميزت بشدة القمع التي كانت تمارسها السلطة الاموية ومن بعدها السلطة العباسية من اجل بقاء حكومتها ضد كل معارضة لم يكن من الممكن أن

يقترن بمشاركة في الخطوات السياسية المهمة، اذ ليس من الصحيح المشاركة دوماً وفي كل الاحوال والظروف في التحركات السياسية بالغاً ما بلغ الثن، حتى ان كان ثمن ذلك هو الاغضاء عن تبيان المعرف الحقة واغلاق الطريق أمام الامة الى الابد. ولذا اخذ ائمة الشيعة في هذه البرهة موقفاً يقوم على بيان المعرف الدينية الحقيقة وكان نشاطهم الاساس يتمثل في تدوين الثقافة الدينية وهذا ما نشاهد ونلمس نتائجه اليوم بشكل واضح.

ولا يعني هذا ان ائمة الشيعة لم يتخذوا ايًّا موقف ازاء غطرسة الحكام المسلمين. فجميع الشيعة وحتى الامويين كانوا يدركون جيداً ان قادة الشيعة يطالبون بالخلافة، وانهم كانوا -كما تشير الروايات التي نقلناها عن الامام الباقر- يرون الخلافة حقاً لهم ولآبائهم وأن قريشاً اخذتها منهم عنوة. ولهذا كان الشيعة يمتنعون من التعاون مع الحكام الا في بعض الحالات الاستثنائية التي يسمح فيها بذلك لأسباب خاصة لكن هذه المسألة لم تتخذ دوماً طابع المواجهة العلنية المسلحة او المشاركة المستمرة في التورات. وبناء على هذا فان المعارضة والدعوة الى عدم التعاون والمواجهة السلبية كانت من المواقف الواضحة والبارزة للامام.

جاء عقبة بن بشير الاسدي وكان من الشيعة الى الامام الباقر عليه السلام، وشار الى مكانته وعلو منزلته في قبيلته قائلاً: «كان لقبيلتنا عريف^(١) مات ويريدون تعريفني عليهم، فما ترى في ذلك؟ فقال له الامام:

تمنٌ علينا بحسبك ان الله تعالى رفع بالإيمان من كان الناس سموه وضيقاً اذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان يسمونه شريفاً اذا كان كافراً.

(١) رجال الكشي ص ٢٠٤.

فليس لاحِدٍ فضلُ الْأَبْتَقُوْيِ اللَّهُ. اما قولك ان قومي كان لهم عريف فهلك فأرادوا أن يعرّفوني عليهم. فان كنت تكره الجنّة وتبغضها فتعزّف على قومك يأخذ السلطان بأمرِ مسلم يسفك دمه فتشركهم في دمه عسى ان لا تزال من دنياهم شيء»^(١).

تبين لنا هذه الرواية كيف ان الامام كان يمنع شيعته من تسلّم اي عمل او منصب لدى الحكومة ولو كان بدرجة عريف وهي درجة تافهة لا اهمية لها ويعلل ذلك بجور الحكام على الرعية، ويعتبر مثل ذلك العمل مشاركة لهم في ارتكاب ذلك الذنب.

وكان الامام الباقر عليه السلام يحث الناس بصورة مختلفة على الاعتراض على تصرفات الحكام ونصيحتهم، وقد وردت عنه عليه السلام رواية جاء فيها: «من مشى الى سلطانٍ جائز فأمره بتقوى الله ووعظه وخوّفه كان له مثل اجر الثقلين من الجن والانس ومثل اجرورهم»^(٢).

وكانت التقية درعاً هاماً وواقياً بيد الشيعة يصونون به انفسهم في الفترات المظلمة للحكم الاموي والعباسي وقد روى الباقر عليه السلام عن ابيه انه قال: «ان التقية ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له»^(٣).

اما بشأن ادعاء الامامة من قبل اهل البيت، فهناك ادلة وشواهد تاريخية كثيرة تؤكدها بجلاء ووضوح، وهي قضية واضحة للناس، والجميع يعلم أن ائمة

(١) قال ابن الاثير: العرفاء جمع عريف وهو القيم بأمور القبيلة او الجماعة من الناس يلي امورهم ويتعزّف الامير منه احوالهم لسان العرب.

(٢) المفيد، الاختصاص، ص ٢٦١.

(٣) دعائم الاسلام، ج ١ ص ٩٥.

الشيعة يعتبرون الامامة حقاً لهم لا ينافسهم فيها غيرهم. واما من الناحية النظرية فقد اكد الامام الباقر وبقية الائمة على عدم مشروعية عمل السلطات الحاكمة آنذاك، وانهم يطرحون امام الناس وجوب اقامة الحكومة الحقة في المجتمع الاسلامي:

«وكذلك يا محمد (بن مسلم) من اصبح من هذه الامة لا إمام له من الله عزوجل ظاهر عادل اصبح ضالاً تائهاً وان مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد ان ائمة الجور واتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا واضلوا فاعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد»^(١).

والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الكلمات هي سوق الناس نحو اهل البيت وتنبيهم الى الجور الذي يمارسه الولاة بحق ابناء الامة. كما أن تأكيدات الامام المتكررة على كون الامامة مع الصوم والصلوة والحج والزكاة تشكل الاحكام الاساسية الخمسة في الاسلام، ترجع في الحقيقة الى هذا الامر. ثم يقول في نهاية الحديث مؤكداً على امر الولاية: «ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية فأخذ الناس بأربع وتركوا الولاية»^(٢).

وقد روي ان الامام الباقر دخل يوماً على هشام بن عبد الملك ولم يسلم عليه بالخلافة وامرة المؤمنين، فغضب هشام وشار الى من حوله ليعنّفوا الامام، ثم قال: «لا يزال الرجل منكم شق عصا المسلمين ودعا الى نفسه».

وبعد ان فرغ هشام من توبیخ الامام وأمر الناس بلومه التفت الامام نحو

(١) الكافي، ج ١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) الكافي، ج ١، ص ١٨٣.

الناس وقال:

«اَيُّهَا النَّاسُ اِنَّ تَذَهَّبُونَ وَإِنْ يَرَوْهُمْ بَعْدَمَا حَتَّمْ أَخْرَكُمْ
فَإِنْ يَكُنْ لَّكُمْ مَلْكٌ مَعْجَلٌ فَإِنْ لَنَا مُلْكًا مُؤْجَلًا وَلَيْسَ بَعْدَ مَلْكَنَا مَلْكٌ، لَأَنَا اَهْلُ بَيْتِ
الْعَاقِبَةِ، يَقُولُ اللَّهُ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

فاصدر هشام امراً بحبس الامام، وتأثر من كان في السجن بشخصية الامام فعلم هشام بذلك فأمر بارجاعه الى المدينة^(١).

وفي عهد الامام الباقر عليه السلام كان بنو امية عامّة يضيقون الخناق على اهل البيت ولم يكن ذلك التضييق الا بسبب ادعائهم الامامة والزعامة الدينية السياسية واعتبارهم بني امية غاصبين لها. وقد ذكرت المصادر التاريخية -التي لا نعلم مدى صحتها ودقتها- ان عمر بن عبدالعزيز هو الخليفة الوحيد من بين آل امية الذي كان تعامله مع اهل البيت جيداً نسبياً.

وانطلاقاً من هذا يروي اهل السنة عن الامام الباقي عليه السلام انه قال: «عمر بن عبد العزيز نجيب بنى امية» ^(٢).

ورد كذلك في مصادر الشيعة أن عمر بن عبد العزيز كان يدفع عطاء أهل البيت من بيت المال^(٣)، كما أرجع فدك لبني هاشم^(٤).

وفي العهد الاموي كانت اشد الضغوط وطأة على اهل البيت هي تلك التي

(١) أئمتنا، ج ٢ ص ٣٥٨ نقلًا عن الكافي ج ١ ص ٤٧٨ / المناقب، ج ٢ ص ٢٨٠.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١١٩.

(٣) الحميري، قرب الاسناد، ص ١٧٢.

(٤) الخصال، ج ١ ص ٥١ / ر.ك. امالي الطوسي ص ٨٠ / السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٢٣٢ .

مارسها ضدهم هشام بن عبد الملك، وكانت اهانته وكلماته النابية هي التي دفعت زيد بن علي الى الثورة عليه في الكوفة (عام ١٣١). في لقاء حصل بين هشام وزيد تطاول هشام بالاهانة على الامام الباهر عليه السلام، وقال عنه باستهزاء «البقرة»، فغضب زيد من هذا السلوك الوجه وقال له: «سقاوه رسول الله عليه السلام الباهر وانت تسمية البقرة لشد ما اختلفتما ولتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار»^(١).

وقد سبّ شخص مسيحي النبي الراكم عليه السلام بحضور هشام، فلم يبرز منه ايّ رد فعل، وهذا ما خلق لدى زيد ردة فعل عنيفة فيما بعد، وقد قيل ان هذه التصرفات كانت هي الدوافع الاصلية والمهمة في ثورة زيد ضد الحكومة الاموية، فكانت بذلك بداية لسلسلة من الثورات المتواصلة على امتداد الوطن الاسلامي الكبير وفي الشرق وايران بالخصوص ضد السلطة الاموية.

وجاء كذلك في مصادر الشيعة ان الامام الباهر عليه السلام استدعي الى الشام برفقة ابنه الصادق عليه السلام ليواجهها هناك الاهانة والاستخفاف ويتخليا عن فكرة الحكومة ومعارضة السلطة الاموية.

وقد روى الامام الصادق عليه السلام بدوره هذه الحادثة في رواية مطولة، تنقل فيما يلي مقاطع منها عن لسان الراوي قال:

«حج هشام بن عبد الملك بن مروان سنة من السنين وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي الباهر عليه السلام وابنه جعفر بن محمد عليه السلام فقال جعفر عليه السلام:

«الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبينا واكرمنا به فنحن صفوة الله على

(١) ابن ابي الحديد ج ٧، ص ١٣٢ / ابن عنبة، عمدة الطالب ص ١٩٤.

خلقه وخيرته من عباده وخلفائه فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا
وخلالنا».«

ثم قال عليه السلام: فاخبر مسلمة اخاه بما سمع فلم يعرض لنا حتى انصرف
إلى دمشق وانصرفنا إلى المدينة. فانفذ بريداً إلى عامل المدينة باشخاص ابى
واشخاصى معه، فاشخصنا فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثة، ثم اذن لنا
في اليوم الرابع فدخلنا وإذا قد قعد على سرير الملك، وجنده وخاصته وقوف
على ارجلهم سماطان مسلحان وقد نصب البرجاس حذاه، واشياخ قومه
يرمون، فلما دخلنا وابي امامي وانا خلفه. فنادى ابى وقال: يا محمد ارم مع
اشياخ قومك الغرض. فقال له: اني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت ان تعفيني
فقال: وحق من اعزنا بدينه ونبيه محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه لا اعفيك. ثم اومأ إلى شيخ من
بني أمية ان اعطاه قوسك.

فتناول ابى عند ذلك قوس الشیخ ثم تناول منه سهمًا، فوضعه في كبد
القوس، ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه، ثم رمى فيه الثانية فشقق
فوق سهمه إلى نصله ثم تابع الرمي حتى شقّ تسعه اسهم بعضها في جوف
بعض. وهشام يضطرب في مجلسه. فلم يتمالك إلا أن قال: اجدت يا ابا جعفر
وانت ارمي العرب والجم، هلا زعمت انك كبرت عن الرمي، ثم ادركته ندامة
على ما قال.

وكان هشام لم يكن كثي احداً قبل ابى ولا بعده في خلافته. فهم به
واطرق إلى الأرض اطراقة يتراوئ فيها وانا وابي واقف حذاه مواجهين له. فلما
طال وقوفنا غضب ابى فهم به. وكان ابى عليه السلام اذا غضب نظر إلى السماء نظر
غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه.

فلما نظر هشام الى ذلك من ابي قال له: اليَ يا محمد! فصعد ابي الى السرير وانا اتبعه، فلما دنا من هشام قام اليه واعتنقه واقعده عن يمينه، ثم اعتنقني واقعدي عن يمين ابي. ثم اقبل على ابي بوجهه فقال له:

يا محمد لا تزال العرب والعمجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك، الله درك، من علّمك هذا الرمي؟ وفي كم تعلّمته؟ فقال ابي: قد علمت ان اهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته ايام حداثتي ثم تركته. فلما اراد امير المؤمنين مثني ذلك عدت فيه. فقال له ما رأيت مثل هذا الرمي قط مذ عقلت، وما ظننت ان في الارض احداً يرمي مثل هذا الرمي. ايرمي جعفر مثل رميك؟

قال: انا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين انزلهما الله على نبِيِّه ﷺ في قوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَكْمَلَتُ لَكُمْ دِيْنِنِي وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِنِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِيْنِنِي» والارض لا تخلو ممَّن يكمل هذه الامور التي يقصر غيرنا عنها.

قال: فلما سمع ذلك من ابي انقلب عينه اليمنى فاحولت واحمر وجهه وكان ذلك علامه غضبه اذا غضب.

ثم واصل هشام حديثه قائلاً: ان علياً كان يدعى علم الغيب والله لم يطلع على غيبه احداً فمن اين ادعى ذلك؟ فقال ابي: ان علياً هو الذي تولى نشر معارف القرآن وعلوم النبي ﷺ .

ثم امر هشام باطلاقها وارجاعها الى المدينة.

ثم جرت بين الامام والرهبان والقساوسة المسيحيين المقيمين في الشام محاجة ومساءلة، وقد جاء ذكرها مفصلاً في كتب الحديث. ثم امر هشام ان يغادر الامام المدينة باسرع ما يمكن حتى لا يتأثر اهل الشام بعلمه. وقد كان بعث بريداً

الى عامله على المدينة كتب فيه: «ان ابني ابى تراب ساحرين ويدعىان كذباً ما يظهران من الاسلام لانهما تأثرا برهبان النصارى وملا اليهم. فكرهت أن انكل بهما لقربتها، فاذا وصل الى المدينة، ناد في الناس: برئت الذمة من يشاربها او يباعها او يصافحها او يسلم عليها فانهما قد ارتدوا عن الاسلام».

وقد صدق الناس ما ورد في هذا الكتاب، واغلظوا لللامام في المعاملة والقسوة لكن الامام حذرهم ونصحهم وخوفهم من عذاب الله، فكفوا عن اهانته وايذائه وهذه الرواية تعكس حيلة هشام من اجل مسخ صورة اهل البيت.

الإمام الصادق

عليه السلام

ابو عمرو الجاحظ: «جعفر بن محمد
الذی ملأ الدنيا علمه و فقهه»^(١).

الامام السادس للشيعة هو جعفر بن محمد الصادق علیه السلام ، ولد عام ٨٠ او
عام ٨٣ للهجرة.

يرجع الاساس الفكري والعقائدي للشيعة الى الامام الصادق علیه السلام ، فعلى
يده تم نشر الكثير من علوم واحاديث اهل البيت . وقد كان الامام الصادق الحد
الفاصل بين الفرق ، نتيجة ظهوره لدى الشيعة ، وقد جعل اهم واجب امام ناظره
هو صيانة الشيعة من الانحراف ووقايتها من التأثر بالانحرافات التي كانت سائدة
في عصره والتي كانت تهدد على الدوام النقاء الفكري والعقائدي والاستقلال
النافي لهم.

((١)) رسائل الجاحظ ص ١٠٦.

والروايات الواردة في امامه جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام كثيرة تعرضت لها الكثير من جوامع الحديث والكتب التاريخية للشيعة من جملتها (الكافي ، كتاب الحجّة)، و(كشف الغمة في معرفة الأئمة)^(١)، و(اثبات الوصية)، و(ارشاد المفید) و(اثبات المداة).

كان الامام الباقر عليهما السلام يعيش في المدينة، واما الامام الصادق عليهما السلام فحيث كان اكثراً شيعته في العراق فانه عاش فيه رحراً من الزمن لهذا السبب او لأسباب أخرى^(٢).

وفي عهده سقطت الدولة الاموية وانتقل الحكم الى بني العباس، وبعد أن أمضى عليهما السلام اطول مدة -قياساً الى سائر الائمة- في ارشاد الناس، رحل اخيراً عن هذه الدنيا في شوال عام ١٤٨ للهجرة، وترك الشيعة في حزن دائم ومؤلم لا ينقطع لفقده. ونقلت بشأن شهادته رواية عن اهل السنة انفسهم^(٣) الا ان ابا زهرة اعتبرها غير صحيحة، مستنداً بذلك الى ثاء المنصور على الصادق عليهما السلام واعلانه عن اسفه لرحلته، وهو ما رواه اليعقوبي^(٤).

كما اعتبر ان مثل هذه الاجراء من قبل المنصور يتعارض وسياسته في توطيد دعائم حكمه^(٥).

لكن ينبغي القول بان كلا الرذين لا يعتبران نصاً تاريخياً ولا يشكلان دليلاً

(١) كشف الغمة، ج ٢ ص ١٦٧ - ١٧٣.

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧. طبعة القاهرة.

(٣) الاتحاف، للشيراوي، ص ١٤٧.

(٤) اليعقوبي، ج ٣ ص ١١٧ / الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٦٧.

(٥) الامام الصادق ص ٦٤.

على عدم استشهاده. لأن اعلان المنصور عن اسفه بصفته خليفة -فلا يريد أن يُظهر أن الامام الصادق عليه السلام استشهد بناءً على اوامره- امر طبيعي جداً، وقد حصل نظير هذا الموقف ايضاً للمأمون ازاء الامام الرضا عليه السلام، بل يُعتبر مثل هذا الامر قضية طبيعية جداً فيما يخص السلاطين وحوادث الاغتيال السياسية التي تُنفَّذ بناءً على اوامرهم.

وكذلك قيام المنصور بقتل عدد كبير من العلوين وعدائه الصريح لهم يتنافى مع سلوكية المنصور حسماً يصرّح به ابو زهرة.

بل ان العكس هو الصحيح، فقد كان قتل الامام الصادق عليه السلام متطابقاً واسلوبه في الحكم، كما هو الحال في سلوكه مع اعدائه الآخرين. وكل ذلك كان يجري في الخفاء وبسرية تامة لكي يبق هو في مأمن من افرازاته واعراضه الجانبية. وعلى هذا فلو وجد شاهد تاريني ينبي بسمه على يد المنصور فسيكون ذلك اكثراً مقبولة من اعلان المنصور عن اسفه.

شخصية الامام الصادق عليه السلام الفقهية والأخلاقية

توجد شواهد جمة على نبوغ شخصية الامام الصادق العلمية. اما من جهة نظر الشيعة فهم يعتقدون بتنصيبه لمقام الامامة من الله تعالى، اذ ستكون النتيجة المباشرة لمثل هذا الاعتقاد انّ لديه علم الامامة الخاص. واما عند اهل السنة فقد كان يحظى بمقام شامخ في مجالات الرواية والحديث والفقه والافتاء عندهم، حتى انهم يعدّونه من شيوخ ابي حنيفة ومالك بن انس وعدد كبير من كبار محدثيهم. فمالك بن انس من جملة من تلمندو مدة طويلة على يد الامام الصادق عليه السلام، وقال عنه:

«ولقد كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير المزاح والتقبسم، فاذا ذكر
عنه النبي ﷺ اخضر واصفر ولقد اختلفت اليه زماناً وما كنت اراه الا على
ثلاث خصال: اما مصلياً واما صائماً واما يقرأ القرآن. وما رأيته قط يحدث عن
رسول الله ﷺ الا على الطهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء
الزهاد الذين يخشون الله وما رأيته قط الا يخرج الوسادة من تحته و يجعلها
تحقي»^(١).

وَقُلَّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْمَقْدَامِ أَنَّهُ قَالَ: «كَنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَى جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ
عْلَمْتُ أَنَّهُ مِنْ سَلَالَةِ النَّبِيِّينَ»^(٢).

وقال الماجحظ وهو من مشاهير علماء القرن الثالث: «جعفر بن محمد الذي
مَلَأَ الدُّنْيَا عِلْمَهُ وَفَقْهَهُ وَيُقَالُ أَنَّ أَبَاهُ حَنِيفَةَ مِنْ تَلَامِذَتِهِ وَكَذَلِكَ سَفِيَانَ الثُّوْرَى
وَحَسِبَكَ بِهِمَا فِي هَذَا الْبَابِ»^(٣).

ويُثْنِي ابن حجر الهيثمي ايضاً على مكانة الامام وشخصيته العلمية ويشير
إلى أن اشخاصاً مثل يحيى بن سعيد وابن جريج ومالك وسفيان الثوري وابي
حنيفه وشعبة وايوب السجستاني نقلوا عنه الكثير من الروايات^(٤).

وقد نقلت عبارات كثيرة قالها العلماء والمفكرون عن شخصيته جمع الاستاذ
اسد حيدر اغلبها في كتابه القيم (الامام الصادق والمذاهب الاربعة)^(٥) ولا حاجة

(١) المناقب للزوواي، ص ٤١ فقلأعن ابي زهرة/الامام مالك ص ٩٤-٩٥.

(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج ٢ ص ١٠٤/كشف الغمة ج ٢ ص ١٨.

(٣) وسائل الشيعة الجاحظ، ص ١٠٦.

(٤) الصواعق المحرقة، ص ١٢٠.

(٥) الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١ ص ٦٢.

الى ذكرها في هذا الكتاب.

ولا شك ان كثرة المتعلمين الذين كانوا يحضرون في حلقة درسه، او الذين نقلوا عنه الاحاديث يظهر مدى عظمة شخصيته العلمية.

كان الحسن بن علي الوشائ يقول: «رأيت في مسجد الكوفة تسعمائة شخص يقول كل منهم حديثي جعفر بن محمد»^(١).

وتتلمذ على يده ايضاً نصير بن كثير وسفيان الثوري -الذى طارت شهرته في المصادر السنتية بالزهد والعلم- واكتسبا منه العلم والاخلاق^(٢) قد جاءنا اليه عند وقت الحج وقالا: «إنا ذاهبان الى الحج، علمنا شيئاً تكون به نجاتنا. فعلمهمما الامام دعاء»^(٣).

وفي مواقف أخرى يلُجُّ في سؤال الامام ليروي له حديثاً^(٤).

وقد كان هناك ايضاً من يروي الاحاديث الملفقة عن الامام الصادق عليه السلام بقصد الاساءة اليه. يقول شريك في هذا الصدد: «كان جعفر بن محمد رجلاً صالحأً مسلماً ورعاً. فاكتنفه قومٌ جهالٌ يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون حديثنا جعفر بن محمد ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدرام و من هؤلاء بيان بن سمعان الذي ادعى ان معرفة الامام تكفي عن الصوم والصلوة.

(١) الامام الصادق، فضل الله، ١٢٩، ور.ك، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ١ ص ٦٧.

(٢) كشف الغمة، ج ٢ ص ١٦٦ ط تبريز.

(٣) السهمي، تاريخ جرجان ص ٥٥٤ / المزني، تهذيب الكمال ج ٥ ص ٩٢ .

(٤) تهذيب الكمال ج ٤ ص ٨٥ / سيرة اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٦١.

وما قال جعفر شيئاً من هذا قط. كان جعفر اتقى واورع من ذلك»^(١).

ولو تجاوزنا جميع هذه الموارد فقد كانت للامام بين شخصيات عصره وخاصة العلماء منهم عظمة تثير الاعجاب والخير. كتب ابو زهرة في هذا الشأن: «ما أجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه»^(٢).

وكتب ايضاً الشهريستاني مؤلف كتاب (الملل والنحل) عن شخصيته العلمية والأخلاقية كما يلي: «وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات»^(٣).

وبالاضافة الى ما اكتسبه منه ابو حنيفة^(٤) فقد روى عنه الاحاديث ايضاً، وتلاحظ الكثير من روایاته التي نقلها عن الامام الصادق عليه السلام في كتاب (الآثار)^(٥).

وقال عن الامام الصادق عليه السلام: «ما رأيت افقه من جعفر بن محمد وانه اعلم الامة»^(٦).

ويقول عنه المؤرخ المشهور ابن خلkan: «احد الائمة الاثني عشر على مذهب الامامية وكان من سادات اهل البيت ولقب بالصادق لصدق مقالته

(١) اختيار معرفة الرجال، الطوسي، ص ٣٢٤-٣٢٥ طبعة مشهد.

(٢) الامام الصادق، ابو زهرة ص ٦٦.

(٣) الملل والنحل، ج ١ ص ١٤٧ / الامام الصادق، ابو زهرة ص ٣٩.

(٤) جامع المساند ابو المؤيد بن احمد الغوارزمي، ج ٢ ص ٢٤٩، ط بيروت، دار الكتب الاسلامية.

(٥) ابو زهرة، الامام الصادق ص ٣٨.

(٦) جامع المساند ج ١ ص ٢٢٢ / الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٢٤ / الامام ابو حنيفة، ص ٧٠.

وفضله اشهر من أن يذكر»^(١).

وقال عنه الشيخ المفيد عليه السلام : «ولم ينْقُلَ العلماء عن أحد من أهل بيته ما نَقِلَ عنه»^(٢).

كان المنصور العباسي في صراع دائم مع العلوين وقد سعى إلى التقليل من شخصية الإمام الصادق عليه السلام من خلال تعظيمه لبعض علماء أهل السنة من أمثال مالك بن أنس. اذ كان يقول له : «أنت والله اعقل الناس واعلم الناس، ولئن بقيت لا كُتبَنَ قولك كما يكتب المصحف. ولا بعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه»^(٣).

لم تكن حركة المنصور هذه ناتجةً عن حبه لمالك، بل اراد جعله رمزاً وتجسيداً ليطفئ بذلك نار حقده وغضبه على الإمام الصادق عليه السلام.

فقد كان المنصور يتشبث بكل وسيلة ممكنة للإساءة إلى الإمام، وخدش شخصيته العلمية والفقهية، مثلاً دفع أبو حنيفة للوقوف في مقابل الإمام ومناقشته والتباخت معه فان انتصر أبو حنيفة، فسيكون ذلك بثابة اخراج الإمام من ساحة العلوم والمعارف الإسلامية وقد روى أبو حنيفة نفسه هذه الحادثة فقال:

«قال لي المنصور ان الناس ولعوا بجعفر بن محمد وهم يتواجدون عليه باستمرار ، فاجمع له من المسائل المستعصية واسأله عن جوابها فان هو عجز عن الاجابة عليها سقط في اعين الناس ، فجمعت له اربعين مسألة مما تصعب الاجابة عليه». ثم التق الإمام الصادق عليه السلام وأبو حنيفة في الحيرة بحضور المنصور، ووصف

(١) وفيات الاعيان - ج ٨ ص ١٠٥.

(٢) كشف الغمة ، ج ٢ ص ١٦٦.

(٣) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٢٠٩.

ابو حنيفة لحظة دخوله مجلس المنصور كالتالي:

«لما دخلت المجلس رأيت هيبة جعفر بن محمد غطّت حتى على المنصور نفسه، فسلمت وجلست في مكاني، فالتفت المنصور اليّ وقال: اعرض ما لديك من مسائل على أبي عبدالله.

فألقيت عليه المسائل التي اعدتها الواحدة تلو الاخرى وهو يجيب قائلاً: رأيكم في القضية الفلانية كذا واهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا. وكان رأيه في قسم من المسائل يوافق رأينا وفي مسائل أخرى يوافق رأي اهل المدينة وبعضها يختلف عن الجانبيين، حتى اجاب عن اربعين سؤالاً.

وعند انتهاء الاسئلة قال ابو حنيفة مشيراً الى الامام الصادق عليه السلام: ان اعلم الناس اعلمهم باختلاف الناس»^(١).

ومن الطبيعي جداً ان ينادي الامام مثلما كان جدّه امير المؤمنين عليه السلام ينادي: «سلوني قبل ان تفقدوني فإنه لا يحذّكم احد بعدي بمثل حديثي»^(٢).

والاحاديث التي وصلتنا من الامام الصادق عليه السلام لا تختص بالفقه فقط، بل وصلتنا منه احاديث ايضاً في مجال التفسير وعلم الكلام والاخلاق. ولو راجعنا كتاب (اصول الكافي)، لتبيّن لنا عمق وسعة نظر الامام في المسائل العقلية الاسلامية. كما تضمنت تفاسير البرهان والصافي ونور التقلين عدداً كبيراً من احاديثه.

(١) المزي، تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٩ - ٨٠ / ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٦.

(٢) تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٩، سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٥٧، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٦.

كتب العالم **البُشِّيَّيْ** ابو زهرة في هذا الصدد يقول: «ولم يكن علمه مقصوراً على الحديث وفقه الاسلام بل كان يدرس علم الكلام»^(١).

ولا يكمن هنا تبيان جميع النظريات الكلامية للامام، الا أن عبارته بشأن مسألة الجبر والتفسير وهي عبارة مشهورة قال فيها: «لا جبر ولا تفويض بل امرٌ بين أمرتين» تُعَدُّ اجمل واشمل وادق تعبير طرح في هذا المجال.

ويقول ابو زهرة في موضع آخر من كتابه عن الامام الصادق **عليه السلام**: «فوق هذه العلوم كان الامام الصادق على علمٍ بالاخلاق وما يؤدي الى فسادها»^(٢).

وكان عدد الرواة الذين رووا عنه الاحاديث كبيراً جداً، يمكن العثور على اسمائهم في (تهذيب الكمال) للامام المزي^(٣) وبقية كتب الرجال مثل (تهذيب التهذيب)، ومن بينهم عدد كبير من الشخصيات البارزة عند اهل السنة، وقد اورد الذهبي في كتاب سير اعلام النبلاء اسماء الرواة الذين نقلوا عن الامام الصادق **عليه السلام**^(٤).

هذا في وقت كان فيه الكثير من المحدثين لا يجرؤون على النقل عنه في عهد بني أمية، فقد ذكر بشأن مالك بن انس بأنه: «لم يترو عن جعفر بن محمد حتى ظهر امر بني العباس»^(٥).

(١) ابو زهرة، الامام الصادق ص ٦٦.

(٢) ابو زهرة - الامام الصادق ص ٦٧.

(٣) تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٥ و ٧٦.

(٤) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٥٦.

(٥) ابن عدي الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥٥ / الذهبي، سير اعلام النبلاء ج ٦ ص ٢٥٦.

كان اتساع نطاق التشيع وكثرة اصحاب الامام الصادق ع مصحوباً طبعاً بالكثير من الاختلافات والمصاعب. فلم يكن باستطاعة جميع تلاميذه وشيعته في ذلك العصر وضع جميع افكارهم وتصوراتهم في الزاوية الصحيحة، واكتساب معارفهم الدينية من مصدرها الاساس وهو بيت الرسالة، كما كان الحال بالنسبة لمحمد بن مسلم وزراره.

فقد كان الكثير منهم يحضرون في حلقات درس المحدثين من اهل السنة، وهذا ما كان يؤثر على نمط تفكيرهم وفهمهم، ومن جانب آخر فقد كان لكترة اصحابه وانتشارهم في الاصقاع القاصية والدانية تأثيره ايضاً اذ كان يتعدى عليهم الاتصال المباشر بالامام لذا فهم كانوا يرجعون في مسائلهم الفقهية والعقائدية الى الشيعة الاكثر شهرة وقد ادى ذلك الى سريان الاختلاف في وجهات نظرهم الى بقية الشيعة. وقد اوجد التناحر السياسي بين عدد من الشيعة ميولاً لدى البعض منهم تجاه الحكومة العباسية الفتية التي كان لها قبل هذا نفوذ واسع في الاوساط الشيعية وهذا ما اضاف عاملآ آخر الى عوامل الاختلاف بين الشيعة.

وعلاوة على كل ذلك اصبحت قضية الزيدية عاملآ آخر يضاف الى عوامل هذه التفرقة اذ ادت حركاتهم التورية الى استقطاب الشيعة السياسيين والمتطرفين الى الالتفاف حول هذه الفرقـة، وكان من الطبيعي أن تترك مثل هذه الاحـدـاث تأثيراتها السلبية والعميقة نسبياً على الشيعة.

وفي نفس الوقت كان بين اصحاب الامام الصادق ع شيعة حقيقـيون بذلـوا جهوداً جبارـة ومتواصلة من اجل المحافظة على آثارـه العلمـية وما وردـ عنه من روـيات.

يقول الامام الصادق ع عليه السلام بهذا الشأن: «ما احد أحى ذكرنا وأحاديث أبي الأزارة وابو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي ولو لا هؤلاء ما كان احد يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي ع عليه السلام على حلال الله وحرامه وهؤلاء السابقون علينا في الدنيا والسابقون علينا في الآخرة»^(١).

وقال ايضاً: «رحم الله زارة بن اعين لولا زارة ونظراؤه لاندرست احاديث أبي»^(٢).

وكان من بين هؤلاء من اعتبره الامام الصادق ع عليه السلام مرجعاً للشيعة. فعندما سأله احد شيعته: ربا احتجنا ان نسأل الشيء فن نسأل؟ قال له: «عليك بالاسدي، يعني ابا بصير»^(٣).

وقال في موقف آخر: «ما يعنك من محمد بن مسلم الثقفي فانه سمع من ابي وكان عنده وجيه»^(٤).

وفي مقابل هؤلاء، كان فريق منهم متذبذب بين الزيدية والمذهب الجعفري، فعندما سأله الامام الصادق ع عليه السلام عبد الملك بن عمر عن سبب عدم مشاركته في الحرب، اشار ضمن جوابه:

«فإنَّ الزيديَّة يَقُولُونَ لِيَسْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ جَعْفَرٍ خَلَافٌ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَرِيَ الْجَهَادِ».

(١) الطوسي - نفس الكتاب ص ١٣٧، ور.ك: وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٠٣ - ١٠٤

(٢) الطوسي، نفس الكتاب ص ١٣٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٣.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٥.

فحاول الامام دفع هذه التهمة عن نفسه وقال: «بلى والله إني لأراه ولكنني اكره ان ادع علمي الى جهنم»^(١).

وقد تعرّض السيد الحميري وهو من شعراء الشيعة المعروفين الى انحراف من نوع آخر وضعه العباسيون امام اقدام الشيعة، فهو كان يميل الى مذهب الكيسانية الذي اصطنعه العباسيون. الا انه جاء فيما بعد الى الامام الصادق عليه السلام وغير معتقده واصبح من شيعته المخلصين^(٢).

وقد نظم قصيدة يحكي فيها كيفية عودته والتحاقه بالامام الصادق عليه السلام يقول فيها:

تجعفرت باسم الله والله اكبر وايقنت ان الله يغفو ويغفر

وقد ترّحّم عليه الامام الصادق عليه السلام فيما بعد وشار الى انه ارتكب ذنوباً فقال عنه: «وما حطّر ذنب عند الله ان يغفره لمحب على»^(٣).

والنقطة التي تستثير الاهتمام فيما يخص تشتت شمل الشيعة او بعبارة أخرى ظهور التفرقة فيما بينهم هو ان بعض علماء البلاط في عهد المهدي العباسى كانوا يؤجّجون هذه الاختلافات ويبذلون جهوداً كبيرة في اظهارها بظهور يفوق حجمها الحقيقى. وفي هذا الصدد يذكر الكشي شخصاً يدعى بابن المفضل الّف كتاباً في الفرق وذكر فيه كل واحد من اصحاب الامام الصادق عليه السلام باعتباره زعيمًا لفرقة من الفرق.

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٣٢.

(٢) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ٢٢٨. الاغاني ج ٧ ص ٢٣٣.

(٣) الاغاني، ج ٧ ص ٢٤٢ و ٢٧٧.

وفي ختام هذا الفصل لابد من الاشارة الى أنّ شيعة الامام الصادق علیه السلام كانوا يتواجدون على الاغلب في العراق وفي الكوفة على وجه الخصوص. واما باقيه الولايات فكانت اما خالية من الشيعة او تضمّ عدداً قليلاً منهم، رغم ان بعض الناس كان يأتي الى الامام من خراسان ويعرض عليه الاسئلة الفقهية^(١).

فحين ذهب حفص بن غياث الى البصرة لرواية الاحاديث طلبوها اليه ان لا يروي عن بعض الناس وكان من جملتهم جعفر بن محمد، وسبب ذلك هو الروحية العثمانية التي كانت سائدة على اهالي البصرة ومنشئها حرب الجمل، فقال لهم حفص: «لو أنكم قلتم هذا الكلام في الكوفة لأخذتكم النعال المطرقة»^(٢).

الامام الصادق علیه السلام والغلاة

لقد تعرضنا اثناء حديثنا عن حياة الامام الバقر علیه السلام الى مسألة مواجهته للغلاة، ونرى هنا وجوب التعرض الى هذه المسألة بشكل اوسع حيث نستعرض تصرفات وافعال الغلاة ورد فعل الامام الصادق علیه السلام تجاههم. حيث يبدو لنا أن اسلوبه في مواجهتهم يُعتبر من اهم الجهود التي بذلها للحفاظ على الشيعة وصيانتهم من الانحراف، فكل مذهب يمر في زمان حياته يمر بحلتين وهما مرحلة النشوء والتكون و الثانية هي مرحلة الاتساع والتطور، وفي كل مرحلة يوجد خطر جسيم يتربص به الدوائر.

تشتمل عقائد الغلاة على آراء ينسبون بوجبها بعض صفات الله الى بعض

(١) تاريخ يحيى بن معين، ج ٤ ص ٣٧٢.

(٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥ / تهذيب الكمال، ج ٢ ص ٧٨ / سير اعلام النبلاء ج ٦ ص ٢٥٧.

البشر ويعرفون لهم بنوع من الالوهية، فيجعلون منهم آلهة حيناً او اصحاب صفات اهية حيناً آخر^(١).

وبما ان الائمة كانوا يطرحون انفسهم بصفتهم من متصفين من قبل الله فان ذلك كان يسهل الارضية للصق مختلف الصفات بهم و يجعلهم غرضاً للحب والولاء المتطرف و يهيئ الظروف لمثل تلك الآراء المغالبة.

ان اهم جوانب حياة الامام الصادق عليه السلام التي لها دور كبير في حياة الشيعة هي معارضته وتصديه العلني للغلاة ومسألة الغلو، والتي نتج عنها تحجيم الغلاة في شتى المجالات، وجعلهم خارج دائرة الشيعة، والآلام ما يقي للتتشييع الحقيقى من اثر يذكر ولا يصبح هذا المذهب العوبة بيد المخربين الذين سيشكلون صورة أخرى عن الشيعة متأثرة بالثقافة والآراء المسيحية واليهودية.

و قبل التطرق الى موضوع مواجهة الامام الصادق عليه السلام للغلاة، ينبغي الاشارة الى هذه الحقيقة وهي ان كتب الفرق والمذاهب التي كُتبت فيما بعد على يد علماء اهل السنة وبسبب عدم تمييزها بين الشيعة الواقعين والغلاة، حررت افكار قرائتها عن حقيقة الحال وضللتهم. وبقيت اوساط السننية الى ما قبل عدّة سنوات بل بقي بعضها الى الان، غير مدركة لهذه الحقيقة وهي ان الشيعة الامامية يختلفون عن الغلاة، وان الامامين الباقي والصادق عليهما السلام قد رفضا وجود هذه الفتنة بين اوساط الشيعة. فلو كان مؤلفو تلك الكتب على دراية بدىءى تصدي الشيعة للغلاة وتكفير أئمة الشيعة لهم لما وقعا في مثل هذا الخطأ الفاحش. بل ان بعض

(١) ابن ابي الدنيا، مقتل امير المؤمنين عليهما السلام مجلة تراثنا، العدد ١٢ ص ١٢١ حديث ٩٢، وقد سبق للنبي عليهما السلام ان تحدث بمثل هذا الحديث قائلاً لامير المؤمنين عليهما السلام: «سيهلك فيك رجالان». وقال كذلك لابن عباس: «اياتك والغلو ائمتك من كان قبلك بالغلو». الطبقات ج ٢ ص ١٨١.

المستشرقين حاول مؤخراً - وبأهمال متعمد - التحدث عن الشيعة وكأنهم يحملون نفس افكار وآراء الغلاة، بينما تشير الحقائق التاريخية التي ستنطرق الى بعضها فيما يأتي الى افصال هاتين الفرقتين عن بعضها منذ تاريخ نشوئها، وهو ما يبطل اوهام المستشرقين في هذا المجال.

اما سياسة الائمة تجاه الغلاة فكانت تمثل بما يلي:

١- صيانة الشيعة الحقيقين من الغلاة:

فن جملة الاساليب التي دأب عليها الامام في مواجهته للغلاة هو ايجاد فاصل بينهم وبين الشيعة الاصليين. إذ كان الاتصال بهم والاختلاط معهم يعني ترك بعض الآثار السلبية على الشيعة.

فقد ورد في رواية مسندة عن الامام الصادق عليه السلام انه قال للمفضل بن مزيد مشيراً في كلامه الى اصحاب ابي الخطاب والغلاة: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تؤاثروهم»^(١).

وفي رواية أخرى منقولة عن ابي عبدالله عليه السلام انه قال: «احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباده»^(٢).

٢- تكذيب عقائد الغلاة:

دأب الامام على رفض واستنكار عقائد الغلاة مستهدفاً بذلك ابعادهم عن

(١) الطوسي، اختصار معرفة الرجال ج ٢ ص ٥٨٦ حديث ٥٣٥ / مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص ٣١٥.

(٢) امامي الشيخ، ج ٢ ص ٢٦٤.

المجتمع الشيعي، فحدد الامام كتاب الله باعتباره الميزان الذي يميز الحق عن الباطل ، وهو في نفس الوقت الذي انبرى فيه لتسفيه معتقدات المغالين، اوجد حركة فكرية مناسبة بين الشيعة في سياق تصحيح احاديث وعقائد الشيعة .

ينقل الشهريستاني بأن سديراً الصيرفي جاء الى الامام الصادق علیه السلام وقال له : «بنفسي انت، ان شيعتك اختلفوا فيك ويصرّون على ذلك ، فنهم من يقول ان كل ما يحتاج اليه الامام هداية الناس يُلقي اليه ، وبعضهم يقول : يوحى اليه ، وبعضهم يقول : يُلهم قلبه ، ويقول جماعة آخرون : يرى في المنام ، ويقول جماعة آخرون : يفتى على كتابات آبائه فاي هذه الآراء صحيح فدتك نفسی ؟

فقال له الامام : «يا سديراً ليس من هذه الاحاديث حديث صحيح، فنحن حُججُ الله وامناؤه على عباده ونأخذ الحال والحرام من كتاب الله»^(١).

تظهر الرواية السالفة كيف اثرت العقائد المغالبة على الشيعة ، واوجدت بينهم الانقسامات حتى احتار طلاب الحقيقة وسط هذا المترى فوجدوا في الامام الصادق علیه السلام الملاذ الوحيد الذي يمكن الاطمئنان اليه ، فيقوم بارشادهم كما ينبغي.

وينقل الشهريستاني رواية أخرى تعكس وجود نفس هذا الاختلاف . الفكري بين الشيعة فقد جاء الفيض بن المختار الى الامام الصادق علیه السلام وقال له :

«بنفسي أنت، ما هذا الاختلاف الذي وقع بين شيعتك؟ فاني احضر في مجلسهم احياناً فأوشك على الشك فيكم، ثم اذهب الى المفضل فيطرح عليَّ بعض النقاط التي تعيد لي الثقة والسكنية .

(١) تفسير الشهريستاني المخطوط ، الورقة ٢٥ ، تقلأً عن آذرشـ، مجلة تراثنا ، العدد ١٢ ص ١٨ .

قال له ابو عبد الله عطیلاً : نعم ان الناس قد اصيروا میالين للكذب و كان الله قد اوجبه عليهم ولا يريد منهم سواه. فأنا احدثهم بالحديث فما يخرجون من عندي الا و يأولونه على غير معناه الصحيح»^(١).

يعكس القسم الاخير من الرواية مشكلة اختلاف وجهات النظر بين الشيعة والتي اشرنا اليها في البداية باسم الانحراف. فنفوذ بعض الافكار الالحادية للغلاة بين بعض اتباع الامام دفعهم الى تأويل احاديثه تأويلاً غير صحيح خلق مشاكل بين الشيعة، بحيث ان عدداً معدوداً من الاصحاب الحقيقين للامام كان باستطاعتهم أن يكونوا مرجعاً لحل تلك المشاكل مثل المفضل.

وجاء في رواية أخرى ان عيسى الجرجاني قال: قلت للامام جعفر بن محمد عطیلاً هل لي ان اعرض عليك ما سمعته من هذه الجماعة؟ قال: قل. فقلت له: «فان طائفة منهم عبدوك واتخذوك الهاً من دون الله، وطائفة أخرى والا لك بالنبوة. قال فبكى حتى ابتلت لحيته ثم قال: «ان امكنتني الله من هؤلاء فلم اسفك دماءهم سفك الله دم ولدي على يدي»^(٢).

وكانت مهدوية الامام الباقر عطیلاً من جملة ما تخرّصت الغلاة في عهد الصادق عطیلاً به وقد استنكرها الامام بشدة^(٣). وقد طرحت قضية نبوة الائمة المعصومين من قبل الغلاة ايضاً، وردّ عليها الائمة، فقد نُقل عن الامام الصادق عطیلاً انه قال بهذا الشأن «من قال إنا نبیاء فعليه لعنة الله ومن شک في ذلك فعليه

(١) الشهرياني نفس المصدر ص ٢٦ / تراثنا، العدد ١٢ ص ١٨.

(٢) السهمي - تاريخ جرجان ص ٣٢٢.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ٣٠٠.

لعنة الله»^(١).

ومن المعتقدات الاخرى المتطرفة للغلاة هي اطلاقهم كلمة (إله) على الامام وقالوا: «هو الذي في السماء إله وفي الارض إله» قال : «هو الامام».

وقد اعتبر الصادق عثيل القائلين بهذا الرأي شرًّ من المجرم واليهود والنصارى^(٢).

وجاء في رواية اخرى ان فند قول الغلاة «علي في السحاب» وقال: «ان النبي قد غطى علينا بعبادة اسمها السحاب، ولما جاء بها مع الله الى الرسول ﷺ قال : هذا على قد اقبل في السحاب»^(٣).

القضية الاخرى المهمة التي كان يستند اليها الغلاة هي اعطاؤهم صفة الالوهية للائمة ورفعهم من مقام العبودية لله، لكن الامام الصادق عثيل قال في دحشه لهذه المقوله: «لعن الله من قال فيينا ما لا نقوله في انفسنا، ولعن الله من ازالنا عن العبودية لله الذي خلقنا واليه مأبنا ومعادنا وببيده نواصينا»^(٤).

٣- تكفير الغلاة:

لقد كفر الامام عثيل قادة الغلاة واتباعهم وفصل بذلك بين خطهم وخط شيعته، وبهذا الموقف تمكّن الامام من تعين المسار الذي ينبغي ان يسلكه الشيعة وانقذهم من التلويت والانحراف الذي كان يُنفث نحوهم من قبل اوئل المغالين.

(١) نفس المصدر ص ٣٠١.

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٠.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٩٨.

(٤) نفس المصدر السابق ص ٣٠٢.

كان التجسيد او التجسيم واحداً من ادوات الغلاة في تحليل المفاهيم الدينية، فهم لم يطلقوا المفاهيم الدينية على مصاديقها الحقيقة، بل كانوا يتصورون امثلة تجسد معانיהם المفترضة وقد ادى مثل هذا الاتجاه الفكري -الذى يُعد انحرافاً جلياً في الدين واقصاءً له عن حقيقته- الى ان يستنكره الامام الصادق عليه السلام. إذ جاء في رواية انه كتب كتاباً الى ابي الخطاب وهو من زعماء الغلاة ورد فيه:

«بلغني انك تزعم ان الزنا رجل وان الخمر رجل وان الصلاة رجل وان الصيام رجل وان الفواحش رجل، وليس هو كما تقول انا اصل الحق وفروع الحق طاعة الله، وعدونا اصل الشر وفروعهم الفواحش»^(١).

وجاء في رواية اخرى انه كَلَمَ بعض الغلاة فقال لهم: «توبوا الى الله فانتم فساق كفار مشركون»^(٢).

ان تأكيد الامام على استنكار وادانة الغلاة كان بسبب اتساع عملهم الدعائي وتأثيرهم على فئة كبيرة من اهل الكوفة، وقد ادى وجود التقية آنذاك في اغلب تصرفات الشيعة الى أن يتصور الكثير منهم ان الامام قد ادانهم في الظاهر ولكنهم يؤيدهم في الباطن وانه هو الذي رتب لهم الامور واظهرهم الى الوجود. وقد ضاعف هذا التصور من معاناة الامام بشأن فرز وابعاد الغلاة من الاوساط الشيعية.

وقد كان الغلاة عادة يرُوّجون مثل هذه المعتقدات لاسباب ودافع خاصة نحملها بالنقاط التالية:

(١) نفس المصدر ص ٢٩١.

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٧.

١ - التحرر من قيود العمل وبنفس الشكل الذي قالت به المرجئة في وقت من الاوقات. فهم يروون حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام انه قال: «من عرف الامام فليفعل ما شاء»^(١).

الآن الامام رد عليهم قائلاً: «انما قلت اذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فانه يُقبل منك».

فعندما يخرج الخمر والصوم والصلوة عن معانها الفقهية، لا تعود هناك اية ضرورة للالتزام بالعمل بها، ولذا فانهم كانوا يختبرون الغلابة باداء الصلاة في وقتها^(٢).

وادعوى ان الغلابة جعلوا من هذه المسائل ذريعة للتهرب من العمل غير مجازفة بل قد وردت في رواية مطولة ضمن كتاب بعثه الامام الصادق الى بعض اصحابه، وقد روى هذا الحديث القاضي النعمان^(٣).

وهذا الحديث نقله الشهريستاني بتفصيل اكثـر، وجاء في روايته ان الامام ذكر في احدى فقرات كتابه ما يلي:

«واعلم ان هؤلاء القوم سمعوا ما لم يقفوا على حقيقته ولم يعرفوا حدود تلك الاشياء مقاييسه برأيهم ومتى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا به تكذيباً وافتراءً على رسوله وجرأة على المعاصي».

ومن ثم بين الامام اساس هذا الانحراف وهو ان التاكيد المتواصل من قبل

(١) اصول الكافي ج ٤ ص ٤٦٤ ط. غفاري.

(٢) الطوسي نفس المصدر ص ٥٣٠.

(٣) ابو زهرة الامام الصادق، ص ٥٨-٥٩ - نقلأً عن دعائم الاسلام.

الامام الصادق عليه السلام وبقية الائمة المعصومين عليهما السلام على موضوع معرفة الامام، ادى بهم الى تصور أن الدين يتلخص في معرفة الامام فتركوا العمل بتعاليمه جانبأً. وهذا فقد اشار الامام في مقاطع أخرى من نفس الكتاب الى هذا الموضوع ثانية وجعل العمل بالاوامر الالهية الى جانب معرفة الله والنبي والامام وقال:

«ان الله تبارك وتعالى اختار الاسلام لنفسه دينناً ورضيه من خلقه فلم يقبل من احد الا به، وبه بعث انباءه ورسله، فمعرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم هو الحال، فالمحلل ما احلوا والمحرم ما حرموا وهم اصله ومنهم الفروع واللالل وذلك سعيهم، وعدوهم هو الحرام المحرم، واولياوهم الداخلون في امرهم الى يوم القيمة، فهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(١).

٢- الغباء وحب الدنيا هو ايضاً واحد من اسباب ظهور الغلة^(٢) حيث سعى الى جمع الناس حولهم تحت ستار المذهب الحق ليبلغوا بذلك غاياتهم واغراضهم، يقول الامام الصادق عليه السلام في هذا السياق:

«ان الناس اولعوا بالكذب علينا واني لاحدث احدهم بحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأنله على غير تأويله وذلك لأنهم لا يطلبون بحديثنا وبحثنا ما عند الله وانما يطلبون الدنيا»^(٣).

لقد ترك انتشار افكار الغلة ضرره على الشيعة، وخلق اجواء من السخط ضدهم ناهيك عن تأليب اهل السنة ضد الشيعة والعمل على تحجيمهم - بهدف

(١) تفسير الشهري، راجع مقالة آذر شب في مجلة تراثنا، العدد ١٢ ص ١٨ / بحار الانوار ج ٢٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٩ تقلأً عن الشهري.

(٢) الطوسي، نفس المصدر ص ٢٩٥.

(٣) الطوسي، نفس المصدر السابق ص ١٣٦.

تحجيم الغلاة - حتى ان ابا حنيفة كان يوصي اتباعه بعدم روایة حديث الغدیر ممنعاً
لانتشار الغلو^(١).

اعتماد الفقه الشيعي على روایات اهل البيت علیهم السلام

كان عصر الامامين الباقي والصادق علیهم السلام هو عصر انتشار علوم اهل البيت
في مختلف المجالات. وهذه المسألة تصدق على الامام الصادق علیه السلام اكثر من غيره،
وذلك يعود الى ترامن جزء من عهد امامته مع اجواء من الانفتاح السياسي نتيجة
للفراغ السياسي الذي نشأ من سقوط الحكم الاموي من جهة، ومجيء الحكم
العباسي من جهة أخرى. فقد جعل الامام الشيعة يتلفون بشكل تام حول
احاديث اهل البيت ونهاهم عن التمسك بأحاديث غيرهم. وكان هذا من اهم
العوامل في تشكيل الفقه الشيعي بصورته المستقلة الاصيلة. وقد اوضحنا اهمية هذا
الامر الى حد ما سابقاً في حياة الامام الباقي علیه السلام. ومع هذا فسوف نلقي فيما يلي
نظرة عامة على تأكيدات الامام الصادق علیه السلام في هذا الجانب:

قال الامام في روایة: «ایتها العصابة، عليكم بآثار رسول الله ﷺ وسنته وآثار ائمّة الهداء من اهل بيت رسول الله ﷺ»^(٢).

وقال ايضاً ليونس بن ضبيان: «يا يونس ان اردت العلم الصحيح فعندي
أهل البيت، فاتنا ورثنا وأوتينا شرح الحكمة وفصل الخطاب»^(٣).

(١) امامي الشيخ المفيد ص ٢٧. يحتاج البحث في موضوع الغلاة الى دراسة مستقلة وهذا ما لا يستوعبه
مثل هذا المختصر، نأمل القيام بهذه المهمة في الفرصة المناسبة ان شاء الله.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ٢٢ و ٦١ نقلأ عن روضة الكافي ص ٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٨.

وقد خصص الشيخ الحر العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) بباباً تحت عنوان (باب وجوب الرجوع في جميع الاحكام الى الموصومين)، جمع فيه احاديث اهل البيت في هذا الجانب^(١).

قال ابان بن تغلب -وكان من الشيعة الصادقين المخلصين للامام الصادق عليه السلام- في وصف المذهب الشيعي ما يلي: «الشيعة الذين اذا اختلف الناس عن رسول الله ﷺ اخذوا بقول علي واذا اختلف الناس عن علي اخذوا بقول عفرا بن محمد»^(٢).

قال يونس بن يعقوب للامام الصادق عليه السلام: «اني سمعتك تنهى عن علم الكلام، فقال له الامام: انما قلتم ويل لهم ان تركوا ما اقول وذهبوا الى ما يريدون»^(٣).

ومن هذا المنطلق كان الامام يوصي شيعته بمساعدة بعضهم الآخر، ويقول: «رحم الله من احيا امرنا»^(٤).

كان الامام الصادق عليه السلام ينقل رواياته للاميذه وكانوا -يشيعتهم وستّهم- يكتبونها مع فارق واحد وهو أن اهل السنة كانوا ينقلون الحديث عن جعفر بن محمد عن ابيه عن آبائه عن رسول الله ﷺ وبعبارة أخرى ينقلون الحديث عنه مع ذكر السند، بينما كان تلامذته من الشيعة ينقلونه عن ابي عبدالله دون بقية السند الى رسول الله ﷺ، لأنّ اعتقاد الشيعة بعصمة وامامة الائمة وحجّية قولهم

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤١.

(٢) رجال النجاشي، ص ٩ ط داوري.

(٣) الكافي ج ١ ص ١٧١، وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٥.

(٤) على سبيل المثال راجع كتاب تاريخ جرجان ص ٥٧١، ٤٠٥، ٢٦٥، ١٧٠.

يغتنيهم عن ذكر السند، ومع كل هذا فقد كان الامام يؤكّد بأن احاديثه هي نفس احاديث رسول الله ﷺ: «حديثي حديث ابى وحديث ابى حديث جدى وحديث جدى حديث علي بن ابى طالب وحديث علي حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ قول الله»^(١).

وجميع احاديث ائمّة الشيعة تقرّباً لها نفس هذا الحكم الاّ ما كانت الضرورة تقضي بنقله عن شخص آخر. قيل لأبى بكر بن عيّاش لم تستمع الحديث من جعفر بن محمد مع انك ادركته؟ قال: سألت جعفر بن محمد عن الاحاديث التي كان ينقلها هل سمع شيئاً منها - اي هل لها شيوخ حديث -؟ قال: لا، لكنّها رواية رويناها عن آبائنا»^(٢).

أهمية هذا النقل ذات قيمة كبيرة جداً وهو في الحقيقة يوضح ماهيّة عقائد الشيعة من حيث المبدأ. يقول ابن عدي:

«ولجعفر بن محمد حديث كبير عن ابيه عن جابر وعن ابيه عن آبائه ونسخاً لأهل البيت يرويه جعفر بن محمد»^(٣)، ويضيف ان اشخاصاً مثل ابن جرير وشعبة بن الحجاج وآخرين يروون عنه ايضاً.

وقد حاول ابو زهرة جاهداً العثور على شيوخ رواية يربط من خلاهم بين الصادق ع ورسول الله ﷺ فيجعل منهم قناة في ايصال ونقل الاحاديث من غير قناة اجداده الطاهرين، لكنه لم يذكر كمثال على ذلك سوى اسم قاسم بن

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ١٧٠ / الكافي ج ١ ص ٥.

(٢) تهذيب الكمال ج ٥ ص ٧٧ / الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥٥.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٨.

محمد بن ابي بكر^(١).

اما اذا افترضنا انَّ الامام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ - كما في كتاب تذكرة الحفاظ حيث ذكر كل واحد منهم عشرة اشخاص على الاقل كمشايخ لروايته - كما يفعل سائر المحدثين الكبار في ذلك العصر، فينقل الاحاديث عن طريق شيوخ الرواية ودون الطريق المتعارف عن اجداده عن رسول الله تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فقد كان ينبغي له ان يذكر مشايخ روايته بينما نرى انه ينقل الاحاديث عن طريق اجداده فقط وهم من لا يمكن اعتبارهم شيوخ رواية.

لقد اكد ائمة اهل البيت منذ البداية ان ليس لديهم شيوخ رواية، وانهم يستقون علمهم عن طريق آخر غير طريق مشايخ الرواية المتعارف يقول امير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ في تبيان هذا الموضوع: «الا أن ابرار عترتي واطائب ارومنتي احلم الناس صغراً واعلمهم كباراً الا وانَّ اهل البيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا ومن قول صادق سمعنا فان تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، معنا رأية الحق من تبعها لحق ومن تأخر عنها غرق»^(٢).

وقال الامام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ : «ان عندنا ما لا نحتاج معه الى الناس وان الناس ليحتاجون اليها وان عندنا كتاباً املأه رسول الله وخطه على عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ صحيفه فيها كل حلال وحرام»^(٣).

هذا التناقض والتناغم الموجود في كتب الاحاديث الشيعية لا يوجد له نظير

(١) الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٨٨ - ٩٠.

(٢) العقد الفريد، ج ٤ ص ٦٧. نقلأً عن كتاب الامام الصادق لمحمد جواد فضل الله ص ٩٠.

(٣) الكافي ج ١ ص ٢٤١ نقلأً عن كتاب الامام الصادق لفضل الله ص ٩٥.

مطلقاً في كتب حديث السنة لأن كتبهم مشحونة بالأراء المختلفة والآحاديث المتناقضة التي تعود في الأساس إلى الاختلاف والتناقض في آراء الصحابة. وعلى هذا فن غير الانصاف وصف الشيعة عند الحديث عنهم بأنهم نحلة مركبة من آراء وافكار مختلفة تسللت اليه الكثير من الاوهام والباطيل^(١).

ولذلك فعندما اراد الامام الصادق عليه السلام تقييم علوم محمدى العامة في زمانه قال: «ان الناس بعد نبى الله ركب الله به سنتة من كان قبلكم فغيرةوا وبدلوا وحرفوا وزادوا في دين الله ونقصوا منه فما من شيء عليه الناس اليوم الا وهو متحرف عما نزل به الوحي من عند الله»^(٢).

وقد نفذت روايات أئمة الشيعة في فقه السنة ايضاً ونقل الكثير من محدثيهم روايات عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام وبعضاً منها مدروج في جوامع احاديثهم وتوجد ايضاً في كتب السنة الكثير من الروايات التي تشابه روايات اهل البيت من ناحية اللفظ او من ناحية المضمون^(٣).

والحقيقة ان مثل هذا الطريق في الحديث الذي نقل عن الامام الصادق في مثل هذه الموارد التي لم يطرح بشأنها اي حكم لحد الان، اظهرت حاجة اهل السنة الى الاجتهد في العصر الحالي ليبدأ بعملية استنباط من الروايات والمحصول على احكام جديدة.

والمشكلة الاساس التي كانت تواجه اهل السنة تمثل في قلة مصادر

(١) ابو زهرة، الامام ابو حنيفة ص ١١١.

(٢) الطوسي نفس المصدر ص ١٤٠.

(٣) راجع كتاب الشيخ محمد قانصوه، الروايات المشتركة، طبعة قسم العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي.

الحديث عندهم^(١) وبالاضافة الى ذلك فان المقدار الموجود منها كان مخزوناً في ذاكرة بعض الاشخاص من المؤرخين على مُدِّ متعددة ومتبااعدة مع ما كان يوجد بين تلك الروايات من اختلاف في المحتوى، وهذه الروايات نفسها كانت سبباً في مضاعفة المشكلة وقد حلّت هذه المشكلة المستعصية فيها بعد - الى حدٍ ما - عندما اعتبر علماء اهل السنة افعال الخلفاء والصحابة وحتى التابعين شرعية.

أما مدى انسجام هذا العمل مع المبني الدينية والعقلية فهي مسألة أخرى طبعاً، وقد وردت عن الامام الصادق علیه السلام رواية جميلة تشير الى ضعف الاحاديث عند غير الشيعة وهي كما يلي:

«يُظْنُ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ فَقَهَاءُونَ أَنَّهُمْ قَدْ اثْبَتُوا جَمِيعَ الْفَقَهِ وَالدِّينِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَامَةُ وَلَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمُوهُ وَلَا صَارَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَلَا عُرِفُوهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْحَكَامِ يَرِدُ عَلَيْهِمْ فَيُسَأَلُونَ عَنْهُ وَلَا يَكُونُونَ عَنْهُمْ أَثْرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ»^(٢).

وهذا الضعف في روايات اهل السنة واتكاؤهم على عمل الصحابة والتابعين ادى بشكل طبيعي الى ضعف بنائهم الفقهي، لأن اختلاف الآراء والاذواق بين الصحابة والتابعين كان على درجة من الكثرة يصعب معها جداً جمع الآراء والفتاوی، فقد كتب ابو زهرة عن العصر الذي عاش فيه كل من ابي حنيفة والامام الصادق علیه السلام ما يلي:

«لَقَدْ كَثُرَ الْمُأْثُرُ مِنْ فَتاوِيِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ كَثْرَةً عَظِيمَةً شَغَلَتْ

(١) والسبب الاساسي في ذلك يعود الى عدم السماح للناس بتدوين الحديث بعد رسول الله علیه السلام.

(٢) تفسير العياشي، ج ٢ ص ٣٣١ ط الاسلامية / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٠.

عقول الفقهاء واتخذوها نبراساً في اجتہادهم فتأثروا بها في اجتہادهم»^(١).

وعلاوة على استناد فقهاء اهل السنة الى سيرة الصحابة والتابعين، نجدهم قدموا ايضاً مصادر أخرى للحكم والفتوى اهمها طريقة القياس. وقد تذمّر أحد علماء السنة عن سبب تمسكه بالقياس فقال انه نقص النصوص^(٢). وهذا ما كان يصرّح به الامام الصادق ع في ذلك الزمان، فقال مثيراً الى الضعف في مجال الروايات عند اهل السنة «ويستحبون ان ينسبهم الناس الى الجهل ويكرهون ان يسألوا فلا يجيبون فيطلب الناس العلم من معده فلذلك استعملوا الرأي والقياس في دین الله وتركوا الآثار ودانوا بالبدع»^(٣).

يشير الامام في الرواية السالفة الى سبب اتجاه السنة نحو الرأي والقياس ويحدّده بضعفهم في مجال الحديث والرواية، وهذا التوجّه هو سبب اعراضهم عن الروايات.

وفي الحقيقة ان تشبّثهم بالرأي والقياس لسد النقص المحاصل لديهم في الحديث ادى الى ان يفقد التبعيد بالنص قيمته تقرّباً ليحل محله الرأي والقياس كمصدر للحكم والفتوى. وان فقهاً كهذا وبيّن هذه المصادر لا يمكن أن يكون فقهاً اصيلاً متطابقاً مع الآثار والاخبار.

لقد وقف الامام الصادق ع موقف المعارض لمثل هذا المذهب الفقهي، وخصوصاً الجزء الافضل من نشاطه الثقافي لعارضته اسلوب الرأي والقياس حيث

(١) الامام ابو حنيفة ص ١٠٥.

(٢) مصطفى احمد الزرقاء، المدخل الفقهي العام ج ١ ص ٧٤ نقلأً عن مجلة نور العلم العدد ١٠ ص ٥٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٠.

نقلت عنه روایات عدیدة في هذا المجال سنشير الى بعضها في الفقرات القادمة.

وكان ابو حنيفة من جملة المتمسكون بالرأي والقياس ويبدو أنه سبق الآخرين في هذا المضمار حتى ان مذهب الفقهى في العراق كان معروفاً بمذهب الرأى، ومرد ذلك هو عدم اعترافه بصحّة الروایات المقوّلة عن طريق اهل السنة. يقول ابن خلدون بشأن مجموع الروایات التي يقبلها (ابو حنيفة) هي ١٧ روایة او ما يقارب ذلك.

وكذلك مالك فانه يقبل ٣٠٠ حديث فقط ويعتبرها صحيحة^(١).

ويقول ابو بكر بن داود: تبلغ الاحاديث التي رواها ابو حنيفة مائة وخمسون حديثاً^(٢).

وكان توجّه ابى حنيفة نحو الرأى والقياس وترك العمل بالنصوص يُعزى الى سببين:

١ - عدم اعترافه بصحّة الروایات الموجودة مما حدا به الى عدم نقلها والتمسّك بها .

٢ - منذ أن اتجه الى الرأى والقياس، بدا له ان مثل هذه المصادر تغنيه حتى عن النصوص، فترك حتى ذلك المقدار الذي كان يؤمن بصحّته، وعدل الى الرأى والقياس تماماً.

وكان مركز انتشار مذهب الرأى هو العراق، وهو الاقليم الذي كان يتواجد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٤ ط بيروت.

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣، ص ٤١٦.

فيه الشيعة بكثرة ايضاً ولذلك بدا اصطدام الشيعة واصحاب الرأي امراً لا مفر منه، وفي نفس هذا السياق كان الامام الصادق علیه السلام يبذل كل مساعدة لنقض مبدأ الرأي والقياس والاستحسان.

وورد في الرواية المشهورة عن المناقشة التي جرت بين الامام الصادق علیه السلام وابي حنيفة، بان الامام حذر من القياس في الدين وذكر له عدة موارد لا يمكن استخدام القياس فيها بأي شكل من الاشكال.

فقد سأله الامام علیه السلام : أيهما اعظم قتل النفس أو الزنا؟ قال: قتل النفس. قال علیه السلام : فان الله عزوجل قد قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا اربعة، ثم أيهما اعظم الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة . قال علیه السلام : فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة فكيف يقوم لك القياس .

وذكرت امثلة أخرى من هذا القبيل في روایات أخرى^(١). وبهذا اثبت الامام كيف ان القياس يقع الفقيه في آراء وفتاوی مناقضة للاحکام المسلمة في الاسلام. وقد نقل هذه الروایة موفق المکي في كتاب مناقب ابی حنيفة وبشكل يظهر وكأنها جرت بين ابی حنيفة والامام الباقر علیه السلام وليس الامام الصادق علیه السلام ويظهر كذلك كأن ابا حنيفة هو الذي يضرب هذه الامثلة للامام الباقر علیه السلام، ويريد ان يثبت من خلال اعتراض الامام انه لا يعتقد بعيداً القياس^(٢).

لقد كان الامام يمنع اصحابه من مجالسة اهل الرأي اذا كان يؤثر على

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٣٠ / الاحتجاج ص ١٩٦ ط النجف / وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧١.

(٢) راجع كتاب ابو زهرة ، الامام ابو حنيفة ص ٦٩.

افكارهم^(١)، وقد وردت روایات كثيرة تُظهر استنكار الامام للعمل ببدأ القياس^(٢). وما كان الامام يخفي قلقة الشديد من اولئك الذين كانوا ينقلون عنه الحديث ويعملون بالقياس.

قال داود بن سرحان، سمعت الامام الصادق ع تقول : «أني لاحَدَتِ الرَّجُلُ
بِالْحَدِيثِ وَانْهَاهُ عَنِ الْجَدَالِ وَالْمَرَاءِ فِي دِينِ اللهِ وَانْهَاهُ عَنِ الْقِيَاسِ فَيُخْرِجُ مِنْ
عَنْدِي فَيَتَأَوِّلُ حَدِيثِي عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ»^(٣).

ومن المؤكد لو أن الامام الصادق ع لم يقف بوجه القياس واصحابه ومبتدعيه لتأثر فقه الشيعة -الذين لم تكن تفصلهم عن اصحاب الرأي في العراق سوى فاصلة قصيرة- ولفقد اصالته، لكننا نرى العكس من ذلك، حيث بقي فقهاء شيعة العراق يتبعدون بالنص الى حد كبير وجعلوه اسلوبهم الدائم في استنباط الاحكام وظلوا يبيّنون الاحكام الفرعية على مرّ الزمن وفقاً لتلك النصوص، وقدّموا مذهباً فقهياً غنياً ومثيراً وذا اصول وقواعد متينة وهو عمل ادّى الشيخ الطوسي دوراً اساسياً في تكوينه في (المبسوط).

واما ما يخص موضع السند فقد وجد اهل السنة انفسهم امام مصاعب جمة وهذا لم يعتمد عليه ابو حنيفة لكون اكثرا طرق الحديث ما كانت من النوع الذي يطمأن اليه والخلاصة هي ان الفقه غير الشيعي يستند الى مجموعة ناقصة من الاحاديث التي لا يعتمد عليها.

(١) المحسن ص ٢٠٥ الحديث ٣٥٦ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٦.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٢٣ - ٢٩ / الكادي ج ١ ص ٥٨ / علل الشرائع ج ١ ص ٨٢ / رجال الكشي ص ١٨٩.

(٣) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ١٧٠.

لكن الشيعة المعتقدين بعصمة الائمة وعلى رأسهم الامام امير المؤمنين عليه السلام لم تكن لديهم اي مشكلة في هذا الصدد، وحتى الكثير من علماء اهل السنة لم يكن لديهم اي شك في هذا. وابو حنيفة نفسه يؤمن بصحّة عدد كبير من الاحاديث التي وردت عن طريق اهل البيت^(١).

حتى انه سمع في احد الايام حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام ولما خرج من عنده سُئل: «لماذا لم تسأل جعفر بن محمد عن السند الذي نقل اليه الحديث عن النبي عليه السلام؟» قال: «ماذا اقول لرجل يقول قال رسول الله؟»^(٢).

والمصدر الذي كان يستند اليه الشيعة كان مقبولاً لدى السنة ايضاً لأن الامام الصادق عليه السلام كان ينقل الاحاديث عن طريق آبائه ومردّها النهائي الى امير المؤمنين عليه السلام ثم الى شخص الرسول عليه السلام فقد بقي امير المؤمنين لسنوات متعددة في محضر النبي عليه السلام، وكان فقيهاً ومحدثاً معتمداً من جميع الفقهاء والمحاذين.

وفي عهد بنى أمية اندرست الآثار المتبقية من امير المؤمنين عند غير الشيعة، ولم يحفظ تراثه وآثاره غير اهل بيته حيث تناقله ابناه وشيعته يداً عن يد وجيلاً بعد جيل.

يشير ابو زهرة الى زوال الكثير من اقوال امير المؤمنين في عهد بنى أمية قائلاً: «من غير المعقول ان يسبوا علياً على المنابر ويتركون احاديثه شائعة ومتداولة بين الناس باعتبارها مصدراً ثرياً وغنياً بالعلوم الاسلامية.. ولذلك بقيت

(١) راجع كتاب الآثار لما سئل احمد بن حنبل عن السند عن موسى بن جعفر بن محمد بن علي عن علي بن الحسين عن علي عن علي بن ابي طالب عن النبي قال: هذا اسناد لو قرء على المجنون لافق، مناقب ابن شهرآشوب ج ٢ ص ٣٧٨.

(٢) امامي المفيد ص ٢١-٢٢.

علومه بين اهل بيته فقط».

وبناءً على ما مر ذكره بقيت روايات امير المؤمنين عليهما السلام محفوظة باكمالها عند اهل بيته، وابناؤه هم الذين نقلوا احاديثه التي رواها عن رسول الله عليهما السلام وكذلك فقهه وفتواه^(١). والحديث المنقول عن هذا الطريق لا يقاس بایي سند آخر، فشخصية الائمة عليهما السلام اسمى وارفع علمياً واخلاقياً من اية شخصية أخرى وفقاً لابسط المقاييس الموجودة عند اهل السنة. وهذا السبب كان العجي - وهو من قدماء رجال الحديث عند اهل السنة - يكتب في نهاية اسم الامام الصادق عليهما السلام: «عَفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَلَىٰ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلَىٰ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَلَهُمْ شَيْءٌ لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ خَمْسَةُ أَئمَّةٍ»^(٢).

كتابة الحديث في عصر الامام الصادق عليهما السلام

لقد منعت كتابة الحديث بعد وفاة الرسول عليهما السلام الا ان كراهية كتابة الحديث بقيت سائدة بين الناس الى فترة طويلة، حتى ان بعض محدثي اهل السنة في القرن الثالث للهجرة كانوا يمتنعون عن تدوين الحديث^(٣).

وفي مقابل هذا النط، كان اهل بيته العصمة ومنذ البداية يشجعون اصحابهم على تدوين الاحاديث وحفظها من الاندرس^(٤)، وكان الامام الصادق عليهما السلام شأنه في ذلك شأن بقية الائمة يؤكّد على هذا الامر كثيراً. ورغم ان

(١) ابو زهرة الامام الصادق ص ١٩٥.

(٢) العجي، تاريخ الثقة ص ٩٨.

(٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٦١ / جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٨-٧٩ / سنن الدارمي ج ١ ص ١١٩ - ٢١٠ .

(٤) الطبقات الكبرى ٦ ص ١٦٨ / تقييد العلم ص ٩٠، ربيع البارج ٣ ص ٢٩٤ .

بعض الاشخاص في عهده بدأوا بجمع وتدوين الاحاديث لكن الكثير لم يزل في شك وربة من ذلك، وقد اشار ابو زهرة الى أن الامام الصادق ع عليهما السلام كان من دعاة كتابة الحديث مدعياً ان هذا الامر كان شائعاً في تلك الايام، كما ان مالك بن انس الف كتابه (الموطأ) في جمع الاحاديث في ذلك العصر^(١). ولو قبلنا ان مالكأ كتب موظأه في ذلك العصر فان ذلك كان خلافاً للمسار العام الذي كان سائداً آنذاك كما هو الحال بالنسبة لأبي حنيفة الذي امتنع عن القيام باي اجراء في هذا الصدد.

فقد روي انه كان يقول: «رأيت رجال الحديث واخذته عنهم، اما جعفر بن محمد فهو صحاف». فلما بلغ هذا الكلام الى سامع الامام الصادق ع عليهما السلام ضحك وقال: «حقاً انتي صحاف فقد قرأت صحاف اجدادي وصحف ابراهيم وموسى»^(٢). والاستناد الى صحف الآباء يدل على انه ورث عن آبائه صحافاً وهذا تأييد صريح لحقيقة ان فقه الشيعة يعوّل ومنذ عهد الرسول ﷺ على ركيزة مدونة في الحديث. وفي هذا المضمار تُقلّت عشرات الروايات في كتب الشيعة الروائية تشير الى أن الآئمة ينقلون الاحاديث للناس من تلك الصحف وكانوا يؤكدون للناس في بعض الاوقات على ضرورة مشاهدة تلك الصحف^(٣).

وجاءت روایات متعددة عن الامام الصادق ع عليهما السلام يحيث فيها اصحابه على كتابة الحديث وهي تُظهر ايضاً ضعف رغبة الناس آنذاك في تدوين الاحاديث. فقد جاء في رواية آنده ع عليهما السلام قال: «أكتب وبيث علمك في اخوانك فان مُت فورث

(١) ابو زهرة الامام الصادق، ص ٩٥.

(٢) روضات الجنات ج ٨ ص ١٦٩.

(٣) فروع الكافي، ج ٧ ص ٧٧-٩٨-٩٥ / مکاتیب الرسول ص ٧٣-٧٦ / رجال النجاشی ص ٢٥٥.

كتب بنيك»^(١).

الامام الصادق والاحتجاجات الفقهية لأهل السنة

يختلف المذهب الفقهي الشيعي مع الرؤيا الفقهية عند اهل السنة في عدة جوانب.

في الفترة التي عاش فيها الامامان الباقي والصادق عليهما السلام كان الفقه في حالة واسع و كانت هناك احتجاجات مختلفة تطرح في مجال تطبيق الاحكام على الموارد الجديدة. وكان الامام الصادق عليهما السلام يؤكد ان آثار رسول الله عليهما السلام موجودة بتمامها عند اهل البيت فقط، في الوقت الذي ضيّعها الآخرون بقيت باجمعها عندهم من غير أن يمسّها اي سوء، يقول الراوي سألت الامام الصادق عليهما السلام:

«اصلحك الله اتى رسول الله عليهما السلام الناس بما يكتفون في عهده؟ قال: نعم وما يحتاجون اليه الى يوم القيمة. فقلت: فضاع من ذلك شيء؟ فقال: لا، هو عند اهله»^(٢).

الضغط السياسي على الشيعة

لم تتوفر الحرية السياسية في عهد الامام الصادق عليهما السلام سوى في العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وكانت حرية نسبية طبعاً بقيت خلاها نشاطات الامام وشيعته تحت المراقبة. اما قبل هذه الفترة وما بعدها فقد كانت اشد الضغوط السياسية تُمارس ضد الشيعة على يد بني امية وبني العباس حيث لم يكن يسمح

(١) كشف الغمة، ابن طاوس، نقاً عن بحار الانوار ج ٢ ص ١٥٠ كتاب العلم.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٢٣.

لهم بالتعبير عن وجودهم. جاء في الرواية:

قال رجل لأبي جعفر الثاني عليه السلام: «جعلت فداك ان مشايخنا رروا عن أبي جعفر وابي عبدالله عليهم السلام وكانت التقية شديدة فكتبوا كتبهم ولم ثرّوا عنهم، فلما ماتوا صارت الكتب علينا، فقال: حدثوا بها فأنها حق»^(١).

وهذا التضييق طبعاً ادى الى أن تبقى علوم اهل البيت وفتاواهم متروكة. فعن ابان بن تغلب، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام اني اقعد في المسجد فيجيء الناس فيسألوني، فان لم اجبهم لم يقبلوا مني واكره ان اجيبهم بقولكم وما جاء عنكم! فقال لي: انظر ما علمت انه من قولهم فاخبرهم بذلك»^(٢).

ان تأكيد الامام الصادق عليه السلام على التقية هو دليل واضح على وجود مثل هذه الضغوط السياسية. فقد كان خطر الهجوم على الشيعة متوقعاً الى درجة ان الامام اعلن ان ترك التقية هو بثباته ترك الصلاة^(٣).

فن جملة ما قاله الامام للملعنى بن خنيس الذي قتل بيد حكام ذلك العصر، ما يلي: «يا معلى اكتم امرنا ولا تذعه فان من كتم امرنا ولا يذيعه اعزه الله في الدنيا»^(٤).

وعلى اية حال توجد روايات تشير الى ان الضغط كان شديداً على الشيعة حتى ان احدهم كان ير على صاحبه فلا ينظر اليه^(٥). وجاء في رواية أخرى عن

(١) الكافي ج ١ ص ٥٣ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٨.

(٢) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ٣٣.

(٣) مستدرك الوسائل ج ١٢ ص ٢٥٤ / وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٥٩ وما بعدها.

(٤) مختصر بصائر الدرجات ص ١٠١.

(٥) الطوسي اختيار معرفة الرجال، ص ٣٧٨ / مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص ٢٩٧ - ٢٠٠ / وسائل

جواسيس المنصور ما يلي : «كان له بالمدينة جواسيس ينظرون على من اتفق
شيعة جعفر فيضربون عنقه»^(١).

وجاء في تاريخ الواقدي ان المنصور قبض على معتب وهو من علمان الامام
الصادق عليه السلام فضربه الف سوط الى أن مات^(٢).

وفي ذلك العهد كان اتهام اي شخص بالرفض كافياً لزوال حرمة نفسه
وماله فيؤخذ ويعذب^(٣).

الامام الصادق عليه السلام والمسائل السياسية

ا- ثورة زيد :

وقدت في عهد الامام الصادق عليه السلام احداث سياسية مهمة كان من جملتها
حركة العلوين (قيام زيد بن علي، وقيام محمد بن عبدالله بن الحسن و أخيه ابراهيم
في الاعوام ١٤٥ - ١٤٦) وثورة العباسين التي تبعها سقوط الحكومة الاموية
وسيطرة بني العباس على مقاليد الامور وابتعاد العباسين عن العلوين وهو ما
كانت ارضيته قد تهيأت قبل وصول بني العباس الى السلطة، وهذه من جملة
الاحداث التي وقعت في عهده.

ولا يسعنا المجال لطرح جميع المسائل السياسية والدينية المهمة التي حصلت

⇒ الشيعة، ج ١٩ ص ٣٢.

(١) الطوسي نفس المصدر ص ٢٨٢.

(٢) المنتخب من ذيل المذيل، ج ٣ ص ٦٥٢.

(٣) المحسن ص ١١٩ / حياة الامام الباقي عليه السلام، ج ١ ص ١٥٦.

للعلويين والعباسيين (بني هاشم) منذ اوائل القرن الاول للهجرة وبشكل كامل ومفصل، لكننا سنحاول توضيح المسائل المذكورة فيما يتعلق منها بالامام الصادق عليه جهد الامكان.

فالولاء الذين كان يحظى به العلويون - والفاتميون على وجه الخصوص - بين محبي اهل البيت لم يكن يحظى به العباسيون. وكان لهذا الولاء اسبابه المختلفة من اهمها معاملة النبي ﷺ لهم . اضافة الى ان مسألة امامية امير المؤمنين وابنائه - والتي كانت ذات اهمية قصوى بالنسبة للشيعة على اقل تقدير - كانت ترفع من نسبة هذا الحب و الولاء . وكان الفاطميون هم المتبقيون الوحيدة من نسل النبي ﷺ ، وهذا ما كان يعطيهم اهمية خاصة ايضاً .

وبعد شهادة الامام الحسين عليه ، كان محمد بن الحنفية يتميز بمقام اجتماعي وسياسي مرموق ، الا أن الشخصية العلمية والاخلاقية للامام السجاد احتلت مكانتها في المجتمع بالتدرج واضحت الشخصية الوحيدة من اهل بيت رسول الله ﷺ التي تستقطب الانظار . فهو الولد الوحيد من بين ابناء الامام الحسين من على عليه الذي نجى من واقعة كربلاء الرهيبة . وحال بيقائه دون انقراض ذرية فاطمة بنت الرسول الكريم ﷺ عن طريق الحسين .

كما ان عبدالله بن عباس كان من الشخصيات العلمية المعروفة في صدر الاسلام ، وقد ادرك صحبة الرسول ويُعد من اكبر واوثق محدثي عصره . والي زمن وفاته (٦٨ هـ) لم يقع اي اختلاف بين العلويين وبين العباس ، لكنه ما ان توفي حتى بدأ الاختلاف يدب بين الفريقين بالتدرج . في اوائل القرن الثاني بدأ العباسيون يفكرون بالاستقلال عن العلويين وكانوا يدعون الناس سرّاً الى انفسهم ، ولكن لم يكن يحدوهم كبير امل في النصر ، وذلك لان الناس كانوا يعتبرون آل علي هم

المتبقي الوحيد من ذريته النبي، وكان الظلم الذي تعرّضت له هذه العائلة وخصوصاً بعد مأساة كربلاء قد رفع منزلتهم الاجتماعية بين الناس الى درجة كبيرة.

وكانت الثورة التي قادها زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام تأكيداً آخر على أهمية العلوين عند اهل العراق. ومع ان زيداً كان أخ الامام الباqr عليهما السلام، إلا أن الاهمية العلمية التي كان يحظى بها الامام الباqr في المجتمع، اذت الى عدم حصول زيد وحركته الثورية على وقع شديد في نفوس الناس، رغم كونه من زمرة المحدثين وموضع اهتمام اهل العراق بسبب كونه علوياً.

وفي العام (١١٤ هـ) ارتحل الامام الباqr عليهما السلام فيدأ الامام الصادق عليهما السلام يستقطب الانظار بصفته الامام السادس من ائمة الشيعة. وفي اواخر العقد الثاني من القرن الثاني للهجرة قرر زيد -بعد سلسلة من المشاحنات والمشاجرات اللفظية مع هشام بن عبد الملك- رفع لواء المعارضة ضد السلطة الحاكمة. فأعلن ثورته في الكوفة في صفر من العام (١٢٢)، واستشهد بعد يومين من المعارك ^(١). والمهم بالنسبة لنا هنا هو موقف الامام الصادق من خروج زيد ومن الفرقة المسماة بالزيدية التي اعلنت عن وجودها في العراق بعد مقتل زيد.

تذكر الروايات الشيعية ان زيداً كان من المعتقدين بامامة ائمة الشيعة ومن جملتهم الامامان الباqr والصادق عليهم السلام كما نقل عنه انه كان يقول: «جعفر امامنا في الحلال والحرام» ^(٢).

(١) هناك اختلاف حول تاريخ استشهاد زيد.

(٢) الطوسي، نفس المصدر ص ٣٦١، راجع كتاب رجال النجاشي ص ١٣٠ / كفاية الاثر ص ٣٢٧ / كريمان سيرة وقيام زيد ص ٤٩.

وجاء في رواية عن الامام الصادق عليه السلام بحق زيد انه قال فيه : «رحمه الله اما انه كان مؤمناً وكان عالماً وكان صدوقاً اما انه لو ظفر لوفي أما انه لو ملك يعرف كيف يضعها»^(١).

وفي هذا الصدد نقلت روايات كثيرة، ولذا لا يمكن التحدث عن زيد بعزل عن الامام الصادق عليه السلام كما لا يستبعد ان يكون زيد ورغم قبوله بامامة الامام الصادق عليه السلام قد ثار غير ملتفت لا وامرها ولا مدع لخلافة نفسه، فتزعم بحركته تلك، الثورة ضد بنى امية، الذين كان يعتبرهم رمزاً للجاهلية، بعد ان دام الصراع والجدال بينهم وبين عائلته حول موضوع الخلافة الاسلامية الى ما يقارب الثمانين عاماً.

وقد وردت عدة روايات عن الصادق عليه السلام يخبر فيها مسبقاً بشهادة زيد في محله الكناسة في الكوفة^(٢).

وجاء في روايات أخرى ان الامام الصادق عليه السلام اعلن عن تأييده لزيد في مقابل بعض الشيعة الذين تبرأوا منه^(٣). وقد وردت روايات كلا القسمين في مصادر اهل السنة. وهي في نفس الوقت الذي تبعث على الثقة والاطمئنان الا أنها لا تعكس رضى الامام على مبدأ قيام زيد وخاصة بسبب ما ورد في الكافي وبعض جوامع احاديث الشيعة الأخرى من انتقاد لثورة زيد.

ومن بعد ثورة زيد وفي اعقاب استيلاء بنى العباس على السلطة انفصل بنو

(١) الطوسي، نفس المصدر ص ٣٨٥.

(٢) عيون اخبار الرضا ج ١ باب ٢٥ / امامي الصدوق مجلس ١٠ ص ٤٠ / تقييح المقال ج ١ ص ٤٦٨.

(٣) خطط المقرizi ج ٤ ص ٣٠٧ / فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٠.

الحسن عن بنى الحسين بذرية زيد وابنه يحيى، ونصبوا لهم رجلاً من بنى الحسن يدعى محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام والتقووا حوله. وقد التف حول هؤلاء ايضاً جماعة من الشيعة اطلق عليهم فيما بعد اسم الزيدية. ثم بزرت بين آل جعفر والزيدية خلافات شديدة وصراعات حادة جعل الزيدية فيها الامام الصادق غرضاً للاتهامات المختلفة.

فقد ورد في الحديث ان الزيدية اتهموه بأنه لا يرى الجهاد في سبيل الله فردهم وقال : «ولكنني اكره ان ادع علمي لجهلهم»^(١).

ب - الامام الصادق ودعاة ابى سلمة وابى مسلم .

عقد الامام الصادق عليه السلام العزم على تربية شخصيات من اصحابه عدّوا فيما بعد من بناة التشيع من الناحية الفقهية ومن ناحية الاحاديث والروايات وكانت المساعي السياسية للامام في تلك الظروف محصورة في نطاق عدم الرضا عن الحكم القائم، والاعلان عن انحصار الامامة وقيادة الاسلام باهل بيت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه. وكان الامام الصادق عليه السلام يرى ان المعارضه المسلحة ضد الحكم من غير توفير المستلزمات الضروريه - خاصة في الجانب الثقافي - لن يتمكّن منها سوى الهزيمة والاندثار. وان مثل هذا العمل كان يستلزم تحركاً شيعياً شاملاً يعتقد بالامامة لكي تبدأ المجهود المضاد للحكومة التي يمكن بلوغ النصر من خلاها، والا فان الاجراء الساذج والمستعجل لن يدوم طويلاً بل سيفيد منه الانتهازيون لا اكثراً. كما هو الحال بالنسبة لثورة زيد بن علي ومن بعدها ثورة ابنه يحيى التي قام بها في خراسان، فقد استغلها العباسيون الى اقصى حدّ وكانوا يشيعون في

(١) فروع الكافي ج ١ ص ٣٣٢ / التهذيب ج ٢ ص ٤٣ / وسائل الشيعة ج ٢ ص ٣٢.

دعایاتهم بأنهم المقصودون بشعار الرضا من آل محمد، واقترن عملهم هذا بقتل عدد من الطالبيين - كما ذكر بعض المؤرخين - الذين كانوا يدعون لنيابة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

وقد اتضحت نتيجة هذا الموقف فيما بعد حيث اضحت الفقه الجعفري نواة لتشييع قوي. وأخذ يرتفع شامخاً يوماً بعد آخر، واما الزيدية والخوارج الذين انحصر نشاطهم بالجانب السياسي فقط فما لبثوا ان تعرّضت ثقافتهم للاضمحلال وقدوا شيئاً فشيئاً ما كانوا يمتعون به من مكانة قوية نسبياً وانحدروا نحو الافول فكانت النتيجة هي انتصار العباسيين في تلك المعركة السياسية العسكرية واستيلائهم على مقايد الامور. في حين ان الشخص المرشح عن بني هاشم كان رجلاً من بني الحسن اسمه محمد بن عبدالله والذي سنتحدث عن ثورته لاحقاً. واما هنا فستتناول ذلك الجانب الذي يرتبط بالامام الصادق عليه السلام وبني العباس فقط.

لقد كان الدور الأساس لدعوة بني العباس منحصراً في شخصين وهما ابو سلمة الخلال الذي اشتهر بوزير آل محمد^(١) وابو مسلم الخراساني، كما سنوضح ذلك في حينه. وكان شعار الحركة في بداية الامر هو الرضا من آل محمد، حيث لم تكن اذهان الناس عند سماعهم لهذا الشعار لتنصرف إلاّ الى احد العلوين. لكن الضعف السياسي الذي كان يسود العلوين والجهود المتواصلة لبني العباس قد غير مسار الاحداث الجارية وراء الستار لصالح الفريق الثاني. كما أن مجريات الامور كانت بيد ابي سلمة الخلال الذي هيأ للسفاح والمنصور في الكوفة، وأخذ البيعة للسفاح من الناس بمجرد سقوط بني امية، الا انه لم يلبث ان اتهم بالدعوة للعلويين

(١) الوزراء والكتاب ص ٨٤ كان هو ابو مسلم من الموالي.

وانه يعمل للمجيء بهم بدل العباسين، فقتل في تلك الظروف . ولم تكن الارضية مهيأة امام الصادق عليه السلام بل ان ذا النفس الزكية (محمد بن عبد الله) الذي كان يتمتع بظروف ايجابية من الناحية السياسية لم يستطع الصمود امام العباسين ومواصلة وجوده . وانطلاقاً من هذه الحسابات، لم تكن امام العلوين اية فرصة لأي نوع من الجهود السياسية التي تبني عليها الآمال .

كان الامام الصادق يرى ان دعوة ابي سلمة لا تستند الى ركائز متينة، ولذا رد على الكتاب الذي بعثه له ابو سلمة وقال لرسوله: «ابو سلمة شيعة لغيرنا»^(١) .

وذكر بعض الرواية ايضاً ان ابا مسلم ارسل كتاباً ايضاً الى الامام الصادق عليه السلام فكتب له الامام في الجواب : «ما انت من رجالي ولا الزمان زماني»^(٢) . وعلى كل حال فقد كان موقف الامام حذراً ولم يوافق على ما ورد في الكتاب واوصى ايضاً عبدالله بن الحسن باتخاذ نفس هذا الموقف فيما يخص ابنه محمدأً (ذا النفس الزكية) .

ان وفاء ابي سلمة للعباسيين، وعدم تركه القطعي لهذا الأمر دليل على عدم جدّية دعوته . وحتى اذا فرضنا اصراره على تلك الدعوة الا أن القيام بمثل هذا الامر مع وجود اشخاص مثل ابي مسلم والعباسيين كان يبدو امراً غير عملي وكان القبول به يعني الوقوع في الهمكة .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٦٩ / الوزراء والكتاب ص ٨٦.

(٢) راجع كتاب - حياة الامام الرضا ، ص ٤٩ .

ج - الموقف تجاه المنصور .

لقد تزامن الردح الاخير من حياة الامام الصادق عليه السلام مع عهد حكومة المنصور. وكان الامام هو الشخصية المعنوية الوحيدة البارزة بين بنى هاشم ^(١). وكان يتمتع في زمن المنصور بشهرة علمية عظيمة واهتمام وتبجيل الكثير من علماء الستة. ونظراً لما يكتبه المنصور من حقد على العلوين كان من الطبيعي أن يضيق عليه الخناق ولا يتبع له فرصة العيش بحرية. وكان الامام يعتقد - شأنه شأن آبائه - ان الامامة حق خاص به وان الآخرين قد غصبوها منه، ولم يكن ليخفى مثل هذا الاعتقاد، وكان سلوك بعض اصحابه مثل ابن ابي يغفور فيها يخنق كونه واجب الطاعة، يعكس مدى اعتقاد الشيعة الراسخ بهذا المبدأ. يقول الامام الصادق عليه السلام في حديث له: «بني الاسلام على خمسة اشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية .

قال زرار: فقلت واي شيء من ذلك افضل؟

فقال: الولاية افضل لأنها مفتاحهن والوالى هو الدليل عليهم» ^(٢) .

لقد طرحت الولاية هنا بصفتها ركناً يتوقف عليه تطبيق بقية الاركان. ومثل هذا الطرح كان بثابة ناقوس خطر يهدد المنصور، وهذا فقد بدأ يتحين الفرص حتى يغتال الامام بذرية ما .

كتب ابن عنبة يقول: «قرر المنصور عدّة مرات قتل الامام، لكن الله

(١) ابن عماد الحنبي، شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠ / جهاد الشيعة ص ٤٠٤ .

(٢) وسائل الشيعة ج ١ ص ٧-٨ .

حفظه»^(١).

وكانت نشاطات الامام في اغلب الاحيان تجري في الخفاء وكثيراً ما كان يؤكد على اصحابه بضرورة كتمان اسرار اهل البيت وقد نقلت عنه في هذا المضمار روایات كثيرة^(٢). وهذا لم يذكر التاريخ بدقة كيفية عمل الامام، غير ان قيادة الشيعة -وكما ذكرنا سابقاً- كان لها برنامج ونشاط في الخفاء بحيث ظلت حافظة على انسجام الامامية.

وكان الامام يرفض -إلا بالاكراه- التردد على بلاط المنصور، فكان المنصور يلومه على ذلك^(٣)، حيث قال له في احدى المرات: «لماذا لا تغشانا كما يغشنا سائر الناس؟ فقال له: ليس لنا ما تخافك من اجله وليس عندك من امر الآخرة ما نرجو له. ولا انت في نعمة فنهنئك، ولا تراها نعمة فنعزّيك بها، فما نصنع عندك؟»^(٤).

وبهذا الاسلوب كان الامام يعبر عن سخطه على حكومة المنصور، وكذلك كان يحذر اصحابه واتباعه من مجالسة الملوك بهذه المقوله الخالدة: «اياتك ومجالسة الملوك»^(٥).

بل انه حذر العلماء الذين يترددون على بلاط الملوك من عملهم هذا فقال:

(١) عددة الطالب في انساب آل أبي طالب ص ١٩٥ ط النجف.

(٢) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٢٩١ - ٣٠٤.

(٣) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٣٠٧.

(٤) كشف الغمة، ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ / ابو زهرة الامام الصادق ص ١٤١.

(٥) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٣١٠.

«الفقهاء امناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا الى السلاطين فاتّهموهم»^(١).

وفي احد الايام سأله المنصور: يا ابا عبدالله لم خلق الله الذباب؟

فقال: «ليذل به الجبابرة»^(٢).

ونقلت روایات اخرى ايضاً عن الامام الصادق علیه السلام قوله: «لا تحاکموا الى الطاغوت».

وهي تعكس غط سلوكه مع السلطة الحاکمة. واجاب على سؤال عرض عليه بهذا الصدد فقال:

«من تحاکم اليهم (السلطان او القضاة) في حق او باطل فانّما تحاکم الى الطاغوت»^(٣).

وقد تصور بعض المؤلفين بان سياسة الامام ينبغي ان تكون اما قائمة على الثورة او ان يكون على رأس السلطة. ومثل هذا التصور صحيح من وجهة نظر الزيديه، اما من وجهة النظر الشيعية، فان سياسة الامام كانت تقوم على قيادة اکثر الثورات شدة وتطرفاً ضد الحكومات الفاسدة لبني امية وبني العباس وتكون مثل هذه الثورات مع ذلك مدعومة بأسس ثقافية وفقهية متينة وذات جذور عميقة. وقد اتضح مثل هذا بصورة جلية في تاريخ الشيعة وبدأ اطلاق اسم المذهب المعيري على مذهب الامام الصادق علیه السلام في عهده^(٤).

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ١٨٤ / تهذيب الكمال ج ٥ ص ٨٨ / الذهبي سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٦٢.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٨ / تهذيب الكمال ج ٥ ص ٩٢ - ٩٣.

(٣) فروع الكافي ٧ ص ٤١ / التهذيب ج ٦ ص ٢١٨ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤.

(٤) رجال الكشي ص ٢٥٥.

ومن هنا يمكن اكتشاف الخطأ الفادح الذي وقع فيه الشهري، فقد كتب هذا الرجل عن السلوك الاجتماعي للإمام قائلاً: «ما تعرض للإمام قط ولا نازع أحداً الخلافة قط»^(١).

ومثل هذا الكلام لا ينسجم مطلقاً مع الواقع العيني لوضع الشيعة لا في عصر الإمام ولا بعده.

د - موقف الإمام من محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية).

نشأ الاختلاف بين بني الحسن وبني العباسين عندما اعتبر عبدالله بن الحسن بن الحسن ابنه مهداً هو قائم آل محمد^(٢)، ويبدو ان العباسين وخاصة المنصور قد وسعوا من نطاق هذا الاختلاف لغرض استغلاله سياسياً، فبعد قيام واستشهاد زيد، اجمع بنو هاشم من علوتهم وعباستهم على بيعة محمد بن عبد الله (باستثناء الإمام الصادق وعدة اشخاص آخرين).

ولو امعنا النظر فيما نتعلمه من معلومات عن الحركة العباسية التي كانت تجري في الخفاء لأدركنا ان ذلك الفعل كان موقفاً سياسياً صرفاً او انه حصل اضطراراً. وقد نقل ابو الفرج الاصفهاني وقائع تلك البيعة بالتفصيل. فقد ذكر ان من حضر من العباسين داود بن علي وابراهيم الإمام صالح بن علي والمنصور والسفّاح. ولما جاؤوا على ذكر الإمام الصادق عليه السلام قال عبدالله بن الحسن والد ذي النفس الزكية: «لا نريد جعفرأً لئلاً يفسد عليكم امركم».

وبعد أن حضر الإمام في ذلك المجلس واعلن معارضته لثورتهم فسر

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧.

(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٤١.

عبدالله بن الحسن عمله هذا بالحسد^(١).

ولم يمض طویل من الوقت حتى ثار كلا الأخوين محمد بن عبدالله بن الحسن في المدينة وابراهيم في البصرة، وقتلوا بعد معركة قصيرة مع الجيش العباسى. وكانت تلك الهزيمة بداية لسلسلة من الهزائم التي لحقت بالزیديين الذين ثاروا في العراق وايران، ولم تفلح سوى واحدة منها وهي ثورة الحسن بن زيد في طبرستان التي نالت انتصاراً نسبياً واستمرت مدة زهاء النصف قرن (النصف الثاني من القرن الثالث)^(٢).

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤١-٤٠ / كريمان، سيرة وحياة زيد ص ٧٥ نقاً عن الارشاد ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) كشف الغمة ج ٢ ص ١٧٢-١٧٣ / راجع كتاب الطبرى ج ٧ ص ٣٠٢ ط عز الدين.

الفهرست

٧	مقدمة السيد جعفر مرتضى العاملي
٧	دراسة حياة الائمة <small>عليهم السلام</small> شمولاًً وعمقاً
٩	آفاق البحث
١٠	سؤال .. وسؤال آخر
١١	تارikhان .. غير متجانسين
١٢	التزوير .. والاصالة
١٤	بين الافراط والتفريط
١٧	مدخل دراسة ، تعوزه الفهرسة
١٨	نقاط مهمة
٣٣	مقدمة المؤلف: اهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٤٥	الامام علي <small>عليه السلام</small>
٤٨	معرفة مختصرة
٤٨	إيان علي <small>عليه السلام</small>
٥١	صحبة علي <small>عليه السلام</small> لرسول الله <small>صلوات الله عليه وآله وسلامه</small>
٥٦	سياسة الامام علي <small>عليه السلام</small>

٥٧	خلافته عليهما
٥٨	المبادئ والاصول السياسية للامام طيلة حكمه
٦٣	مصير السياسة في حكومة امير المؤمنين عليهما
٦٨	تحرك الامام عليهما لاحياء الدين
٧٤	البعد العلمي للامام علي عليهما
٧٧	نقط حياة الامام عليهما
٨١	الامام الحسن عليهما
٨٧	المشاركة في حروب الجمل وصفين والنهر والنهر
٨٩	مسؤولية الامام عليهما
٩٣	رغبة الامام عليهما القاطعة في محاربة معاوية
٩٥	حركة اهل العراق البطيئة لمحاربة القاسطين
٩٨	الصلح المفروض من قبل معاوية وتحليل أسبابه
١٠٤	الصلح المفروض وبنوته
١١٠	خطبة الامام عليهما بعد دخول معاوية الى الكوفة
١١١	الامام عليهما ومعاوية ومحاربة الخوارج
١١٣	خصائص الامام الحسن عليهما
١١٥	استشهاد الامام عليهما
١١٩	الامام الحسين عليهما
١٢٣	الامام الحسين عليهما ومبادلة يزيد

١٣٥	دور الانحراف الديني في واقعة كربلاء
١٣٦	طاعة الائمة <small>عليهم السلام</small> ووجوب حفظ الجماعة ، وحرمة نقض البيعة
١٣٩	الاعتقاد بالجَبَر
١٤١	موقف أهل الكوفة من واقعة كربلاء
١٤٤	ضغط ابن زياد على أهل الكوفة
١٤٦	فرار الناس وانحيازهم الى معسكر الحسين <small>عليه السلام</small>
١٥٠	تعلق الناس بالعطاء
١٥١	تقويم سفر الامام الحسين <small>عليه السلام</small> الى العراق
١٦١	عنصر الغيب في حادثة كربلاء
١٦٢	دور واقعة كربلاء في تكوين الشيعة
١٦٥	الامام السجّاد <small>عليه السلام</small>
١٧١	أمّ الامام السجّاد <small>عليه السلام</small>
١٧٢	امامة السجّاد <small>عليه السلام</small>
١٧٣	الشخصية العلمية والأخلاقية للامام السجّاد <small>عليه السلام</small>
١٧٩	الامام السجّاد <small>عليه السلام</small> والشيعة
١٨١	العلاقة بين الامام <small>عليه السلام</small> والتوابين
١٨٥	علاقة الامام <small>عليه السلام</small> بالمحatar
١٨٩	الامام السجّاد <small>عليه السلام</small> واصحابه
١٩١	موقف الامام <small>عليه السلام</small> من الامويين
١٩٦	استفاداته <small>عليه السلام</small> من سلاح الدعا

٢٠٢ الامام السجاد عليه السلام واستقطاب الموالى

٢٠٧ الامام الباقر عليه السلام

٢١١ المكانة العلمية للامام الباقر عليه السلام

٢١٦ الامام عليه السلام والاختلافات الفقهية بين الفرق الاسلامية

٢٢٢ تصدّيه عليه السلام للافكار اليهودية

٢٢٥ التراث الثقافي للامام الباقر عليه السلام

٢٣١ اوضاع ومكانة الشيعة وفقاً لرأي الامام عليه السلام

٢٣٨ الامام عليه السلام والقضايا السياسية

٢٤٩ الامام الصادق عليه السلام

٢٥٣ شخصية الامام الصادق عليه السلام الفقهية والاخلاقية

٢٦٠ شيعة الامام الصادق عليه السلام

٢٦٣ الامام الصادق عليه السلام والغلاة

٢٧٧ اعتقاد الفقه الشيعي على روایات اهل البيت عليهما السلام

٢٨٣ كتابة الحديث في عصر الامام الصادق عليه السلام

٢٨٥ الامام الصادق عليه السلام والاحتجاجات الفقهية لاهل السنة

٢٨٥ الضغط السياسي على الشيعة

٢٨٧ الامام الصادق عليه السلام والمسائل السياسية

٢٩٩ الفهرست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ